المشهدي [illegible]

صدر الاسلام

[illegible]

صور إسلامية

إلى صاحب دار التراجم
مع تحيات المؤلف
عبد الحميد المشهدي

الجزء الثاني

عبد الحميد محمد المشهدي



حينما تقدمت الى القراء وكتابي هذا بيميني، أعني الجزء الاول منه، لم يكن يخالجني شك، في أنه سيلقى من نفوسهم ترحيبا، ذلك لاني ذرعت القطر المصري من أقصاه إلي أقصاه، فلم أجد أفعل في نفوس المصريين ولا أقوى في تحريك عواطفهم، وأحيانا في استدرار الدمع من عيونهم مثل (الله أكبر) وماجري مجراها من عبارات تمجيد الله! وشكره، وتوحيده بل اني لاذكر رجالا من البوليس جاءوا الينا يحملون عصيا. أوحملتهم أوامر رؤسائهم خوذات وبنادق، ليقضوا علينا فما كانوا يسمعون (الله أكبر)، حتى ذابت خشونتهم، وزالت غضبتهم، واعتروحوا في هتافنا عطرا أسعدهم، وبعث أملهم في حياة هانئة راضية.

وكتابي «صور اسلامية» بسيط بساطة (الله أكبر) وأحسب أنه واضح وضوحها، فكيف لا يلقاه المصريون، مرحبين، متجاوزين عما قد يكون في عبارته من ضعف غافرين لكاتبه ما قد وقع فيه من خطأ.

واذا كان لكل صوت رجع صدى، فان الجزء الثاني من صور اسلامية هو صدي تشجيع القراء وتأييدهم. فأرجو أن يزداد الصوت في قابل الايام قوة، وأن يكون له دائما صداه العظيم...

ولست أعد القراء إلا بأنهم سيجدون في هذا الجزء تفصيلا جديدا لهذه الانشودة التي صاح بها العرب، في وجه الشدة وترنموا بها عند الفرج فدانت الدنيا لهم. وأعني بها الله أكبر ... الله أكبر.

المؤلف

مقدمة الجزء الثاني

بقلم الكاتب المجاهد الاستاذ فتحي رضوان

تقوم في أوروبا اليوم عبادة تزري بكل عبادة اخرى فيها . وهي عبادة جديدة فلها ما لكل شيء جديد من الطرافة — الطرافة عند معتنقيها والتابعين لها ، وعند أصحابها والداعين اليها . هذه الطرافة التى تؤجج في صدور المؤمنين نار الايمان ، وفي صدور الدعاة ، حرارة الدعوة .

هذه الدعوة الجديدة أو هذا الدين المستطرف ، تلخصه كلمة « الزعيم » فمنذ نحو ربع قرن أو يزيد ، وأكثر أوروبا ، لا يعرف له دينا ، يدافع عنه وينافح ، ويجاهد في سبيله ويكافح الا « الزعيم » وقد بدأ هذا الدين أول ما بدأ في روسيا ، حينما تقوضت أركان القيصرية فسقط القيصر ثم سجن ، ثم اعدم هو وزوجه وأولاده ، في قرية نائية بعيدة ، دون أن يسمع باعدامه أحد ، إلا جدران البيت الذى نفي فيه أياما قبل مقتله .. الجدران التي رددت صدى الرصاصات واحدة بعد أخرى ، وسط وجوم رهيب انهارت القيصرية ، وقد كان عماد قوتها أنها كانت شيئا مقدسا .. كانت ظل الله في أرضه ، لا يرفع الروسي عينه اليها ، إلا كما يرفع رأسه الى السماء ، والانسان لا يرفع رأسه الى السماء ليحاسبها على خطأ ارتكبته ، ولا ليعتب عليها ، تقصيراً قارفته ، ولا ليحتم عليها أن تنتهج نهجا خاصا في أمر من الامور . بل ان الانسان يرفع الى السماء أكف الضراعة مبتهلا منيبا مستغفرا مسلماً أموره لخالقه

كانت القيصرية هي السماء القريبة للروسي، كان يلجأ اليها — لا ليلتمس القوت، ولا ليطلب الكساء، بل ليطلب البركة .. وقد كانت «البركة» هي كل ماتمنحه القيصرية للشعب الروسي الجائع المريض، الجاهل المفكك العري، الموزع بين فاقته وجبنه . . فلما زالت القيصرية — زالت البركة معها، والفي الفلاح الروسي المسكين نفسه، كسيدة تعرت أمام الناس فلم تقو على مواجهة أنظارهم، فجعلت تعدو هنا، وتجرى الي هناك . طالبة الملجأ، ملتمسة الستر: ونفسها في أشد الحيرة .

نعم، كانت هذه حالة الفلاح الروسي، ضاع منه القيصر الذي كان يسميه (الوالد) وضاعت مع القيصر الكنيسة، فلم يعد الفلاح يري القسيس ذا المسوح الاسود، والطيلسان الحريري السابغ، واختفى الصليب الذي كان يحمله هؤلاء القساوسة، ويقربونه الى شفتي الفلاح المسكين، فيقبله مغمضا عينيه، شاعرا بأن قلبه قد انسكبت فيه قطرات من ماء الهدوء والارتياح .

وجاء الي الفلاح الروسي قوم جدد غير القيصر، وغير قساوسة القيصر ورهبانه، وضباطه وأمرائه . جاء قوم يقولون ان الدين الجديد هو حق الانسان في أن يأكل بقدر ماتحتاج بطنه الى غذاء، وأن يعمل بقدر ماتسمح له قوته أن يعمل . جاء قوم قالوا له لاغنى بعد اليوم ولا فقير، بل متساوون جميعا في كل شيء . قالوا له لاسيد بعد اليوم ولامسود بل اخوان لايتفاضلون. أما الفلاح الروسي فلم يفرح بشيء من هذا كله لانه لم يفهمه؟

إذ كيف تستقيم حياته بلا (بركة) وبلا (قداسة) كيف يستطيع أن يعيش وهو في حاجة الي قوة منظورة أو غير منظورة يلتجيء اليها طالبا العون، داعيا مبتهلا . ولقد أضاعوا عليه «سماءين» سماءه القريبة التى يعترف لها

بالابوة ، فلم يعد يرى القيصر ، بأبهته ، وجلاله، وخيوله ، ولم يعد يرى الرهبان ولا القسوس الذين بيدهم مفاتيح السماء العليا وفي دعواتهم جواز الوصول الى جنات تجرى من تحتها الانهار ...

وفي أغسطس سنة ١٩١٤ اندلعت ألسنة الحرب الكبرى وأخذت تخرب ، وتخرب ، وتجتاح في طريقها مدنا وشعوبا ، فاكتسحت فيما اكتسحت الايمان بالكنيسة ، فلما انتهت الحرب ، رأى الاوربيون أنفسهم كالفلاح الروسي لاملجأ ولا ستر ، ولا ملاذ

...

• كانت أوربا وثنية . وجاء اليها الدين الجديد (المسيحية) — فأصبح دينا رسميا للدولة . آمنت به الدولة ، بعد ان كانت تحارب الذين يفكرون في اعتناقه ، وتعذب من آمنوا به في خفية من عسسها وعيونها . ولكن حكام أوروبا ، لم يلبثوا حتى شعروا بخطر هذا الدين عليهم . هذا الدين الذى يدعو إلي المحبة ، وإلى المساواة ، وإلي تطليق الدنيا تطليقا تاما . وإلى الزهد والانقطاع عن الدنيا

فجعلوا هذا الدين (احتكارا) للقسوس والرهبان وأسبغوا عليهم نعما أنساهم الدعوة الى الزهد ، والانقطاع عن الدنيا فأصبح الطيلسان حريرآ وحلوا الصليب بالذهب واكتست الكنيسة بالنفائس مصنوعة من الماس والياقوت وطابت لهؤلاء عيشتهم الجديدة وحرصوا على استبقائها والاستمتاع بها ، وذلك كله في يد الحاكم ان شاء منع وان شاء أعطى ، فأصبحوا خدمه يحللون له الحرام ، ويحرمون على شعبه الحلال . وبذلك أصبح الدين وسيلة من وسائل الحاكم لاخضاع الشعب لا لتطهيره ، بل واستذلاله ، وقنع الشعب بالنظر إلى طيلسان القسيس ، وسماع بضعة نصائح ، وحضور الصلوات والقداس . والشعب لا يطلب الا مددا من قوى خفية لا يعرفها فألقى بنفسه في احضان

القساوسة فلما ضعفت الحكومة بفعل احداث السياسة و تقلبات الايام، رفعت الكنيسة رأسها ، ولم تعد تسير في ظل الحاكم بل أرغمت الحاكم أن يسير وراءها وأن يخشاها، ويحسب حسابها وحرصت الكنيسة على (الدين) حرص البخيل على ماله لانه كان مصدر ثروتها وقدرتها . فلم تسمح للشعب أن يقرأ الانجيل ويطلع عليه. ولا أن يعرف شيئا عن حقيقة الدعوة المسيحية . بل كان (الانجيل) حكرا للكهنوت ، حتي لقد وضع الانجيل في كنيسة من الكنائس مكبلا بالحديد حتي لا يمسه ماس . وحتى لا يطلع عليه مطلع ا وانتشرت الخرافات فى أوروبا . وأصبح البابا ورهبانه تجارا يبيعون جواز الدخول الي الجنة بالنقود . فامتلكت الكنيسة مزارع وضياعا . وبنت حول نفسها حصونا وقلاعا . وهى هى كنيسة المسيح الداعى إلي المحبة ، والصفح ، والبعد عن الدنيا والزهد وانعقدت فيسماء بلاد المسيحية سحب من جهل لا عهد لاهل الكهوف والفيافي بها . وأصبحت الكنيسة عدو الفكر الحر « وغول » العلماء تعذب من يقول بكروية الارض. ومن يقول بدورانها حول نفسها . ومن يقول بأن المرض الفلاني يعالج بدواء معين وأسفت حتي أباحت حرق «جان دارك » بدعوى أنها تمارس السحر ، وأنها تستخدم الجن !!

احتمل العقل الاوربي هوانا كبيرا ، واحتملت الشعوب في أوروبا تحكما هائلا ، فتاقوا الى حياة لاقيود فيها . حياة لا يشعرون فيها بسطوة فحرروا أنفسهم أول ماحرروها من سلطة الحاكم — فقيدوه بالبرلمانات وبالدساتير . وأخذوا عليه المواثيق والعهود ان يكون رمزا يظهر ، ولا يعمل . ويملك ولا يحكم. ثم تبرموا من الحاكم الدائم، فدعوا إلي (جمهورية) ثم رفعوا عن أكتافهم نير الكنيسة . ثم ساروا في طريق التحرير

وحرر الابناء أنفسهم من سلطة الاباء فالوالد والولد ندان يلعبان معا وقد يقارفان الرذيلة معا وحررت المرأة نفسها من سلطة الرجل . وأصبح الرجل والمرأة متساويين تنافسه فيما خلق له ، وتصطنع أساليبه وزيه

وحرر التلاميذ أنفسهم من سلطة المدرسة والاستاذية . فالتلميذ صديق الاستاذ . وهي صداقة اجبارية. وفي بعض الجامعات الاستاذ في حاجة الي رضا التلميذ ، ليبقي في منصبه .

انطلقت أوربا من كل قيد ..

وجاءت الحرب الكبرى فقوت هذا الانطلاق وأكدت ميل أوروبا اليه لأن الانسانية أفاقت من هذا الكابوس المخيف فالفت نفسها في ضيق كبير ،فالنقود اختلت موازينها والبطالة عمت ميادين العمل قاطبة والثقة ذابت في الازمة، ولم يكن أمام أوربا أمل في علاج فأصبحت كرجل فقد السعادة في البيت لأن زوجته تخونه ، وفقد السعادة في العمل ، لأن حيل التجارة أضاعت عليه ماله ، وكان قد كفر من قبل بالدين فلم يلتمس العزاء في صلاته، وانطفأت في روحه شعلة الامل التى تدفع الانسان الى المكافحة والمناضلة من جديد فأقبل على الخمر يحتسيها وخرج لايحفل باخلاق ولا أوضاع ولا تقاليد

هذه هي حال أوروبا بعد الحرب فالمسيحية لم تمنع الحرب من الوقوع ولم تمنع أبناء الدين الواحد من أن يشحذ أحدهم سلاحه ليذبح به الآخر، فان مات حمله الي المقبرة ووضع على قبره صليبا كبيرا رمزاً على مسيحيته وذهب القسيس اليه ليتلو الادعية والصلوات ! اذن لتكفر أوروبا بالبقية الباقية من المسيحية . !

والديمقراطية لم تمنع من الحرب مع ان الشعوب لا تريد الحرب ولم تردها. والديمقراطية هي حكم الشعوب . فكيف تكون الشعوب حاكمة ، وقد

دفعت الي أتون متلهب على الرغم منها إذن فلنمد النظر فى أمرها . فيدب الضعف الى الديمقراطية .

أما الملكية فقد طاحت الحرب بها في أكثر من دولة

وبقى الشعب بلا سيد وبلا عقيدة ..

وانقضت على هذه الحال سنوات .

والشعوب في حاجة الي (سيد) دائماً . مهما سمت وارتفعت . في حاجة الى (رمز) ترمز به الى أمانيها وأحلامها . الى قوتها ووحدتها تريد مثلا عاليا يشير الى حياة أرفع — حياة خالية من نقائص البشرية . وقد كان (السيد المسيح) هو هذا (الرمز)

فطن الذين قوضوا قيصرية روسيا . الي أن الفلاح الروسى لا يستطيب حياته الجديدة وأنه يريد « قوة أعلي » يتشبث بها ويتطلع منها الي شيء اكبر وأعلى . .

فرفع هؤلاء الشيوعيون زعيمهم « لنين » الى مرتبة تدانى مراتب الاله وحنطوا جثته ، وجعلوا من كلامه « انجيلا » ومن أعماله « سنة » تحتذى بعده ، وزينوا بكل شيء صورته .. وضخموه وفخموه ، وأسبغوا عليه من خوارق الصفات ، ما يدخل في قاموس المعجزات .

وجاءت المانيا وايطاليا في أثر الروسيا ، تبحث لأبناء الشعبين عن عقيدة حارة — عن ايمان جديد — فدعت الفاشيستية في كليهما الي الوطنية العنيفة ، ولكن الوطنية لم تكن وحدها كافية لاشعال نار الايمان في قلوب الذين قضت على ايمانهم الحرب ، ومادية الحضارة التي تقوم على الآلة الميكانيكية .. فعززوا الوطنية « بزعيم » جعلوا منه « نبيا » ولكى يقوم (النبى) بواجبه الجديد ، أطلقوا اسمه على كل لسان ، واكدوا للناس

فى الصباح والمساء أنه لايخطىء . وأنه يستوحى عوالم الطبيعة الخفيــة بقوى لاترى . وارتفعوا بالوطنية الي مرتبة (التصوف) . وأسسوا حول الزعيم مايشبه «الكهنوت» وخلقوا من المراسيم في تحيته والهتــاف له ، واستقباله، وتوديعه. والتحدث عنه. والسير وراءه، ـ مايشبه الطقوس الدينية

واخشوا أن تكون كل هذه المراسيم والطقوس أعجز من أن تحيي في قلب الشعب «الحرارة» التى لاتعيش الامم بغيرها . لانها وقوده الدافع . وناره المحييه.

فقالوا ان وطنيتهم لاتقتصر على انقاذ شعب واحد . بل إنها رسالة انسانية . تأتى بالخير للكافة ، وتقي الكافة من شر عميم .

أما الخير فهو النظام الفاشيستي نفسه بما فيه من سرعة في الانتاج ، وقضاء على السفسطة

وأما الشر الذي تقيهم منه الدعوة الجديدة ، فهو الشيوعية والديموقراطية

***

وفي وسط هذا كله ، يكتب الاستاذ عبد الحميد المشهى «كتابه» «صور اسلامية»

نعم ! في وسط هذا كله ، يخرج هذا الكتاب فأية صلة بينه وبين أوروبا .؟ وأية علاقة بين هذه الصور الرشيقة البارعة التى يكتبها . فى هدوء ، و كأنما يحدث نفسه ؟ وبين هذا الذى قلته عن أوروبا وحالتها

أرى أن الصلة أوثق ماتكون ، وقد رأيتها بنفسى ولمستها لمسا ، في كل هذا الذى قرأته عن موسولينى وهتلر بل ما قرأته عن اوروبا نفسها هذه الايام. فهاهو « وارد بريس » الصحفى الانجليزى يقول عن موسولينى

انه يقرأ عن «الاسلام» كثيرا . وأنه رأى على مكتبة هذا الدكتاتور الايطالى ، كتبا جمة عن هذا الدين الحنيف.

***

أما هتلر فقد قال مرة لهذا الصحفى نفسه أنه يؤمن بالله، وأنه لم ييأس في أية فترة من فترات كفاحه من نجاحه ومن نجاح دعوته ، إذ استبعد أن يتخلي الله عن سبعين مليونا من الالمان ، لم يسيؤا الى أحد ، ودافعوا عن حقوقهم واستبسلوا في الدفاع عنها . فالله يثيب من أحسن عمله .

ومع ذلك فهتلر لا يطيق المسيحية كثيراً ، ولا يحضر قداسا ، ولعله لا يطالع الانجيل أبدا ، أما موسولينى ، فقد عرف عداوة للمسيحية منذ كان شابا ، وبقي يصابح الكنيسة بصرخاته العنيفة ويماسيها بتهكماته المريرة زمنا . ولولا حاجته اليها في كفاحه السياسي ، لما تردد في أن يشن عليها حربا من طراز الحرب التى شنها عليها نابليون الذي حارب البابا ، وسجنه

فهؤلاء جميعا يريدون أن يملأوا بلادهم عتادا — يريدون أن يعدوا لدولهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل . يريدون أن يدعوا أتباعهم أن (تناسلوا وتناسـلوا) ليباهو الشعوب الاخرى بشعبهم القوي الحصين

يريدون أن يقيموا الحياة العامة على النظام وعلى الطاعة .

يريدون أن يثبت في الاذهان أن الحيـاة لا تعدو أن تكون مجموعة واجبات لا حقوق .

يريدون عناية بالصحة — وعناية بالروح . والمسيحية صافية علوية، ولكن في قواعدها ، ما يتنافي مع الصراع والكفاح . فيحس بعضهم بالحاجة الى النظر فى الاسلام ومطالعته . ويطبق البعض الآخر هذه القواعد من حيث

لا يدرى انها الاسلام . ولكنهم لا يدرون بعد آن الاسلام ليس نظاما فقط، ولاطاعة فقط وليس تناسلا من أجل زيادة الشعب ، وللابقاء عليه في وجه الاعداء ، وأنه وان تحدث عن الحياة كبناء من الواجبات . وإن جعل للمجتمع أسسا لطيفا من الاخاء والمحبة ، والتعاون . ينسون أن الاسلام بعد هذا كله شيء أسمي من هذا كله.

صحيح أن الاسلام يقول ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وصحيح أنه يقول لا يكمل ايمان أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وصحيح أن الاسلام يلعن المظلومين الذين يقبلون الظلم ، كما يلعن الظالمين الذين يخرجون على الحق .

صحيح ان الاسلام يحب حرية الرأي ويدعو اليها ، فقال تعالى : « إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » كما ان الاسلام يستقبح الذين يهبطون على آيات الله صما وعميانا لا يدركون معناها ولا يجيلونها في رءوسهم فيستنيرون بها فقال تعالى : « والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا »

صحيح هذا ، وصحيح أيضا أن الاسلام يدعو الي العفو . ويؤثر الرفق ، ويكره الغلظة ؛

ولكن الاسلام لا يقف بالانسان عند حد هذه الدنيا الضيقة ، انما هو يربط هذا العالم بعوالم اخرى. يربط العالم كله ، فيجعله وحدة لا فضل فيها

لعربي عليها على عجمي الا بالتقوى . ولكنه لا يقف عند جيل واحد من البشرية بل يربط الاجيال المتعاقبة فتصبح البشرية في ماضيها ، وفي قابل أيامها كتلة يحقق غاية واحدة ، هو مارسمه الاسلام من سعادة ومن مثل أعلي ويربط هذه البشرية بالكون كله ، حينما يربطها بخالق الاكوان جميعا هذا هو الذى لم تصل اليه الفاشيستية ولا الشيوعية ولا الاشتراكية

ولكن قد يقول قائل ، من يضمن لنا ان الاسلام لم يكن يتعرض لما تعرضت له المسيحية من الكفر بها ، والانصراف عنها ، لو أنه كان دين الاوروبيين . من يدرينا أن الاوربيين كانوا لا يتشككون فيه كنظام صالح لهم ، لو أنهم كانوا مسلمين وقامت الحرب العظمى وهم علي هذا الدين

وقد يقول هذا القائل أيضا كفرت أوروبا (بالمسيحية) لانها لم تجد فيها وقاية لها من شر الحروب ولا ملطفا للصراع بين الناس على المادة والسطوة وعرض الحياة ، فهل الاسلام يمنع هذا الصراع ، أو يحول دون الحرب ، وهل في نصوصه مايمنع تفشي البطالة أو يحول دون تقلبات الحكم .

وقد يقول القائل نفسه إنكم تطرون الاسلام وتقدمونه للانسانية كعلاج لامراضها لانكم ترون فيه خلاصة فضائل (الديموقراطية) و (الاشتراكية) و(الدعوة الانسانية) فهل أجدت الديموقراطية على أوروبا أو كفلت لأهلها سلاما أو سعادة حتى يقال إن الاسلام سيكون علاج ادواء البشر لانه سيضمن للناس حكما ديموقراطيا ، إن الديموقراطية تتمايل وتهتز تحت طرقات الديموقراطية الديكتاتورية وها هى ذي صيحات الناس تتعالى في كل مكان ضدها .

أما الاشتراكية فليست أسعد حظا من الديموقراطية فان التجربة

الاشتراكية لم تقم في بلد من بلاد الله ، وثبت نجاحها في هذا البلد على وجه ينفي كل شك في قيمتها .

أما (الاخوة الانسانية) و (الايمان بالحب) فان لمسيحية تتضمن دعوة حارة اليها، بحيث لا مزيد لمستزيد بعدها في هذا المجال وعلى ذلك فان هذه الدعوة قد غرقت مع أصحابها في بحر من دماء المتقاتلين في الحرب العظمى ،وضاعت صيحتها في وسط قعقعة سيوف المحاربين ، ورعود مدافعهم ، وهزيم قنابلهم .

قد يقول قائل كل هذا وقد يذهب به وبأمثاله الظن أن هذا التفكير الى الاعتقاد بأن الاسلام كان يمكن أن يتعرض لما تعرضت له المسيحية اليوم من محنة التشكك فيها ، والخروج عن مبادئها والعزوف عن كنيستها .

هذا القول جدير بأن يرد عليه هنا، فليست فضائل الاسلام مقصورة على كونه يرسم للانسانية نظاما خاصا من الحكم أولا اسلوبا معينا من أساليب تنظيم الثروة ، ويخطىء أيضا من يحسب أن الاسلام دعا الى الديموقراطية أو الاشتراكية ، أو ما يشبهها .

صحيح ان القرآن قال «وأمرهم شورى بينهم » وأنه وجه الخطاب الي الرسول عليه صلاة الله وسلامه : «وشاورهم في الامر» وصحيح أيضا أن الاسلام فرض الزكاة وأوجبها ، وأن أبا بكر لم يرض أن يتسامح مع المرتدين بعد وفاة رسول الله الذين أرادوا أن يقوموا بفروض الدين كله إلا أن يؤدوا الزكاة كاملة ولكن من الذي قال أن هذا معناه أن الاسلام وضع بهذا أساسا لحكم ديموقراطي بالمعنى الذي نفهمه الآن أو اساسا لحكم اشتراكي بالصورة القائمة هذه الايام

فهذافهذا الذي قرره الرسول ليس إلا البديهيات لا نية التى غفل عنها الناءلناس لكثرة ماثقل عليهم من ظلم ، ولشدة ما كبلوابهم من جهل فالمجتمع امم الانساني لا يستقيم حاله مطلقاء اذاترك أمره فى جل واحد يعبث به كما يشا بشاء، ويفرض عليه من الارادات ما يريد فكان لا بد ضع قاعدة تفرض الشورى رى ، ولكن الشورى في معناها العام لا الشورى جه معين مرسوم والجماعة اعة البشرية لا تسعد مالم يتلطف إحساس نقيرها نحو الفيها . وهذه قاعدة أيضا الا يلا يقضى بها تنظيم توزيع الثروة . فان الاسلام بطبيعته بالقيود ويرضيه أن يضع نهم للحياة الانسانية إطارا عاما من الاخلاق الرفيعة المثل العليا ، وهى أخلاق ق ومثل لا تتعارض مع الطبيعة الانسانية ولا تدمها . وتدع لها الفرصة مة كاملة تعبر عن نفسها ، وتنتج ما تشاء من الثمار الخيرات . فالاسلام يعرف له «ان الانسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ا » والاسلام يعرف «أن الانسان ليطغي ان رآه استغنى»

واوالاسلام يعلم «ان الانسان لربه لكنود وانه ذلك لشهيد وانه لحب ا الخير لشديد » ومثل هذا الانسان ، تقد عليه ، وتطلب منه أ كثر مما يطيق ، حينما تضع قوالب جامدة أبدية تقف نشاطه على مر الايام م ، وتداول الاعوام ولا تلين مع مر الحقب والاماد ، وحسبك أن ترسم لم له الخطوط الرئيسية التي بغيرها يهبط ، أو التي فضلها يمكن أن يعلو و ويشق طريقه نحو حياة متسامية ، فيكون في مقدر الانسان العادى ان يلد الانسان السامى أو «السبرمان» الذى يحلم به كرو أوروبا

فالدين الاسلامى مثلا لا يعد الانسانية بسلام دائم بل انه يقرر ان الصراع من طبيعة الناس اذ يقول كتاب الله «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض» فهذا الكفاح من طبيعة حياتنا نحن ا دميين وهو يقدح

شرارة الخير في نفوسنا ، ويجدد نشاطنا ، ويفتح لنا عوالم جديدة فكيف يعد الاسلام الناس بسلام دائم كما فعلت المسيحية .

ولكنه رسم للناس طريقة لتخفيف ويلات الحروب ولفض المنازعات في الآية «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى امر الله»

فقوة الاسلام كائنة فى أنه ماترك شيئا الا وأتى له بحكم ، ولكنه حكم مرن ، متطور مع الايام، لا يقف في وجه طبيعة الانسان ولعل خير مثال لهذه المرونة حكمه في الزواج ، وحكمه في الحرب الذي أسلفنا وحكمه، أخيرا في نظام الدولة

فالاسلام يعرف أن الرجل بطبيعته وكما يصفه الآن الطب الحديث «حيوان مزواج» ورغبته في كثرة الزواج راجعة الى أن الطبيعة أعدته أن يحفظ النوع فان اقتصرت صلته الجنسية على واحدة من النساء قد تخيب هذه الصلة فلا تنتج ثمارها فيتعرض النوع للانقراض فهو اذن مزواج بحكم الغريزة نفسها لكن الى جانب هذه الطبيعة ، هناك ميل الانسان الروحى الى الكمال والارتفاع فلما جاء الاسلام لم يتجاهل الطبيعة بل نظمها ولم يقتل الميل الروحى بل شجعه . فالزواج بواحدة هو مثل يرحب به الاسلام والزواج بأكثر من واحدة ، طبيعة لا يمنعها ، بل يبررها وان كان يضع القيود الثقيلة التى تكاد تكون منعا له

أما نظام الحكم، فهو المرونة بعينها. فلكى ينتهي نظام الدولة الي رجل يجب أولا أن يكون موضع حب من خيرة الشعب وثقتهم وليس في الاسلام مايمنع من وصول هذا الرجل الى الحكم بالانتخاب وليس ثمة مايمنع أن يكون بالوراثة . فان اعتبرنا أن ما كان من رسول الله بعد أن صارت اليه شؤون

المسلمين المدنية والحربية . هو تطبيق لنظرية الاسلام في الحكم . فلسنا قادرين أن نسمي حكمه ديموقراطيا ولا ديكتاتوريا فقد كان يشاور صحبه وقد ينزل على رأيهم ، بل كان يعمل برأى أصغرهم ولكنه لم يكن يتقيد بهذا الرأى في كل حال ، فاذا قيل ان ذلك حقه وحده عليه السلام دون بقية المسلمين لأنه رسول الله ولأن ما عنده من العلم كان يغيب قطعا عن بقية صحبه ، فان ابا بكر قد استن السنة نفسها بعد وفاة رسول الله وكلنا يذكر كيف أنه شاور «عمر» بعد وفاة رسول الله في امور ثلاثة خطيرة لم يأخذ برأى عمر في واحدة منها ، وعمر كان اضخم رجل في الاسلام بعد أبي بكر وهو الوزير الاول لرسول الله نفسه . فأبو بكر رفض أن يهادن المرتدين علي شدة خوف عمر على الاسلام من محاربتهم وأبى أبو بكر أن يبقى جيش أسامة في المدينة وكان قد سيره الرسول قبل وفاته فأنفذه أبو بكر الي الشام مع أن جيوش المرتدين قد تألبت على المسلمين وكان عمر يرى ارجاء سفر هذا الجيش الي الشام احتياطا لما قد تأتي به احداث حرب الردة ، وعزعلى أبي بكر أن يعزل خالدا عن امارة المسلمين وعمر لم يكن يفتر عن النصح بهذا العزل فأبو بكر في هذا كان (ديكتاتورا) لم يحفل برأي أعظم مستشاريه في هذه الامور الثلاثة ولكنه كان يعمل بهذا الرأي وبرأي من هم دون عمر فى امور أخرى فكان ديموقراطيا فالاسلام لم يقيد الناس بنوع من الحكم . وقنع بأن وضع من القواعد الاجتماعية والاقتصادية والروحية ما يضمن للجماعة الانسانية مناعة ضد الامراض التى لا يمكن أن ينجو منها البشر . هذا هو الذى جعل الاسلام أقوي من أن توهنه المحن العابرة هذا هو الذي يجدد في نفوس المسلمين الايمان به وهذا هو الذى يجعل الاسلام شابا بعد ثلثمائة والف من السنين وبعد أن تحالف عليه من

الاحداث وتألب عليه من الخصوم ما كان كفيلا باخفات صوته وكافيا لمحو كلمته ، ولكن « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » صدق الله العظيم

**

ولكن كيف يصل هذا النور المشرق الوضاء ، نور الاسلام الى هذه القلوب الحائرة التي تبحث عن ايمان .

أما مسلمو هذه الايام فهم اسوأ دعاية للاسلام . مغلوبون على امرهم محكومون لايحسنون الدفاع عن دينهم . بل لا ينهضون للدفاع عن انفسهم لايؤمنون بالقوة ولا بالخير ولا بالجمال نهابون يسرقون من اوربا علمها ولا يعطون الأنسانيـة شيئا من عقولهم ونفوسهم ومنهوبون يبيحون مالهم وبلادهم وأعراضهم بل وذخائر أجدادهم للاوروبي يأخذ مايحلوله .

أما الكتب العربية والاسلامية القديمة فقد الفها أقوام في زمن قديم لاهل هذا الزمن القديم فلم تعد صالحة باسلوبها لاهل هذا الزمان وقد وقفت عند حد ، فلم نزد عليها شيئـا ماكتست بلون من الركود والجمود كاد يذهب بمعناها فانصرفنا عنها كسلا وضيقا . أما الكتب الحديثة ...

حقا أين هذه الكتب الحديثة ؟!

أين هذه الكتب النفاذة السهلة أين هذه الـكتب التي عكف على تأليفها والتفكير فيها . مؤلف حار العقيدة ، مخلص سعيد بما يكتب فرح بما يخطه قلمه أين ؟ هؤلاء المكافحون الابرار الذين يغترفون من نور العلم الالهي حفنة بعد حفنة ، يقدمونها للعالم الاسلامى الذي رقدت روحه وسكنت نأمة نفسه ، والي العالم الاوربى الذى ثقلت عليه الحيرة والذي أجهد نفسه في اصطناع عقيدة له وفي خلق نبي لعقيدته

أين هم هؤلاء الـكتاب الذين يفتحون عين أوروبا ، على العقيدة الكاملة

ويرسمون لها الشخصية الكاملة ـ ويأخذون بيدها نحو المثل الكامل؟

أين هم هؤلاء المنقبون المكتشفون ، الذين يهجرون العالم الصاخب إلى الفيافي والقفار ، ليبحثوا في الاطلال وتحت التلال ، عن الذخائر الدفينة ؟؟

تجيب (الصور الاسلامية) عن هذا التساؤل .

فأخي (عبد الحميد) يكتب هـذه الصور الاسلامية لنقرأها نحن ، فيزداد التاريخ الاسلامي التماعا ، وتزداد صوره اشراقا. ونزداد من أبطاله اقترابا ، وهو يحطم هذا الحاجز الصفيق الذي ابتنته الايام بين أفهامنا وهذا النور الفياض الذي شمل الدنيا برحمتـه ، فاطمأنت إلى نفسها بعد قلق. وسيأتي اليوم الذي ينقل فيه هذا الكتاب وأمثاله الى اللغات الاوربية ، إن آجلا ، وإن عاجلا ـ وقد يقع يومذاك بين يدي شاب ، رانت علي نفسه الحيرة ، ولم يجد في أناجيل الفاشيستية والهتلرية ، والشيوعية ، ماينقع ظمأ نفسه ، فيلتفت إلى هذا الايمان البسيط الذي يشرحه صاحب الصور الاسلامية ، في صوره ، فتنتبه روحه ، فيدعو الناس اليه. ومن يدرى أيضا فقد يستطيع أن يقول لهم وجدت لكم عقيدة ، ووجدت لمشاكلكم حلا. ووجدت لآلامكم علاجا وطبا .ولذلك فان هذه الصور تثير حتما جانبا آخر من البحث .

فان مؤلفها ، يرجع إلى كتب انقطعت الصلة بينها وبين شباب هذه الايام كما قلت وقد كان الناس في الايام الماضية يسمعون باسمها وكان فيهم من يقوى على قراءة بعضها . أما اليوم فلست واجـدا الا بشـق النفس ، عشرة من طلاب المدارس العليا ـ وكليات الجامعة ، قد كلفوا أنفسهم عناء السؤال عن الطبرى وماذا يكون ! ومتى وجد ، ولماذا وجد . وما الذي فعله في حياته ؟

وحظ «ابن الاثير» وابن سعد، وابن هشام، وبقية الذين سجلوا السيرة النبوية، لايزيد عن حظ الطبري من عناية شبابنا هذه الايام.

كانت كتب هؤلاء فيما مضى هي وحدها غذاء الذين يريدون أن يلتمسوا لانفسهم ثقافة، ويطلبون الوقوف على التاريخ وقد كانوا يقنعون بها على علاتها، ويأخذون ما بها على أنه صحيح كله لاشية فيه، وهي مليئة بالخلط، والتناقض، معيبة بالمبالغة حينا، وبالاختلاق حينا، حتى لقد تحجب طورا جمال السيرة النبوية، وتخدش طورا آخر روعة البطولة والفكرة الاسلامية.

• أما هذه الايام فقد جاءت اللغات الاجنبية، فبلبلت الافكار، وشتتت الاذهان، وأصبح فخر الطالب الذى يعرف كيف يقرأ كتابا بالانجليزية عظيما الي الحد الذي تفهت معه كتب المسلمين وتاريخهم، وتقاليدهم! وياليت هؤلاء المعجبين بلغات الفرنجة قد أجادوا هذه اللغات، فان فيها ذخائر ونفائس، تفتح عقل الانسان فعلا وتمد آفاق التفكير أمامه ولكن طريقة التدريس في مدارسنا لاتنهض لتحقيق هذه الغاية فبات شبابنا وهو ضعيف المحصول في هذه اللغات الدخيلة. عاجزا عن تثقيف نفسه بها، أو عن طريقها، بعيدا في الوقت عينه عن كتب أجداده التى هجرها، وقد كانت بالامس معينا لآبائه، وأخوته الذين يكبرونه في السن فقنع بنفايات أجنبية توصف حينا «بالقصة» وحينا آخر «بالمجلات» وهي على كل حال، أقذار التفكير الاوروبي لانها لاتتجاوز نطاق التوافه من الشؤون

وأقبل المترجمون الذين لاتنهض كفاياتهم لتعريب الكتب العظيمة في لغات الاوربين، أقبل هؤلاء على ترجمة قصص فارغة لايقصد بها الا إزجاء الوقت، والمتعة العابرة فحسبها شبابنا أنها ثقافة أوروبا، وثروتها

العقلية ، فصرفوا لها كل الوقت فلم يكسبوا منها شيئاً فلاهي إثارة لحب المثل العالي ، ولاهي علم يستضاء به ولاهي فن يلطف معه حس الانسان . . وليس أقتل لأمة من الامم من أن يكون بين أيدي شبابها مثل هذه القصص التي تبعده عن التفكير في وطنه ، وفي دينه ، بل وعن التفكير فيما يدور في الدنيا من احداث وما يقع بها من تطورات . فيسير الشاب فى عالم صاخب ، وكأنه لا يسمع ويمر بدنيا تتجدد وتضطرم وتفور ، وتغلى ، وكأنه لايري . وتمتلىء نفوس الناس بالاطماع الكبرى ، ويحلمون بالامجاد العظمي ، وهو مشغول بأمر بطل قصته الذى أوشك أن يقع فى يد «البوليس» فيحبس أنفاسه ليرى هل سيفلت أم سيقع فيحبس ؟ .

والحق أن كثيرين من أدباء هذه الايام قد حاولوا أن يوجدوا لمصر أدبا قوميا . فخرج شيئا ممسوخا ، لاهو منا ، ولا هو لنا وان كتب بلغة عربية بأقلام مصرية . ذلك لان هؤلاء المجددين إستلهموا أوربا فنها . فكتبوا عن اناتول فرانس ، وعن روسو وعن نيتشة وعن ريناز وعن ديكارت . ولخصوا كتب هؤلاء ، وعلقوا عليها ، واختلفوا فيما بينهم في تقديرهم لها ، وسواد الامة يقرأ لهم وهو فى الحقيقة لايفهمهم !

وكيف يفهم الشعب المثولوجيا الاغريقية التي يستوحيها « اناتول فرانس » ونحن لانعرف شيئا مطلقا عن تاريخ محمد على وعدد جيوشه ولا تاريخ وقائعه . وكيف نتناقش فى « الاشتراكية » و « الشيوعية » في الوقت الذى لايوجد فيه نقابة واحدة للعمال بل الذى لايوجد فيه مصنع واحد للمصريين وكيف نتحدث عن « الانسان الكامل » الذى

نيتشة يريده « والانسان العادي » لم يوجد بعد في بلادنا

وكيف نتحدث عن شكوك ديكارت التي وجدت في نفسه بعد ايمان تقوض وبعد « تخمة علمية » . ونحن ايماننا لم يوجد بعد، وجهلنا يتزايد

كان ذلك الجهد من «هؤلاء المجددين» عبثا وكسلا . أما عبثا فلانه لم يترك أثره في الامة ، الا إذا كنا ممن يقنعون بالظواهر فان شبابنا اليوم بعد أن فرغ هؤلاء المجددون من كتابا تهم كشبابنا قبل هذه الكتابات ، لا يدرى شيئا صحيحا عن الفكر الاوربي والادب الاوربي وهو لا يزال بعيدا عن تاريخ بلاده وتاريخ دينه وإما ، كسلا لأن كتابنا المعاصرين آثروا النقل على الخلق فكان مثلهم مثل التاجر الذي يأتي لامة في أشد الحاجة الي طعام نظيف تأكله فلا يزال يغريها بسماع الفونغراف والالتذاذ بأنغامه حتى تقبل عليه وتألفه ،فتشتريه دون أن تنتفع به لانها في حاجة اولا الي الطعام الذى لم يفعل الفونغراف فيه شيئا

ولكن الامة التفتت الى ماضيها وهي اللفتة التي لم يكن بد منها ؟

هذه اللفتة التي لم تستطع أمة من الامم أن تسير الي الامام بغيرها .

هذه اللفتة التى هي أشبه ما تكون بنظرة الانسان يلقيها قبل سفره في بيته وعلى ذويه فيتزود منهم ثم يسير . . .

***

ألف المصريون القدماء ما ألفوا ووضعوا ما وضعوا . ثم جاء الاغريق فالتفتوا خلفهم فوجدوا علم مصر ولاهوتها ،فنظروا اليها حتى امتلأوا ثم جعلوا يفكرون فأبدعوا ما أبدعوا .

وجاء الرومان فالتفتوا الى الاغريق ، فكانت حضارة الرومان .. ثم جاء العرب فترجموا ما ترك «اليونان» فكانت هذه النهضة العظيمة في أيام

العباسيين . كان الطب . وكان «الجبر» وكانت الـكيمياء ، وكانت جمعية اخوان الصفاء .

لم يكن العرب ناقلين فحسب ، ولكنهم تزودوا بالكثير من علم الاغريق فأضافوا وعلقوا . وتناقشوا ففكروا وأدي بهم التفـكير الى جديد .. وسارت العجلات بعد ذلك .

وسقطت «استانبول» في أيدى المسلمين وكان بها العلماء الذين ورثوا علم الاغريق فانتشروا في أوربا يحملون هذا العلم القديم فكانت هـذه النهضة الادبية العلمية التى بددت ظلمات القرون الوسطي ، والتى اتخذت من ايطاليا مركزا لها ، ولعل هذه النهضة قد انتفعت بعلم العرب الذين احتلوا صقلية ، ومناطق من جنوبي ايطاليـا وفرنسا . بل انها انتفعت قطعا بهذا العلم القديم الجديد الذى حمله العرب معهم .

ازدهرت هذه النهضة فى ايطاليا وقد كانت في الحقيقة بعثا للماضى واحياء له ، واضافة اليه ، وتفخيما فيه . وعرف الناس من جديد سوفوكل الاغريقي وارسطو وارستوفان ... و نسج الناسجون على منوالهم فكان النور الذي ختم ظلام القرون الوسطى ...

ونحن بدأنا ثورة مرتجلة في سنة ١٩ اضطرم بها الشعب ولكنه لم يجد الغذاء ، إذ أخرجوا هذا الفـلاح من غيطه لا ليقولوا له « محمد . وعمر وأبو بكر وعلى » ولا ليؤكدوا ايمانه «بمحمد على» ونهضته ، واسماعيل ووثبته ، بل قالوا له (ولسون) وشروطه الاربعة عشر .. فأنصت الفلاح لهم وأنصت لعله يفهم . والحق أنه كان يسمع ولكن لم يستطع أن يدرك شيئا عن فولسون ومبادئه وما يقوله «فرانس» عن الحرية وما يقوله «ماركس» عن الاشتراكية ، وما يكتبه الكتاب الاجانب قاطبة عن الديمقراطية أمور

لاتتصل بأرضه ! ولا بنفسه ولا بتاريخه الذي يجرى في دمه . فانصرف عنهم ولم يلتفت اليهم .

أضاعوا الفرصة حتى كادت تفلت الى غير رجعة

ولكن حمدالله أنها أنذاقدم الي القراء الجزء الثاني من كتاب صور اسلامية وقد يقدم غيرى بعد قليل من الزمن الجزء الثالث من هذه الصور

إذن قد التفتنا الي ماضينا . لا لنعيش عليه ولا لنباهى به ، بل لنأخذ منه نورا نستضيء بوهجه في هذه الظلمات الحالكة . لنعرف في ضوئه من نحن وما يمكن أن نكون لنؤمن بأننا كنا خالقي حضارة . وباعثي عقيدة وأصحاب فكرة وأن البطولة ليست غريبة عنا ، وأننا علونا على الحياة يوما . حين طلبنا الموت ، وجرينا في أعقابه ، ففر أمامنا لان الحياة أقوي من الموت .

فالذي يقدمه الاستاذ عبد الحميد المشهدى الي القراء ، ليس وعظا دينيا ، ولا تاريخا اسلاميا : ولا قصصا تمثيليا . انما هو مادة لحياة فياضة بالحركة قد تكون مشابهة لهذا الطراز العالى الذى تصوره الصور الاسلامية وقد تكون على طرز آخر . ولكنها ستكون حياة موفورة الحظ من الشرف تبغى نفس الاهداف التى مات من أجلها الابطال الباقون على وجه الزمن الذين صاغوا للانسانية هذه القصة الابدية التي يسميها الناس «السيرة النبوية» والتى يجليها المشهدي لكم اليوم صورا اسلامية

فتحى

مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا



« تجسم هذه الصور الوانا من التعذيب »

« والمطاردة والاضطهاد مما حدث »

« للفوج الاول من المسلمين ومما »

« اضطرهم للهجرة الي بلاد الحبشة . »

- ١ -

« انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله »
« وأولئك هم الـكاذبون * من كفر بالله من بعد »
« ايمانه الامن أكره وقلبه مطمئن بالايمان. ولكن »
« من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله »
« ولهم عذاب عظيم » قرآن كريم

« صبراً صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » حديث

استيقظت الفتنـة وانطلق الرعاع والسوقة في شوارع مكة يحملون الاحجار وأغصان الشجر وراحوا يبحثون عن المسلمين حول الحرم وفي الطرقات المؤدية إلى منازلهم . كانهم جيش من الجراد، اوسكان المقابر قد قاموا ليوم الحشر في اثمال بالية وأجسام ضامرة ،اوقرية هائمة على وجهها من الجوع تبحث عن مواطن القوت والماء ثم أدركوا بعد ان نال التعب منهم مناله ان أحرار المسلمين سوف تمنعهم عصبياتهم من شر الاعتداء وان العبيد في قبضة سادتهم ،فلم يبق إلا أن تهدأ العاصـفة وأن تنام الفتنة، من جديد وان يدخلوا إلى جحورهم انتظار الفريسة ولكن كيف يأوون إلى جحورهم قبل أن يعملوا عملا يرضون به سادتهم ويرهبون به المسلمين فتوجهوا إلى دار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا يقذفون نوافذها بالحجارة وهم يهتفون. تبا للكافر باللات .تبا للجاحد بالعزى..ورسول الله ينظر اليهم من فروج النافذة ويقول مامعناه

اللهم انى قد كفرت بدين اللات وجحدت بفضل العزي اللهم اني أشهد إنك واحد لاشريك لك ، اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون

ثم راح يذرع حجرته ذهابا وإيابا وهو مطرق الرأس مشغول الذهن مستشعرا ثقل المهمة الملقاة علي عاتقه متسائلا متى يكون النصر لدين الله على وفود الشيطان واجراء السوء ؟؟ بينما كان الرعاع لايزالون يصخبون ويعودن فيمطرون بيت الرسول وابلا من الاحجار حتى اذا كلت حناجرهم من الهتاف ونفدت ذخيرتهم من الحجارة دون ان يحفل بهم أحد أخذ ينظر بعضهم الى بعض ويسأل صغارهم كبارهم ومرءوسيهم رؤساءهم من عساه يكون هذا الكافر بدين اللات والجاحد بنعمة العزى !! ؟ أيكون رب هذا البيت وزوج خديجة بنت خويلد وقد عرف بالصدق منذ صباه والامانة في طفولته ونعته الكل بالامين ؟!؟

ومن يكون ربه إذا جحد بهما وكفر ؟!

وهنا أدرك الرؤساء حرج الموقف وشعروا بوطأة الاسئلة وأحسوا ان البحث والنقاش قد يجران وراءهما أنصار المحمديين هؤلاء فتأتى النتائج على عكس المقدمات فلم يحر واحد منهم جوابا وراحوا يتشاغلون بالنظر الى نوافذ بيت النبى صلي الله عليه وسلم كأنما هم يرصدونها أو يعدونها وبينما هم كذلك واذا بجلبة وضوضاء اختلطت فيها صيحات الاطفال بقهقهة الرجال تتقدمها سحابة من التراب كثيفة تخف الكل نحوها وإذا (بأبي فكيهة) عبد أمية بن خلف قد شدت إحدي رجليه بحبل وراح خدام سيده وعبيده يجرونه على الارض وخلفهم هذا السيل من الضفادع البشرية يهللون ويتضاحكون ويقذفونه بما في أيديهم من الاغصان والحصباء ويصيحون تبا للكافر باللات تبا للجاحد بالعزى ثم مروا به في هذا الموكب الصاخب على (أساف ونائلة) وقد قال له أمية

أليس هذا ربك !!؟؟

فكيهة — أيهما ربى وأيهما خالقي

أمية — وقد غاظه رده — هما ربك معا

فكيهة — أيهما خالق جسمي وأيهما خالق روحي أم هما قد اشتركا في ذلك؟ سلهما !! فان انبآك بذلك آمنت بهما معك ! فكشر أمية عن أنيابه وهجم عليه وضغط على عنقه بيديه وهو يقول.

وحقهما لاقتلنك شر قتلة .. ولاجعلن منك طعاما لجوارح الطير وانياب الكواسر

ثم سمع الجميع صوتا في حشرجة يقول !!

الله ربى وربك ولا أشرك به أحدا

فاشتد عليه حنق أخيه أبى بن خلف فقال زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه من أيدينا بسحره.

ثم أغمى على «فكيهة» حتى ظن انه قد مات فأخذ الكبار ينصرفون من حوله ولا ينفكون عن الالتفات خلفهم لا تدرى اذلك جزعا من النهاية المؤلمة أم شماتة في ميتة على هذه الصورة

واستفاق الاطفال على صمت فكيهة بعد كلامه وسكوته بعد حركته فراحوا يحدقون في وجهه وقد اكتسي بالتراب كالبدر خلف نقاب الغمام فاكتست وجوههم بملائم التأثر وفاضت عيونهم بشئون الاسى وهم لايدرون بعد ذلك لماذا صخبوا وفاروا وقذفوا وثاروا ولماذا تأثروا وحزنوا وا كفهروا ودمعوا ولكنها الطفولة البريئة الطاهرة والقيادة الغاشمة العاثرة.

* *

وخرج رسول الله لصلاة الفجر فأحس تحت قدمه بما يشبه وخز الابر فنقل قدمه الى الامام لتصادف موطنا آخر. فلم يكن الموطن الآخر باقل من سابقه لذعا وشدة . فخطا للمرة الثالثة فكانت كذلك . فادرك ان طريقه قد فرشت بالشوك(١) وأحس ان قدمه تميض دما فانحنى عليها يضمدها وهو يستعيذ بالله من شياطين الجن والانس ثم ذهب فأدى صلاته وأخذ يتلو ما تيسر من القرآن حتى قاربت الشمس ميزان السماء وصبت زهومتها على الارض حارة قاسية وأضحت الرمال كالجمر ، والصخر كالتنور ثم ألفي شبانا يثبون وشيوخا تحملهم عصيهم يدبون على الارض في أسرع مما تحتمل أسنانهم وأطفال يهرولون وهم يهتفون هتافهم التقليدى . تبا للكافر باللات .. تبا للجاحد بالعزى .. فأدرك رسول الله في الحال أن قد سقطت في أيدى قريش فريسة جديدة فاتجه حيث يتجه الناس في سلاسل متلاصقة وسيل متواصل وأطل على متسع من الارض قد زرع بالبشر وأصوات تشفيهم وشماتتهم ومكايدتهم وسفاهتهم تصم الآذان وتفزع سكان السماء واشتد حزنه حين القي بنظرة علي ميدان التعذيب فاذا به يرى انها ليست فريسة واحدة وانما هي أسرة تتكون من والد وام وأبنهما وان القوم قد نضوا عنهم ثيابهم وخلفوهم كيوم هبطوا الى هذا الوجود الفاضح فلم يجد رسول الله فى هذا الموقف الهائج المضطرب والذي يعز فيه العون ويقل النصير — إلا أن هتف بالضحايا قائلا .

صبرا .. صبرا . يا آل ياسر موعدكم الجنة

فاثار هذا الكلام حمية أبي جهل وأشعل حفيظته فقال

سأعجل بهم الي الموت لتسارع بهم الى جنتك !! ثم أخذ يقذفهم

---

(١) كانت تفرشه في طريقه أم جميل زوجة أبي لهب

بالحجارة في فورة الجنون والبعض يحاكيه حتى قضى «ياسر» الهرم نحبه تحت امطار من القذائف فجن جنون سمية زوجته لوفاته وصاحت في وجه أبي جهل على رأسك يقع دم زوجي يا ابن الفاعلة

فاهتاج أبو جهل لسبها اياه وفارقه صوابه وأخذ رمحه وحمل عليها مرة واحدة، فأصابها في موضع العفة منها، فماتت في الحال وكانت أولى شهيدات الاسلام.

ثم صاح بالقوم

أن احموا له الحجارة بالنار وضعوها فوق صدره حتى يدرك جنة محمد قبل فوات الوقت !؟

ثم صبوا عليه ماء ابعد ذلك ففعلوا ثم توجه الى عمار بالكلام وقال وحق «هبل» لا نتركك حتى تسب محمدا أو تقول خيرا في اللات والعزي وكان قد أضنى به العذاب وأنهكته ضروب الفظاعة والقسوة فأضحى مبهور الانفاس. متصلب الاحساس. يغمى عليه فترة فيغمض جفنه فيتقف القوم فجأة وفي أيديهم أدوات التهلكة عن تعذيبه ثم يصحو فترة فيهوون عليه بما يحملون

وفي مثل خفوت المحتضر ووسوسة الحلى همس بما اعتبره بعض القريبين منه أنه اهانة لرسول الله وتمدح في اللات والعزى فهلل ابو جهل وقهقه حتى استلقى ثم رفع يده اشارة لايقاف العذاب عنه وحل قيوده ليرى ما يكون من أمره بعد ذلك، أيعود الى لقاء محمد أم يكون هذا هو الدرس الاخير ولكن عمارا ما كاد يفارق مكانه حتى خالس القوم وانعطف في ثنية هناك ومنها الى مثلها ومنها الى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي وينتحب لا من آلام التعذيب ولكن مما فرط منه وظنه اثما ووزرا وما أن رآه رسول الله على مثل حالته ضنكا واعياء وقروحا ودماء ونحيبا وبكاء حتى بادره قائلا :

ماوراءك ياعمار ؟؟
عمار ـ لقد راودوني على مانطق به لساني هجراً أو كذباً يارسول الله
رسول الله ـ فكيف تجد قلبك ؟.
عمار ـ مطمئن بالايمان (١)
أبو بكر - عفا الله عنك

واستبق الاطفال غيرهم الي المنافذ يتبينون مصدر الصوت الضارع فاذا برجل عريض المنكبين يزيد في قامته الفارعة، وقوفه على مقدم قدميه وامتداد سوطه في يده المشرعة في الفضاء لايرفعها الا ليهوى بها على جسم امرأة منكمشة كالفأر الهزيل . تحاول الفرار تحت ضغط القسوة فيركلها الجبار بقدمه فتلتصق بالحائط فتهب مرة أخري فيقذفها بقبضة يده فتهوى الي الارض كتلة واحدة فتنتقل من زاوية الي زاوية وهو خلفها لا ينطوى بالسوط الا لينفرج ولا ينفرج الا لينطوى فاذا انهكها التعذيب ثوت هامدة لايدل على حياتها الا أنين جازع وبكاءها لم وعيون سابحة في الدموع . لامعة في اهاب ناحم . وهو لا يستمع لنحيبها ولا يرق لضعفها . حتى إذا ادركه الاعياء وأصابه التعب استوفز بالقرب منها مبهور الانفاس منتفخ الانف مرهف الاعصاب . ثم قال والله ماتركتك إلا ملالة ثم راح ينظر أثر التعذيب في نفسها ويتأملها عساها تصبأ عن دينها الجديد وتكفر بنبيها. فاذا به يصاب بدهشة العاجب وحيرة المدهوش لاصطبارها وجلدها . واصرارها علي عقيدتها ودينها رغم الضرب المبرح المتواصل أياما وليالى ثم إذا بعينيها لاينمان عن الحقد له والكراهة . بل يشعان مضاءا

---

(١) وفيه نزلت الاية (الامن اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

وطهرا وبراءة فتحار نفسه بين عاطفة الا كبار لها والشفقة عليها والحنان لضعفها وبين كراهته لعنادها وصلابتها وإمعانها في الاحتمال من أجل نبيها هـذا الذي أيقظ الفتنة في أرض الحرم . وبعث الشقاق والفرقة بين أبناء الاب الواحد . وسبب كل هذا البلاء .

أخذ عمر يوازن بين الموقفين ويتأرجح بين العاطفتين فغلبت عليه عاطفة الكراهة والحقد عليها من جديد ولكنه ضبط أعصابه رحمة بها وراح يعالجها عن طريق الاقناع أولا . حتى اذا لم يجد ذلك معها راح يتدرج في تخويفها وتهديدها عساه لا يضطر إلي العود فى إيذائها فقال لهـا وهو يحاورها .

ـ ان لم تكفرى بمحمد وربه .وتؤمنى من جديد باللات والعزى . مزقت كل يوم من جسمك فلذه

زنيره ـ هو الاحد . أعبده ولا اشرك به شيئا

فاحمر وجه عمر غيظا من جديد وهجم عليهـا كالجمل الاورق وقبض على قفاها بشدة ثم دفن وجهها في التراب وكلما أشرفت علي الموت رفع يده عنها ثم عاد الي فعلته .

***

ودخل عمر صباحا الى محبس زنيره كعادته يراودها علي الكفر بمحمد أو يدير عليها سياط التعذيب. فلم تفزع كعادتها ولم ترتجف. بل لم تغير مكانها كأنها لم تشعر بدخوله فعجب عمر لشأنها فأخذ يدنو منها رويداً رويدا فأحست بوقع نعلين قريبا منها فلوت وجهها ودنت باذنها صوب الحركة . وكلما اشتد وقعها على اذنها تراجعت الي الوراء قليلا قليلا . فزادت دهشة عمر لذلك فخلع نعليه وأخذ يدنو من وجهها في خفة وهوادة . حتى أصبح

قبالته . فلم تجفل منه ثم حدق في وجهها فلم يبد منها جزع أو هلع . إلا أنها أحست بشبح يقف أمامها فأدارت وجهها وارهفت اذنها . فزاد اعتقادها فيما زعمت فمدت يدها صوبه فتراجع عمر الى الوراء في خفة ، وقد أدرك أن بصرها قد كف نتيجة لما داخله من التراب من جراء دفن وجهها فيه ثم وقف أمامها يتأملها في جزع وحزن ثم سار صوب الباب ينقل قدميه في تؤدة تحت ثقل من الهموم جسيم كما يسير المصاب خلف وحيده يشيعه الى المقر الاخير .

- ٢ -

« لم يبق إلا أن تهاجروا إلى بلاد الحبشة . »
« فان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض »
« صدق . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »

حديث شريف

ودخل الليل يحمل إلى المجتمعين الرهبة . ويضاعف من أحزانهم وآلامهم. وحلق الوجوم بجناحيه فى سماء الاجتماع . حتى مزق نسيجه صوت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول مامعناه :

لم يبق إلا أن تهاجروا إلى بلاد الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه

عثمان بن عفان — أنهاجر فراراً من الأذى وضعفاً عن الاحتمال . وهربا من قضاء الله ؟!

الزبير بن العوام ـ لاضعفاً ولا هربا ياعثمان . ولكن رسول الله يرمى بعمله ـ بعدسلامتنا ـ إلى فتح آفاق جديدة على الاسلام والمسلمين وتهيئة تربة خصبة لدين الله فى بلاد هى أقرب إلى الاسلام ديانة وتفاهما من عبدة هذه الأحجار . . مابقيت أرض الجزيرة فى هذا الجدب والامحال

جعفر بن أبى طالب — ولكن قد تحرك هجرة أمثالنا من أجل دينهم حفيظة التعصب فى نفوس المطارنة المسيحيين . فنصبح (كالمستجير من الرمضاء بالنار)

عثمان بن مظعون — لن يتم ذلك مادام هذا النجاشى حيا . فانه كما

قال رسول الله (ملك لا يظلم عنده أحد) سيما ونحن ضيوفهم وهم كثرة وقوة وامرة .

عبد الله بن جحش — انى لأخشى تأثير البيئة . وسلطان الثراء ـ تجرى خصوبته فى هذه البلاد ـ على نفوس المسلمين المهاجرين من أرض جدباء لا نبت فيها ولا ماء .

عثمان بن عفان — لا خوف من ذلك ولا ريبة . فالاسلام يعترف بالمسيحية كديانة (محلية) ويعتبرها جزءاً من رسالته ولا يفرق بين أحد من رسل الله . والمسلم المهاجر فى سبيل الله التارك لأهله ووطنه إلى وطن لا أهل له فيه ولا عشيرة . ولا مورد رزق معين . لا تغريه خصوبة الحبشة وغناها . ولا يؤثر فيه سلطان البيئة والمجتمع .

فمثل هذه النفوس الأمينة الكريمة لن تقع تحت تأثير المغريات ياعبد الله

***

وفى هجعة الكون وسكون الخليقة جاءت مكة الاسلامية مودعة فى نسائها وأطفالها وشيوخها كأنها مملكة النحل نظاما واحكاما. هذه تحمل الزاد وتلك تحمل الماء . وهذه تحزم المتاع وتشده فى مؤخرة البعير . وذاك يرصد الطريق . وخامس يصلح أباعر الركب . ويوثق بين وحداته .. وكنت لا تسمع بين هذا كله إلا عبارات التجلد والاصطبار .

ولا ترى فى أضواء النجوم الباهتة إلا وجوها تطفح قسماتها بالقوة . وتغالب لواعج الفراق، وعيونا تشع بالعزمة الجبارة وتحبس دمعة الوداع

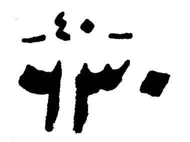
للأهل والولد . وصدوراً تتقابل فى عناق قوى تتجاوب فيه دقات القلوب قوية مؤمنة وتمازج خلاله زفرات الشجاعة والحنين . ورسول الله بين هذا كله كقطب الدائرة . يوصى بالحق ويوصى بالصبر . ويشير بالصمت والكتمان ..ولولا أصداء الليل وسريه . لرددوا خلف رسول الله تكبيرة الوداع قوية راعدة تزلزل الأرض تحت أقدام المشركين . وتهز الفضاء حول أحاسيسهم . ولكن القلوب كانت تكبر . والمشاعر كانت تسبح وتودع . وكفى بها فى مثل هذا الموقف هاتفا ومودعا ومعبراً ومشجعا

ثم سار الموكب صوب اليمن فى طريقه إلى الحبشة : ورسول الله والكل من خلفه شخوص نحوه بعيون وادعة وقلوب مطمئنة إلى سلامة الوصول وبلوغ الغاية ، والمهاجرون يبادلونهم عطفا بعطف وثقة بثقة وإيمانا بإيمان . وراحت الصحراء تحمل على أكفها طليعة المهاجرين فى سبيل الله ووفد المعذبين من أجل الاسلام . يضج خروجهم بالشكوى إلى الله من ظلم قريش . ويفزع حرمانهم من الاهل والوطن إليه . وتضرع قلوبهم إلى بابه أن يقبل منهم كل هذا فى سبيل حبه ومرضاته . وان يكتب التوفيق والسلامة ليؤدوا كل ماتصبو إليه نفوسهم نحو قضية الاسلام .

نعم راحت تحمل على أكفها هذا الفوج الكريم على الله والناس ، يهبط بهم الى الوهاد . وترقى بهم الى النجاد (١) وتعرج بهم صوب الربا والآكام وتظلهم من الهاجرة بظل الكهوف وتمنعهم من العواصف بالغيران (٢)

---

(١) النجاد الارض المرتفعة والوهاد بالعكس (٢) جمع غار وهو أشبه بالكهف



وتمير مطيهم بالحسك والسعدان (١) وتمدهم أحيانا بصبابات من الماء فى بطون الحفر وقاع الوديان. حتى دخلوا أرض اليمن فى مثل قوافل التجارة. ومن ثم إلى (الحديدة) وهناك على ساحل البحر الاحمر . عاودهم الحنين الى وقفة اخرى يمتعون فيها ناظرهم بأمواج البحر المتلاطمة ولجحه المتزاحمة . ومتنه الشاسع لايحده الطرف. وسطحه الواسع تلتقى ذيوله بذيول السحاب . ويعجبون لشراعياته السابحة كالريشة فى مهب الرياح تعلو بها الأمواج إلى قبة السماء . وتهبط بها بين وهدات الماء . يفتح الخوف لراكبيها بين كل موجتين قبراً . ويمنحهم الأمل عند كل هدأة عمراً . وهم بين هذا وذاك ينظر بعضهم إلى بعض نظرة التسليم بالمقدور والرضا بما هو كائن

وظل القوم مأخوذين بسحر هذا الجمال . سكرى بتلك النسمات الرحيمة . وقد حرموها مدة سفرهم وعودتهم حتى قطع عليهم حبل لذائذهم صوت حذيفة وكأنما يحدث نفسه حالما .

وماضرنا لو بقينا نزاول شأننا فى بلاد أكرمنا الله فيها بحسن الجوار . وجمال الحرية . واكتمال العدل ؟؟ ولكن غررت بنا أنباء قريش وإيمانها برسول الله ومهادنتها إياه . وقد وهموا انه يمدح أوثانهم وينعتها بأنها فى مكان الاستشفاع بها والرضا عند الله لقد خابوا والله وباءوا بخسران مبين.

فسمعه الزبير بن العوام فقال له :

---

(١) الشوك

لعلها جولة مباركة طالعنا زهاءها وجوه الأهـل ومعالم الوطن ونعمنا فيها بوجـه الرسول الـكريم . وذقنا فيهـا لونا جـديداً من ألوان الاحتمال والتضحية .

فقد قضيناها هنا من قبل أربعة أشهر أو تزيد ونحن نرفل فى بحبوحة الامن والطمأنينة بينما رسول الله فى مكة ومن معه من المسلمين. يعيشون فى محيط من الفزع والمفاجآت . وفى جو من الحرمان والاعتداءات .فكان لابد . وأن ندفع ثمن كل هـذه الطمأنينة والهدوء سفراً مضنيا مخيفاً وجواراً بشعا كريها (١) واعتداءا على عثمان بن مظعون حين ثارت نفسه عليه رافضـة البقاء فى جوار الوليد بن المغـيره المشرك وقال ان جوار الله أعز وأبقى . فلطمه أحد أقارب الوليد على عينه ، فقال له عثمان والله ان عينى الأخرى لفى شوق إلى ما نالت أختها . فثار لذلك سعد بن أبى وقاص ـ وهجم على هذا المعتدى وضربه على وجهه ضربة أطاحت بأنفه

فقل لى بربك كيف كان يكتب لنا هذا الفضل ونحن فى الحبشة نكرع من مياهها العذبة ونتنشق فيها عبير الحرية والعدل ونطعم من فضل الجوار وحسن الضيافة وفيض الكرم ؟؟

عبد الله بن جحش - وكيف تتركون مهبط هذا النعيم ومنبع هذا الثراء . وتعودون إلى تلك الأرض الجرداء . والماء الأجاج . والفقر المدقع

عثمان ابن عفان — شوقا الى رسول الله وطمعا فى الكفاح الى جواره

---

(١) يشير بهذا الى أن أصحاب الهجرة الاولى حين علموا باستمرار العداء من قريش لمحمد، جاءوا الي مكة ودخلوها فى حمى بعض المشركين وكان هذا كريها عليهم

***

ثم رفع عمرو بن العاص رأسه بعد اطراقة طويلة وأرسلها زفرة حارة وقال للمؤتمرين معه من سادة قريش .

لقد خاب ما كنا نؤمل !! ظفروا في الأمس بحياتهم وهجرتهم في غفلة من قريش . وفازوا اليوم بالأمن والراحة بجوار النجاشي وعطفه . وكنا نظن انهم وان وفقوا في الفرار . فلن يوفقوا في البقاء متجاورين مع المطارنة المسيحيين يعتنقون دينا غير دينهم . ويسيطرون على قلوب الشعب . ويكونون مجلس النجاشي ويوجهون سياسته . ويرغبون في أن تسود المسيحية في كل مكان . ليتسع بذلك نفوذهم . ويقوى سلطانهم . وتتضخم ثروتهم . ولكن لا أدري كيف تم لهم هناك كل هذا التوفيق !! إلا أن يكون هذا النجاشي رجلا لا يعرف كيف يشد على وسطه منطقته (١) ولا ينظر إلا إلى ماتحت قدميه !! فروا أمركم . ودبروا شأنكم . فان أنباءهم لتحز في نفسي وتأكل من صدري .

شيبة بن ربيعة — لا شيء فيما أرى إلا أن نجهز على من بقي منهم في مكة . وأن نأتي على ذراريهم ونسائهم انتقاما وتشفيا . فاما أن يودعوا مكة وأهلها إلى الأبد آبقين محرومين من الأهل والوطن أو يحضروا للأخذ بالثأر . وإذذاك يكونون قد وضعوا رءوسهم في فم الأسد بدورهم . وتقضي (اللات والعزى) بقضائها عليهم .

الوليد بن المغيرة — تربت يداك من مأفون !! وهل كان المهاجرون

---

(١) حزامة

إلا وشيجة منا . وآصرة فينا . ورحما بيننا . وهل نساؤهم وذراريهم إلا فلذات أكبادنا . وأغصان فى دوحاتنا . وما ذنب هؤلاء لنهرق دماءهم من أجل هذه الحفنة الصابئة على قريش .

عبد الله بن أميه ـ ليس هناك ما هو أكثر سدادا من أن نوفد إلى النجاشي وفدا من قريش يحمل معه الهدايا العظيمة له وللبطريق الأكبر والمطارنة حتى يكون لنا منهم ألسنة عند النجاشي وعون عظيم

أصوات ـ مرحى ! ! مرحى ! !

الوليد ـ الأمر ما رأيت يابن أمية . فعلينا أن نساهم فى الهدايا . وعليك وابن العاص حملها إلى الحبشة . بالنيابة عن قريش راجين لكما سفراً سعيداً وتوفيقا عتيداً وعوداً حميداً

* * *

دخل النجاشي إلى قاعة العرش متئدا هادئا . وقد تدلى سيفه الذهبي على جانبه تفوح من أعطافه موجات المسك ويحوط به حراسه الفواره العماليق (١) ثم أذن لوفد قريش عليه بالدخول . فمثل بين يديه عمرو بن العاص وعبد الله بن أمية ثم قدما اليه هديته . فرحب بهما أجمل ترحيب وهنأهما بسلامة الوصول . فردا عليه التحية بأحسن منها ثم قال :

أيها الملك انه قد ضوى (٢) إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت

---

(١) الطوال الاجسام
(٢) آوى

وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه

فنظر النجاشي إلى محدثه ليقرأ فى تقاسيم وجهه وتفاعيل نفسه مقدار مايقوله من صحة أو كذب ثم نظر إلى مطارنته نظرة استشارة لما سمعوا ، فقال البطريق .

لقد انتهى إلينا — حفظ الله الملك — أن هؤلاء النزلاء قد أتوا فى بلادهم شيئاً إداً وخرجوا على دين أشرافهم وعشائرهم . وأطلقوا ألسنتهم فى معبودات قومهم . وبذروا بذور الشقاق فى بيئاتهم ، ثم فروا إلى بلادنا آبقين ولا يبعد مطلقا أن يسيئوا إلى حسن الجوار وطيب العشرة ونبالة الكرم فيقوموا بيننا بمثل ماقاموا به فى بلادهم وليس أدعى إلى الاطمئنان من تسليمهم إلى أهليهم وعشيرتهم يرون فيهم رأيهم لتظل بلادنا بعيدة عن الفتن سليمة من عوامل الشقاق والمحن

قال البطريق هذا والنجاشي مطرق لحديثه تارة . متفرس أثر ذلك فى وجوه المطارنة والضيوف تارة أخرى . فاذا بهم يهزون رؤوسهم علامة الرضا وإيماءة الموافقة وعمرو وصاحبه تشع عينهما ببريق السرور والغبطة لما وصلا إليه من نتائج . . .

وما كانت إيماآت المطارنة بالرضا والموافقة إلا موجات تبعث الغيظ إلى نفس النجاشي وهزات تثير انفعالات نفسه رويداً رويداً حتى ظهر الغضب فى وجهه . وأطل الغيظ من عينيه فاحتد على حاشيته وقال

«والله لا أسلم قوما جاوروني ونزلوا في بلادي واختاروني على من سواي - حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان . فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما وإن كان الامر غير ما يذكران منعتهم وأحسنت جوارهم»

- ٣ -

« إن قرآنكم والكلام الذى جاء به »
« موسى من مشكاة واحدة ، اذهبوا »
« فأنتم آمنون ، وما أحب أن لى جبلا »
« من ذهب وأننى آذيت رجلا منكم »
نجاشي الحبشه

. ودخل المسلمون على النجاشى باقدام ثابتة . وقلوب مطمئنة . يتقدمهم جعفر بن أبى طالب فى جمال طلعته . واشراق وسامته . فحيوا النجاشى التحية اللائقة به . ثم أخذوا أماكنهم حيث أشير لهم ، وفى ناحيـة من حجرة العرش ألفوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعـة مطرقين متظاهرين باحترام المقام . ولم يكن ذلك إلا مقدمة الهزيمة . وطلائع اليأس تأخذ مجراها إلى نفسيهما بعد أن رفض النجاشى تسليم المسلمين لما اتهموا به قبل استدعائهم و استجوابهم والتأكد من صحة ماقيل عنهم

ثم توجه النجاشى إلى المسلمين قائلا :

ماهذا الذى فارقتم عليه قومكم ؟؟ واذا كان دين قومكم لم يرقكم فلماذا لم تدخلوا فى دينى أو فى ملة من هذه الملل ؟

فأدرك المسلمون من سؤاله سر استدعائهم فى مثل هذه الساعة ومقدار مابثه عمرو بن العاص من الدسائس فى بلاط النجاشى ، ثم انبرى جعفر بن أبى طالب للاجابة عن الجميع فقال :

أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام . ونأكل الميتة . ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام . ونسيء الجوار . ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده . ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة . وصلة الرحم . وحسن الجوار . والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش . وقول الزور . وأكل مال اليتيم . وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به . واتبعناه على ماجاء به من الله . فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا وحرمنا ماحرم علينا وأحللنا ما أحل لنا . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله . وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا . وحالوا بيننا وبين ديننا . خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك

فهز النجاشى رأسه وأغمض جفنيه إيماءا إلى الرضا بما قيل ، واستملاحا لما سمع ثم قال لجعفر

هل معك مما جاء به هذا الرسول شيئا تقرأه علينا

فقال نعم ثم اعتدل وجلس مجلس الصلاة وقال :

.. بسم الله الرحمن الرحيم . واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا

إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا — إلى قوله تعالى - فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا • وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً • والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا

كان جعفر يتلو هذا فى جرس عذب وترتيل موزون • والنجاشى ومطارنته • يترنحون ذات اليمين وذات الشمال نشوى بموسيقية القرآن ، سكرى بخمرته ، ولهى بجمال ماروى عن نبيهم فيه • تتأثر به أحاسيسهم ، وتتجمع له شجونهم حتى استحالت شئونا وانطلقت دموعا تهمى على اللحا، ثم علا نشيجهم فى المجلس • بينما عينا عمرو وصاحبه فى مثل زيغ المضطرب أو فى ذهول من ينتظر حكم الاعدام ، يمزق قلبهما اهتزازاتهم ويشوى وجهيهما تأوهاتهم وتكوى قلبهم دموعهم

ثم مسح النجاشى دموعه وقال

ان هذا والكلام الذى جاء به موسى من مشكاة واحدة

البطريق ـ بل إنه يصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح

ثم نظر النجاشى إلى عمرو وصاحبه • نظرة لم يتحدث على أثرها • فامتقع لونهما وارتعدت فرائصهما وأيقنا أنهما بعد كل هذا لا محالة هالكان لولا الأمل فى كرم الرجل وأخلاقه الرفيعة

ثم نظر اليهما مرة أخرى ولم يشأ أن يدعهما فى هذا الشقاء والاضطراب بل حدثهما قائلا

انطلقا بسلام . فوالله لا أسلمهم اليكما أبداً

فخرجا يسحبان ذيول الخزى، والفشل ويأكلان قلبهما من الضغينة والحقد . لا يخففهما إلا الظفر بالسلامة بعد كل هذا النصر الذى أحرزه المسلمون فى المجلس . . غير أن عمرا قد دبت فيه روح الأمل وعاوده حب الانتقام . وأبى الا أن يقامر بحياته ويلقى بآخر شباكه فى طريق المسلمين عند النجاشى . فاما نجاح تقر به عين قريش ، واما فشل لا اعتدال لمعوجه . ولا قيامة لعثرته . فاستأذن على النجاشى فى اليوم الثانى فأذن له

ثم أخذ يمتدح النجاشى ويذكر ما اشتهر به من قوة السلطان وسمو الأخلاق وعظيم الكرم حتى اتسع لأمثال هؤلاء الآبقين من أحضان أهليهم وعشيرتهم . الصابئين عن دين آبائهم وأجدادهم الطاعنين فى المسيح بالافك والكذب . وهكذا تسىء الأخلاق الكريمة إلى النفوس الوضيعة !!

قال هذا عمرو بن العاص . وقد ظن أن النجاشى سيحنق عليهم فى الحال ويأمر بطردهم من بلاده وتسليمهم لقريش . لأن الطعن قد تناول أرهف حاسة وأحس عاطفة . ولكن النجاشى كان أفسح مما تخيل عمرو حلما ، وأوسع صدراً وأرعى للعدل والانصاف مما قد زعم . فأرسل النجاشى فى طلب المسلمين إلى مجلسه من جديد . وراح يستعد لتوجيه الأسئلة اليهم فيما اتهموا به . بينما راح عمرو يجالد نفسه التى تكاد تطير من الاضطراب ويهدىء من قلبه الذى يوشك أن يطير من الرجفة . حتى استحال جسمه الى آذان

وأحاسيس لسماع ماشيقال ، وانتظاراً للنتيجة التى كان يرجو أن تكون له سارة .

ثم توجه النجاشى إلى المسلمين وقال :

ماذا تقولون فى اليسوع المسيح ؟

جعفر — نقول الذى جاء به نبينا محمد .. يقول هو عبد الله ورسوله وكلمته الى مريم العذراء البتول وروح منه . كلمات معدودات أطلقها بن عبد المطلب فى سماء المكان تياراً من الفرح والسرور فهزت جسم النجاشى هزا . وشعت به عيناه ، ثم مال إلى الأرض وأخذمنها عوداً وخط به على الأرض وقال :

ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط

فشهق المطارنة لذلك شهقة استنكار واشمئزاز من هذا التصريح فالتفت اليهم غاضبا فى سرعة خاطفة وقال :

ولو شهقتم !! حتى قرارة امعائكم . فانه والله كلام صادق مجزه وواقع حقيقته .

ثم قال للمسلمين :

اذهبوا فأنتم آمنون . وما أحب أن لى جبلا من ذهب واننى اذيت رجلا منكم

ثم صاح برأسه .. ازردوا على هذين الرجلين هديتهما . فان الله ما أخذ منى رشوة حين رد إلى ملكى حتى آخذ منهما رشوة على الفتك بالناس

***

كفهر الكون غاضبا محتداً وارعد صوته داويا مزلزلا ، واتقدت عيناه بوميض خاطف يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار وسالت عبراته هتونة سحاحة تحمل النعمة والثراء والبركة إلى جميع سكان هذا الوادى السعيد ، ولفت جوانبه موجة من البرد القارص بعد أن رقصت أعاصيرها فى الفضاء مجلجلة صافرة . وراح المسلمون ينظرون الى احتفاء الطبيعة بفصل الأمطار والخير بعين محرومة من مثل هذه المناظر الفاتنة لايرونها فى بلادهم بهذا العنفوان الزاخر إلا نادراً وكم يكون يوم رؤيتها عيداً قومياً يزف السرور إلى الأجنة فى الأرحام ، ويبسط رداء الغبطة والجذل على الحضر وسكان الكهوف والآكام .. وحال انهمار المطر وبرودة الجو دون مرور السابلة فى الشوارع والمنافذ إلا من داهمتهم غزارة الماء فى المراعى النائية . والمروج البعيدة فعادوا يسوقون أغنامهم وأبقارهم فى تهافت واعياء ورعشة . كما يعود القائد المهزوم بفلول جيشه فى صمت الأسى والكمد لايشعر به أحد ولا يستقبله إنسان . يسير وئيداً كأنه يمشى فوق شوك . وينتقل حاذراً كأنه يخاف مفاجأة العدو على مابقى معه من وحدات ..

ثم صاح فى القوم عثمان بن مظعون وقال :

ادخلوا مساكنكم . وأغلقوا الأبواب لئلا يطوف بكم من البرد طائف

جعفر بن أبى طالب — يالك من كهل طيب القلب ! ! يطوف بنا طائف البرد فى يوم نحن فيه سكارى بخمرة النصر ولذة الفوز على قريش ؟؟ إن دم الفرح ليغلى فى عروقنا غليان القدر على النار . وإن نشوة السرور

لتمشي حمياها في أعضائنا تمشي الماء في العود الأخضر • وان وقفة الخيال في هذه الساعة على رأس عمرو وعبد الله بن أبي ربيعة وهما مطرقان حزنا وكمدا وفشلا — لتدعنا دافئين بحرارة الغبطة إلى الأبد . وان منعة هذا الملك العظيم لنادونهم ، ومبالغته في حمايتنا واكرامنا وحمل هذه الأخبار الى قريش • لمما يؤيد قضيتنا ويشجع الخائفين على الظهور بيننا ويقيم لها الدعاوة بين العرب • ويظهر قريشا ومن شايعها بمظهر المعتدى الظالم على المسلمين ، سيما وقد عرف هذا الملك بالعدالة واشتهر بالانصاف هناك . وذاعت عنه رجاحة العقل ونبالة الشيم وسمو السجايا • فمن مبلغ عنا رسول الله هذا النصر المبين • ومن يحمل لواء البشرى عنا إلى المسلمين ؟ سيبلغونها إحساسا بالفرح وغبطة بالروح • وسيقرأونها سوداء قاتمة في وجه عمرو وعبد الله عند الاياب •

الزبير بن العوام — لم أفهم بعد ماسر شهقة المطارنة عند مارأوا موافقة النجاشي على قول جعفر بن أبي طالب عن عيسى (انه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول) ؟؟

جعفر — لأن شوائب الخلاف قد دخلت بينهم وبين مؤلهي مريم ومؤلهي عيسى والقائلين برسالته والقائلين بنبوته والقائلين بالمزج بين الأب والابن والروح القدس والكل إله واحد . فلعل المطارنة من القائلين بمذهب مخالف لهذا الرأى الذى قيل .

أبوحذيفة - كما إني لم أفهم ماقال النجاشي من أن الله لم يأخذ مني رشوة حين رد إلى ملكي . فآخذ رشوة فيه .

ـ لقد كان النجاشي هذا وحيد والده ووريث عرشه . فخشى كبار الدولة على العرش لعدم تعدد أولاده . وكان لوالده أخ له اثنا عشر رجلا. فراودوه على قتل أخيه ليظل الملك في أولاده وأولاد أولاده الكثيرين . فعمل باشارتهم وقتل أخاه . وتربع على دست الملك مكانه . وكفل ابن أخيه الذى هو الملك الآن . وكان طفلا على جانب كبير من الحذق والمهارة والاتزان . فخشى كبار الدولة على أنفسهم خطره المستقل لتآمرهم على أبيه . فأشاروا على عمه بقتله تخلصا منه أو يسلمه لهم لنفيه خارج حدود المملكة فرضى بالثانية وأسلمه إليهم فباعوه لأحد تجار الرقيق . وغادر بلاده عبداً ذليلا بعد عز الامارة والسيادة . وماجاءت عشية ذلك اليوم حتى خرج عمه الى العراء يستمطر . فهوت عليه صاعقة فسحقته . فحار رجال الدولة فى أمرهم وهرعوا إلى أولاده . فلم يجدوا بينهم من يصلح للملك ، فتشاوروا بينهم وخافوا على الملك أن يخرج من أسرة البيت المالك الذى يحترمونه ويقدسونه . ثم رأوا اللحاق أخيراً بسفينة تاجر الرقيق الذى اشتراه لاسترجاع الأمير الشاب ليتوجوه ملكا عليهم لئلا يختل ميزان الدولة وتعبث بها يد الطامعين . فلحقوا بها وأدركوه . ودخل الحبشة ملكا متوجا على رأس الجميع . فكان هذا معنى ماقال (ماأخذ الله منى رشوة حين رد الى ملكى . فآخذ الرشوة فيه)

فهز عثمان بن عفان لحيته ايماء بالرضا والاستملاح لما سمع وقال

« هكذا يقذف الله الحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق »

نحو السيادة

طرف مما أصاب بلال بن حمامة الصحابى
المعروف من جراء إسلامه ، مما حمل أبو بكر
رضي الله عنه على شرائه وعتقه انقاذاً له مما هو فيه

- ١٠ -

«أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالا»

عمر

« إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك »

« فأمسكنى وان كنت إنما »

« اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله »

بلال

ـ صوت كأنه مزمار داود أو لحن الهزار (١) ينبعث من بين أشجار الرمان وأغصان الكروم ويستوقف الأطيار الغادية ، ويحرق الأكباد الصادية ويذيب القلوب العاتية ، تستقبله فى نهاية المقاطع أصوات السكارى هائمة حائمة . صاخبة قارعة فاذا ما عادوا إلى هدوئهم عاد المغنى حانيا كالحنان ، شاديا كالكيروان ، فيحمله هدوء الليل إلى الآذان ، ويردده الأثير إلى الدانين من بنى الانسان ، فتجتمع حول الحديقة جحافل الشبان ويتنكب بالقرب منها مواكب الكهول والصبيان .. يستمعون إلى الصوت الندى والشدو الشجى ويشربون منه رحيقا يخفف عنهم ألم السفر وعناء الحياة . .

وفى فترة الراحة سأل ضيف صديقه القرشى :

ـــ من هؤلاء الشبان العرابيد ؟

سيف ـــ هؤلاء بنو السادات من قريش اتخذوا من هذه الخميلة

---

(١) طائر ذو صوت جميل

منتدى للسمر والشراب ومغنى (١) للمرح والسرور .

فهر — ومن هذا الساحر يغنيهم ويشدو لهم حتى لكأنهم جنوا !؟

سيف — هذا بلال (٢) عبد بنى أمية بن خلف سيد بن جمح .

فهر — لقد أذاب الله خمر صوته فى عين من العسجد (٣) .

سيف — هازئا — ليته كان يشوبها فيهتاج شجوه ويثور حنينه فيكون أكثر إمتاعاً ، وألذ استماعاً . ولكنه اتصل بعصبة حرمته لذتها ، ومنعته نشوتها .

فهر — ومن هؤلاء البلهاء يحرمون لذة الراح والراحة والسرور ؟!

سيف — هم عصبة تجتمع فى جوف الكعبة وتدعو إلى ماسموه (حلف الفضول) يردون الظالم ، وينتصرون لحق الضعفاء ولا يشربون الخمر !

فهر — أما أن ينتصفوا للمظلومين والضعفاء فحسن ، وأما أن يحرموا أنفسهم لذة الخمر فحمق وغبن لا يرضاه حر لنفسه .

سيف — بل هم سادة الأحرار فى قريش على رأسهم محمد ابن عبد الله ابن عبد المطلب سيد بنى عبد مناف ، له منذ صباه فى الناس سيرة خيرة ، ومقام محسود ، ومكان الحكم ، ولولاه فى يوم وضع الحجر الأسود فى الكعبة لاقتتلت العرب وأريقت الدماء . وبين هذه الجماعة أبو بكر بن أبى قحافة له بيننا أرومة وحسب . ومنزلة ونسب . وجاه وثراء . ولكنهم مع الأسف لا يشربون الخمر !!

---

(١) منزل .
(٢) الصحابى المعروف .
(٣) الذهب .

فهر ـ وإذا كانت الخمر قد جمعت بين هؤلاء السادة وبين عبدهم بلال ، فما الذى جمع بينه وبين الآخرين وليس بينهم شارب خمر ولا قارع دف .

سيف ـ فى الحق لقد بوأه مكانه رجاحة عقله وطلاقة لسانه وقوة إرادته فلم تفل من عناده وطأة السادة ، ولم يلن من عريكته ذل العبيد .

فهر ـ ليت شعرى ! وهل يسخر رجل مثل هذا فى أعمال العبيد !

سيف ـ لقد قدر سادته قدره فهم يرسلونه مع القوافل فى تجارتهم إلى اليمن والشام فزادت أمانته فى قدره ورفعه وفاؤه إلى سواء الجميع .

***

استيقظ أمية بن خلف على شدو جميل وترجيع عذب فعلم أنه صوت بلال بن حمامة فظنه يسلى نفسه عند قيامه إلى عمله وقد ما زجته نسمات السحر ، ولكنه اليوم لا يردد نغمة ولا يرجع لحناً وإنما يقول كلاما له فى نفسه وخز الابر وحز المدى ثم أخذ يحدث نفسه :

ليت شعرى ماذا دهاه وماذا أصابه ؟

أيتحدث فى صدره جنى أم يهمس فى أذنه شيطان . أم سحره علينا ساحر ؟ . ويل لابن حمامة منى إن كان يتحدث عن كلام محمد أو يحكى قرآنه الذى يزعم نزوله من السماء . . ألا شقاء له وتعاسة ، ان كان قد حمل إلى منزل سيد بنى جمح مثل هذا السحر يفسد علينا أبناءنا وذرارينا

ثم نضى عنه غطاءه وانتصب مغضباً حانقاً ووقف بباب عبده بلال يستمع فتناوبته عاطفتان : عاطفة الحنق على عبد يجلب إلى بيت سيده تعويذة التفريق وشتائم الآلهة وتسفيه أحلام قريش ، وعاطفة الامتاع بوقع هذا الكلام العربى فى نفسه .

وكلما دفعته مراحل الغضب إلى اقتحام الباب أثقلته الرغبة فى مزيد الاستماع إلى هذا الكلام العجيب ، يسير إلى سمعه ، فينصب فى نفسه ، ويرف على قلبه ويهز من مشاعره . حتى إذا صافح أذنه قوله تعالى (إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) ثارت ثائرته واقتحم على بلال بابه ، لا تدرى أخشية على نفسه من أن يسحر بدوره فيسلم لمحمد هذا — الفقير المعدم — تاج عزه وزعامته بيده . أم غضبا على ماتحمل الآية من وصفه وأمثاله بالظلم والافتراء ، فلم يروع بما صنع ، وما أعار التفاتا لما وقع ، وما انتصب لسيده واقفا ولا أوقف تلاوته ولا هلع ، وواصل قرآنه يقول : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصوراً) وشاء أن يمضى فيما يتلو فقطع أمية عليه سبيل مضيه وقال غاضبا مغيظا :

حتى لا تقف لى بعد ذلك ! ؟ ولكنك عبد ! ! قد أساء إليك حسن مصانعتى اياك وغرر بك الارتفاع بقدرك الى سواء سادتك . .

أقد استخفك محمد . فصبئت وكفرت باللات والعزى .

بلال ـ يخرج من هدوئه ـ ما صبئت وما استخفنى محمد وانما

هدانى الله .

أمية ـ صائحا ـ هدانى الله ! ! وهل لك إله غير ما تعبده قريش ! ؟ الويل لك إذا أنت أصررت على ذلك

بلال (يواصل حديثه) ـ نعم هدانى الله الأحد الفرد الصمد وأرشدنى الرسول الأمين محمد فآمنت أن لا إله إلا الله لا يعبد سواه

أمية ـ مقاطعا ـ لازلت تقولها فى وجهى يالئيم الطبع ياعنيد الخلق يا ابن السوداء

بلال ـ نعم لا يعبد سواه ولا يشرك به شيء

أمية ـ ياللموت لقد تكهن العبد وسحره محمد . . وامتلأ بهتانا وضلالا . . فما للعبيد وتخير الأرباب والمفاضلة بين الديانات . فاذا كنت لاتملك نفسك . ولا أن تقلب درهما فى يدك . فكيف تملك حق التدين واختيار العقائد . ولكنى أفهم أن أبناء العبيد لا يردهم إلى صوابهم اقناع أو حساب . وإنما هراوة (١) أو سيف . بل إن الهراوة لاتداوى جرحك وإنما السيف هو الذى يستطيع ذلك فيهريق دمك فى هذه الفلاة كما تهرق المدية دم شاة

بلال ـ لاعليك يامولاى من بأس فى ذلك فان الموت غاية كل حى ونهاية كل ديار . وإن موتا على خير وهدى لهو أفضل من حياة فى شرود وضلالة وذل وفساد

أمية ـ نعم حينما يرى أبناء الاماء سيف يغمد فى أعناقهم . يعلنون

---

(١) عصا .

عن شجاعتهم وزهادتهم فى الحياة واستخفافهم بالموت لضرورة وقوعهم بين أنيابه .

بلال – وعلام يرضى العبيد عن الحياة . وهم فى مثل عيش السائمة وحياة النعم . بل يجب أن أتشجع لأن الشجاع يموت مرة واحدة وأما الجبان فانه يموت عدة مرات كل يوم . بل قد لا أحتاج إلى الشجاعة متى أدركت أن الآجال محدودة والأعمار موقوتة . وأنه لن يموت أحد إلا إذا وافى كتابه وجاء أجله المحتوم .

فثار جنون أمية وهجم على بلال وأمسك بعنقه وقال :

لا تزال أيها الملعون تمعن فى غيك وتوغل فى خلطك . وتوغر صدرى بسفاهاتك وتبجحك . وحق اللات والعزى لأكتبن كتاب عذابك بدمك ولأقتلنك شر قتلة . ثم صرخ على خدم البيت وحشمه :

خذوا هذا الأحمق فعذبوه طويلا ثم اقتلوه على مشهد حتى يراه الناس

فسارع الخدم والعبيد إلى تنفيذ إرادة سيدهم فأوثقوا بلالا بالحبال والأغلال وساقوه إلى ساحة الموت . وبلال لا يقاوم ولا يتكلم . وخلفه جيش من الصبيان والخدم يصيحون بقتل الصابىء عن دين قريش .

غاب هذا الحشد خلف سحابة من التراب . وخف صوت الصائحين لبعدهم عن المنازل وجلس أمية بن كعب فى ركن بيته تائها فى حرارة غضبه وسيفه بجواره ووقف بعض أهله وبنو عمومته فى انتظار هدوئه واستفاقته. وراح كعب بن أمية يتابع بلالا بين جلاديه بنظراته ويرمقه بحبه الحبيس ويرف عليه بفؤاده الخفاق . كأنما يريد أن يلقى على الرجل المحبوب نظرات

هدانى الله

أمية ـ صائحا ـ هدانى الله ! ! وهل لك إله غير ما تعبده قريش ! ؟ الويل لك إذاً أنت أصررت على ذلك

بلال (يواصل حديثه) ـ نعم هدانى الله الأحد الفرد الصمد وأرشدنى الرسول الأمين محمد فآمنت أن لا إله إلا الله لا يعبد سواه

أمية ـ مقاطعا ـ لازلت تقولها فى وجهى يالئيم الطبع ياعنيد الخلق يا ابن السوداء

بلال ـ نعم لا يعبد سواه ولا يشرك به شىء

أمية ـ ياللموت لقد تكهن العبد وسحره محمد . . وامتلأ بهتانا وضلالا . . فما للعبيد وتخير الأرباب والمفاضلة بين الديانات . فاذا كنت لاتملك نفسك . ولا أن تقلب درهما فى يدك . فكيف تملك حق التدين واختيار العقائد . . ولكنى أفهم أن أبناء العبيد لا يردهم إلى صوابهم اقناع أو حساب . وإنما هراوة (١) أو سيف . بل إن الهراوة لا تداوى جرحك وإنما السيف هو الذى يستطيع ذلك فيهريق دمك فى هذه الفلاة كما تهرق المدية دم شاة

بلال ـ لا عليك يامولاى من بأس فى ذلك فان الموت غاية كل حى . ونهاية كل ديار . وإن موتا على خير وهدى لهو أفضل من حياة فى شرود وضلالة وذل وفساد

أمية ـ نعم حينما يرى أبناء الاماء سيف يغمد فى أعناقهم . يعلنون

(١) عصا

عن شجاعتهم وزهادتهم فى الحياة واستخفافهم بالموت لضرورة وقوعهم بين أنيابه .

بلال ـ وعلام يرضى العبيد عن الحياة . وهم فى مثل عيش السائمة وحياة النعم . بل يجب أن أتشجع لأن الشجاع يموت مرة واحدة وأما الجبان فانه يموت عدة مرات كل يوم . بل قد لا أحتاج إلى الشجاعة متى أدركت أن الآجال محدودة والأعمار موقوتة . وأنه لن يموت أحد إلا إذا وافى كتابه وجاء أجله المحتوم .

فثار جنون أمية وهجم على بلال وأمسك بعنقه وقال :

لا تزال أيها الملعون تمعن فى غيك وتوغل فى خلطك . وتوغر صدرى بسفاهاتك وتبجحك . وحق اللات والعزى لأكتبن كتاب عذابك بدمك ولأقتلنك شر قتله . ثم صرخ على خدم البيت وحشمه :

خذوا هذا الأحمق فعذبوه طويلا ثم اقتلوه على مشهد حتى يراه الناس

فسارع الخدم والعبيد إلى تنفيذ إرادة سيدهم فأوثقوا بلالا بالحبال والأغلال وساقوه إلى ساحة الموت . وبلال لا يقاوم ولا يتكلم . وخلفه جيش من الصبيان والخدم يصيحون بقتل الصابىء عن دين قريش .

غاب هذا الحشد خلف سحابة من التراب . وخف صوت الصائحين لبعدهم عن المنازل وجلس أمية بن كعب فى ركن بيته تائها فى حرارة غضبه وسيفه بجواره ووقف بعض أهله وبنو عمومته فى انتظار هدوئه واستفاقه. وراح كعب بن أمية يتابع بلالا بين جلاديه بنظراته ويرمقه بحبه الحبيس ويرف عليه بفؤاده الخفاق . كأنما يريد أن يلقى على الرجل المحبوب نظرات

الوداع . ويعطره قطرات العطف المتبخرة من سماء العجز عن إنقاذه ، ولكنه عاد يؤنب نفسه على موقفه العاجز وكأنه يحدثها قائلا :

وما الذى يحدث لو تشفعت لأخطائه . وكاشفت والدى بحبي له ومن ذا يغنينا إذا مات بلال ؟ ومن يضفى على ليالينا ثياب السعادة ؟ ! سيقولون يمالئه ! ليكن ذلك . ولكنهم لن يقولوا يشاركه فكره وعقيدته . . أعتقد ذلك . فقد يحب المرء فى عدوه خلالا حميدة ومواهب نادرة . إذن فلأقطع عليه حبل حزنه وتفكيره . ولأحدثه فى العفو عنه . وليفهم بعد ذلك ما شاء أن يفهم فهو لن ينسى أنى ولده وخليفته ولن يتصامم عن نداء المحبة والحنان بين جنبيه إذا ساورته نفسه شيئا عنى . . ثم اندفع نحو والده وأراد التحدث إليه . فخانه لسانه فأخذ يحك يدا بيد . ويمسح بيمناه على فمه وعثنونه ثم عاودته نوبة الشجاعة فتحرك لسانه لكن لا عن شيء مفهوم . فألفاه والده يتعثر فى خجله ويطرق من حيائه أو خوفه فقال له :

كأنك تريد أن تقول شيئا يا كعب . تحدث ماذا تريد ؟

كعب ـ إن قتل بلال ياأبتاه إن دل على شيء فلن يدل إلا على عجزنا فى تربية أحد عبيدنا وإننا لن نستفيد من قتله نقيرا . وان صح أن هناك من فائدة فانها لقريش وحدها . ولن تعوضنا عن قتله قطميرا . ونظل نحن الخاسرين . . ألا تذكر يا أبتاه أننا قد رودونا عليه بآلاف الدراهم فرفضنا صفقته . وأبينا بيعه احتفاظا به . فكيف نلقى به اليوم هباء بين أنياب الموت ؟ وإذا كان ولا بد من مفارقته فلنبعه فنريح أنفسنا من عناء معالجته ونربح ثمنه الوفير

أميه ـ أترى يا كعب أن أحداً يستطيع شراءه بعد ما مسه من السحر ما مسه ؟

كعب ـ إن له فى صوته ثروة طائلة وله من مزاميره ما هو أثمن من كنوز كسرى

فسكت أمية هنيهة يراود نفسه ثم نادى ـ هبوا للعبد حياته واكتفوا بتعذيبه .

لم ينتظر كعب حتى يذهب أحد الخدم بأمر أبيه بل طار بنفسه إلى حيث يوجد بلال فألفاهم يعدون له وسائل النكال . وطرائق الموت فصاح بهم حسبكم وكفى ... فنامت السواعد المشمرة . وبردت الدماء الفائرة . وجفت الابتسامات الشامتة الهازئة . وبلال فى الحالتين أقوى ما يكون نفسا ، وأرسخ ما يكون ثباتا .

ثم دنا منه كعب وقال له :

عد يا بلال إلى صوابك وتنح عما فى نفسك تسلم مما يدبر لك

بلال ـ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

كعب ـ يا بلال . إن أبى رجل عنيد فلا تقرع عناده بعنادك ولا تحاجج من إذا قال فعل

بلال ـ إنى لا أملك إلا نفسى فلتذهب حيث يشاء الله ، فأدخل بها جنات عرضها السموات والأرض

وبينما هما يتحاجان . حضر أمية وأخذ ينظر إلى بلال فى دهشة وعجب ثم قال :

أتعرف أنى قد وهبتك حياتك اليوم ؟

بلال ـ هو وحده الوهاب

أمية ـ أتعرف أنك إن لم تراجع نفسك خسرت الكثير

بلال ـ حسبي بالاسلام ربحا وبمحمد هاديا وبالقرآن نوراً مبينا

أمية (محتداً) ـ ألا تزال تهرف كعادتك وتهزو كشأنك

بلال ـ ماهزوت ولكنى أقول لا إله إلا الله

أمية (حانقا) ـ خذوا . . خذوا هذا الكلب الأجرب من أمامى وألبسوه المرقع والمستقذر وشهروا به حول الكعبة حتى يدرك قدر نفسه فيثوب إلى رشده .

وما لبث لحظات حتى نضى العبيد والخدم عنه ثيابه وألبسوه ماغير معالمه وشوه منظره وأوثقوه فى حديد وحبال وراحوا يصخبون حوله والأطفال تردد :

ـ هذا الكافر باللات . هذا الجاحد بالعزى . وكان يسير بالقرب منه كعب بن أمية باكيا حائراً بين صرامة أبيه وعاطفة الحنو إلى بلال متوسلا إليه أن يترك هذا الذى يجالد له ويعاند فى سبيله وبلال ينظر إلى العيون الدامعة من أجله ويرفع فى الفضاء سبابته ويقول :

أحـد . . . . أحـد . . . .

إنما هو الله أحد . . . .

ترى من هذا البطل الدارع ألقى به جواده على الأرض فراح يتلوى

تحت آلامه فى صمت وجلاد ! ! وأين اتجه فرسه الجامح وخلفه هكذا
وليس هذا من سنة كرائم الجياد ؟ وأين ذهب رفاقه وخلفوه للأصفاد
والاغلال فوق نفثات اللهب . وتحت وطيس الهاجرة ؟ ولم وقف هـذا
الحشد من الصبية والشبان يتضاحكون عليه ويهزءون به دون أن تمتد يد
لانهاضه وماعهدنا الشماتة بالابطال . والتضاحك فى يوم النزال

سيف ـ ضاحكا ـ ألا تدرى من هذا ؟

فهر ـ لا وأبيك

سيف ـ هذا بلال بن حمامة ، بلبل البستان بالأمس . وهزار الشبان .
وشادى الهوى. ومزمار الجوى .. طوح به غضب مولاه إلى أنياب القيود.
وأضراس السخرية والاستهزاء

فهر ـ وهل كان هذا جزاء ما يجتلون بوجوده فى ليـاليهم من مرح
وسرور ! ! أم ماذنبه عند هؤلاء السادة..

سيف ـ لقد صبأ عن دين اللات والعزى .

فهر ـ صبأ ! ؟ تباله وهلاكا . ولعله لبس هذه الدرع يكافح سادته
بين صفائحه غدراً وخيانة . فأثخنوه واوقعوا به .

سيف ـ لقد أرادوا تعذيبه . فألبسوه هـذه الدرع. والقوه فى حمـارة
القيظ يكوى بنارها ويشوى بأوارها وكبلوه بالحديد حتى لا يستطيع فكاكا.
ووضعوه تحت عيون العبيد والخدم يؤلبون عليه الناس ويثيرون حوله
الاطفال

فهر ـ فليقتل إذن هذا الملعون . وليحل بينه وبين الحياة .

أتعرف أنى قد وهبتك حياتك اليوم ؟

بلال ـ هو وحده الوهاب

أمية ـ أتعرف أنك إن لم تراجع نفسك خسرت الكثير

بلال ـ حسبي بالاسلام ربحا وبمحمد هاديا وبالقرآن نوراً مبينا

أمية (محتداً) ـ ألا تزال تهرف كعادتك وتهزو كشأنك

بلال ـ ماهزوت ولكنى أقول لا إله إلا الله

أمية (حانقا) ـ خذوا . . خذوا هذا الكلب الأجرب من أمامى وألبسوه المرقع والمستقذر وشهروا به حول الكعبة حتى يدرك قدر نفسه فيثوب إلى رشده .

وما لبث لحظات حتى نضى العبيد والخدم عنه ثيابه وألبسوه ماغير معالمه وشوه منظره وأوثقوه فى حديد وحبال وراحوا يصخبون حوله والأطفال تردد :

ـ هذا الكافر باللات . هذا الجاحد بالعزى . وكان يسير بالقرب منه كعب بن أمية باكيا حائراً بين صرامة أبيه وعاطفة الحنو إلى بلال متوسلا إليه أن يترك هذا الذى يجالد له ويعاند فى سبيله وبلال ينظر إلى العيون الدامعة من أجله ويرفع فى الفضاء سبابته ويقول :

أحد . . . . أحد . . . .

إنما هو الله أحد . . . .

ـــــــ

ترى من هذا البطل الدارع ألقى به جواده على الأرض فراح يتلوى

تحت آلامه فى صمت وجلاد ! ! واين انجه فرسه الجامح وخلفه هكذا وليس هذا من سنة كرائم الجياد ؟ وأين ذهب رفاقه وخلفوه للأصفاد والاغلال فوق نفثات اللهب . وتحت وطيس الهاجرة ؟ ولم وقف هـذا الحشد من الصبية والشبان يتضاحكون عليه ويهزءون به دون أن تمتد يد لانهاضه وماعهدنا الشماتة بالابطال . والتضاحك فى يوم النزال

سيف ـ ضاحكا ـ ألا تدرى من هذا ؟

فهر ـ لا وأبيك

سيف ـ هذا بلال بن حمامة ، بلبل البستان بالأمس . وهزار الشبان . وشادى الهوى . ومزمار الجوى .. طوح به غضب مولاه إلى أنياب القيود . وأضراس السخرية والاستهزاء

فهر ـ وهل كان هذا جزاء ما يجتلون بوجوده فى ليـاليهم من مرح وسرور ! ! أم ماذنبه عند هؤلاء السادة..

سيف ـ لقد صبأ عن دين اللات والعزى .

فهر ـ صبأ ! ؟ تباله وهلا كا . ولعله لبس هذه الدرع يكافح سادته بين صفائحه غدراً وخيانة . فأثخنوه واوقعوا به .

سيف ـ لقد أرادوا تعذيبه . فألبسوه هـذه الدرع . والقوه فى حمـارة القيظ يكوى بنارها ويشوى بأوارها وكبلوه بالحديد حتى لا يستطيع فكا كا . ووضعوه تحت عيون العبيد والخدم يؤلبون عليه الناس ويثيرون حوله الاطفال

فهر ـ فليقتل إذن هذا اللعون . وليحل بينه وبين الحياة .

سيف ـ ان مولاه لا يرى ذلك . لئلا يحتسب قتله عجزاً عن تقويمه وإصلاحه . ولقد أمر بقتله منذ أيام ثم رأى أنها صفقة لا يخسر فيها سواه وتكون في النهاية دليل العجز وحجة الفشل في تقويم عبده . فراح يغلي كنانة العذاب وينثرها ؟ لعله يرعوي ويثوب . ويحاول الكثيرون من محبيه العدول به عن رأيه ، يبكون بين يديه . وينتحبون لتعذيبه . ولكنه لا يجيب على تلك التوسلات ، وهذه الدموع إلا بزفرات حارة يعززها فؤاد صابر ، وقلب قوى لا ينثني . هادىء لا يثور . وكلمات لا تزيد عن أحد . أحد . انما هو الله أحد .

فهر ـ ياله من عبد عنيد !! ولكن لعله موقن بما يعتقد . مؤمن بدينه الجديد .

سيف ـ أي دين هذا ؟! أيترك دين الآباء والجدود إلى دين يعاف الخمر ويهزأ بالأزلام ، ويبغض الكهانة . ويسب الآلهة ان هذا لأمر عجاب !!

فهر ـ أتراه يا أخاه يحتمل كل هذا . ثم يصبر عليه . ويتجلد له . دون أن يكون هناك سر دفين ؟

سيف ـ هكذا العبيد يا ابن عم ، صلاب العود . لا تلين قناتهم ولا تعصر أعوادهم .

فهر ـ لكن بين هذا الوجه القوي . وهذه العارضة الصابرة ، أمر سيكون له شأنه ولو بعد حين .

سيف ـ صه ـ فهذا أمية بن خلف قد جاء يتعجل أخبار عبده !!

عساه يكون قد فاء إلى رشده . فلننتظر حتى يرى ماهو صانع به بعد أن يثير كنانته حوله .

وقف أمية بن كعب عند رأس بلال ظناً منه أن بلالا سيتوسل اليه ويستعطفه ويطلب منه العفو والمغفرة ، ولكن العبد المؤمن قد تجاهل وجود سيده وأشعره احتقار أساليبه . والزراية بكل مالجأ اليه ، فغلى الدم فى وجه أمية وأطل الشرر من عينيه ولكنه استطاع فى الثوانى الأخيرة أن يضبط غضبه ويحزم أعصابه ثم أقعى قبالة وجهه وأخذ يمدله حبل الملاينة ويفرش له ثوب الحرير . ويبسط على مسمعه بساط الاغراء ، ويتوسل إليه بالماضى وامجاده . بين لوامع الفضل. ومحاسن العشرة . رجاء حمله على كلمة يحرك بها لسانه ولكن لسان بلال العصى أبى أن يتحرك بغير كلمة التوحيد سيما بعد أن نفدت سهام الحيل وتقطعت أحابيل الاغراء . وانقلب السيد الطليق أسير كامة من عبده . والعبد الأسير سيداً يتحكم .

وبينما أمية بن خلف على هذه الحال. ناداه صوت من خلفه فالتفت إليه فاذا به أحد أصدقائه فأومأ إليه وقال لبيك يا أخاه

عمرو ـ وماذا بعد هذا الحشد من رجال وأطفال ، وبعد عرضه كل يوم على أفانين الاغراء والعذاب دون نفع أو جدوى الا الاعلام عن الفشل الذريع والعجز الفاضح فى تقويم عبد من عبيدك ؟ ثم قطب جبينه غضبا وقال حسبك ياهذا تشهيراً واعلاماومر بعبدك إلى الموت أو الحبس لا يرى أحداً ولا يراه أحد . حتى تهدأ هذه الثائرة ويخف لهاب الحديث عن محمد

دينه . وإلا فهو إعلام جديد لهذا الدين الجديد

أمية ـ وكيف ينتفع سيد بعبده إذا أسلمه محبسه ؟ وفى مقابل ماذا يطعمه ويسقيه .

عمرو ـ خل بينه وبين الطعام

أمية إذن يموت جوعا

عمرو ـ وماذا يضيرك من موته .

أمية ـ ولكن عاراً أن يموت فى دارنا بالجوع عبد

عمرو ـ إذن فاقتله لوقته

أمية ـ نفقد ثمنه

عمرو ـ وهل يقوم فى ذهنك أن أحداً يبتاع مثل هذا العبد الصابىء بعد كل هذا الاعلام والتشهير ؟ ! يالك من سليم القلب ! !

***

وخرج أبو بكر قبيل الظهيرة لشأن من شئونه فألفى خمسة من الشبان يتعاونون فى رفع صخرة كبيرة أمامهم . والشمس تلفح الأجسام وتشوى الوجوه ، والعرق يتفصد من جباههم وأذرعتهم ، وأيديهم لا تكاد تلمس الصخرة حتى تسمع منهم فحيحا أليما . كأنها قطعة من وقود الجحيم . فعجب أبو بكر لنقل كل هذا الجلمود فى مثل هذه الساعة القائظة . وما كاد يسير خلفهم طويلا وينعرج وراءهم خطوات حتى استقبلته ضوضاء غلمان وضحكات شيوخ وشتائم كهول وشبان، قد وقفوا حول دائرة من الأرض

يمعنون فيها النظر ويلقون إليها ببعر الابل وقطع الحجارة والعظام ويقذفونها بألفاظ تنبو عن سماعها الآذان وما أن رأوا عظم الصخرة الوافدة إليهم حتى صاحوا جميعاً رافعين أيديهم فى الفضاء إعلانا للفرح.. ثم سمع أحدهم يقول :

هذا رسول الموت . ... كل يوم واحدة أعظم من أختها

ثم لمحوا أبا بكر قد جاء يتهادى خلف الصخرة فاذا بهم يغمغمون ثم يغمضون جفونهم ثم ينظر بعضهم إلى بعض ويتغامزون ويتلاحظون. فشعر الأطفال بحركة التغامز فنظروا خلفهم ثم إلى من بجوارهم ثم إلى فريستهم ...

. وما نظر أبو بكر إلى ذلك كله حتى أدرك أن لهذا سببا . وأن فى هذا سراً . وأن هذا السر يتعلق بالاسلام ومعتنقيه . فبدل تهاديه سرعة . وتباطئه وثبة . حتى أشرف على هذه الحفرة ، فاذا بها بلال بن رباح الحبشى عبد أمية بن خلف الجمحى وقد تعاون الكل على وضع هذه الصخرة العظيمة على صدره فى مثل هذه الساعة الهاجرة ، وأن ما كان يسمعه كل يوم من ضروب القسوة والتعذيب قد طابق مكانه من الحقيقة وشاهده بعينه . . ثم سمع أمية يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى .

فرد عليه بلال قائلا :

أحد أحد أحد إنما هو الله أحد

فدارت الأرض تحت قدم أبى بكر لهذه الفظاعة القاسية وثارت فيه عوامل الانتقام من هؤلاء القساة . وعوامل الاشفاق والرحمة على بلال المسكين ، ولكنه لا يدرى ماذا يصنع وحده بين هذه الجحافل الحمقاء إلا أن

يشتريه كما اشترى غيره وأن يستبقيه أو يعتقه لله . فقال لأمية
ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟؟

أمية ـ حسبك يابن أبى قحافة فقد أفسدته علينا وأبعدته عن ديننا

أبو بكر ـ والله ما أفسدته ولكن أصلحه رسول الله وإلا فكيف يعبد المرء آلهة لاعداد لها وهى على تعددها لا تضر ولا تنفع

أمية ـ حسبك ماسحرك به صاحبك أن تدخره لنفسك

أبو بكر ـ لدى غلام ياأمية على دينك أسود وأجلد من هذا . أعطيكه به

أمية ـ قبلت مقايضتك .

فجمع بلال كل قوته ثم جذب نفسه من تحت الصخرة ثم أغمض جفنيه ليستجم قليلا ثم نهض واقفا على ركبته وأمسك بيد أبى بكر وأراد أن يتكلم فخانته قواه فأسند جبهته على ذراعه ولما تزل يده فى يد أبى بكر ، ثم مسح عرق جبينه . ورفع وجهه صوب وجه أبى بكر وأنفاسه ما تزال مبهورة . . ثم قال :

ان كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى . وإن كنت إنما اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله .



سطر من كتاب الأقدار التى خلقت
من إسلام حمزة وعمر فجراً للاسلام ،
وسط ليل حالك من الوثنية ترمى المسلمين
بألوان من الاضطهاد والعذاب جسام

- ١ -

« والله لأوذينه على ملأ ، أتوهم »
« أن قد خذل محمدا بنوعبد مناف »
« أم قد فارقتنا الحياة »

حمزه بن عبد المطلب

« حمزة . أسد الله وسيفه البتار »

حديث شريف

طلع مع الصبح يستقبل صيده هادئا كالملك ، مستقيما كالرمح . متوشحا بقوسه . متمنطقا بسهامه . تستقبله الأسارير ببسطة البشر . وتودعه العيون بأشعة المحبة . وهو بين هذا وذاك مغتبط فى اتزان. طروب فى أناة وسكون راعه منظر الشمس تشرف على مكة من بين هامات الجبال كأنها ملكة فى ليلة الزفاف . تطل على رعيتها من شرفات قصر منيف . فخروا لها ركعا واجمين . ثم أخذت تنثر من نسيجها على الكون ماحول فضته ذهبا وبرده حرارة ودفئا . وكدرته صفاء وسنا .

راعه كل ذلك فوقف دونها متأملا مشدوها . شاردا مذهولا . لم يقطع عليه أحلام الحقيقة إلا شرود ظبى عن كثب. فصرب اليه قوسه. وسدد نحوه سهمه . وأطلقها رمية موفقة أصابت منه مقتلا فولى اليه وأجهز عليه. ولم يكن توفيقه فى قنيصته بمنسيه لذة تأملاته فى وجه الشمس فجلس بجوار ضحيته. وسرح عينه فى جبينها الوضاء من جديد مستسلما لوحى الطبيعة. مستهدفا لوخز الهواجس

وآثارها ، غير أن أرنبا وحشيا أوفدته منيته إلى مصرعه . فمر أمامه يهتز كالأرجوحة ، فقطع عليه حبل تفكيره مرة أخرى فأحني له القوس وراشه بسهم فاحتمله وفربه ، حتى إذا أنهكه النزيف انقلب على ظهره وراح ينطوى وينفرج بسرعة ثم تراخت أعضاؤه ليلفظ آخر أنفاسه . ثم توالت الظباء وتتابعت الأرانب ، حتى روى غلته من الصيد والقنص ، ثم عاد بغرارته إلى مكة بين الفرح والفخر ، يفشى السلام تواضعا ويغض الطرف حياء ، حتى إذا وافى الكعبة ألقى بصيده فى ناحية ، وأخذ يطوف بها قبل الذهاب إلى داره ، فلمحه سرب من فتيات مكة يحملن جرار الماء وقد تمنطقن بمناطق الشام فكن كالغصون قدا وتأودا ، والشهب صفاء . والسحابة ماء . والفجر بسمة وضياء . فقالت إحداهن للأخرى معجبة به : من عساه يكون هذا الشاب القوى والرمح السمهرى ؟

هند بنت فهر ـ هذا فتى الفتيان وسيد الشجعان فى بنى عبد مناف

عبله ـ لعله حمزة بن عبد المطلب

هند ـ هو بعينه يا أختاه

عبله ـ أقادم من حرب . ليت شعرى وأين موقعها من فحول قريش ؟

هند ـ نعم كان فى حرب ولكن مع الظباء والأرانب وهذه فرائسه ساجدة بين يديه .

عاتكه ـ ليتها كانت آساداً ضوارى أو فهوداً شرسة ، أو فيلة جبارة حتى يكون للمنتصر فخر الغلبة وقصب السبق . ولكنها الحيوانات الوديعة التى لا يجد الانسان مسرحا لتسليته سواها

هند ـ هذه هى الحقائق المرة فالويل للضعيف مالم يتقو . أو تدركه عناية الالهة .

عبلة ـ هيا قبل أن تدركنا زهومة الزوال .

انتهى حمزة من طوافه واحتمل صيده فسمع صوتا يناديه : يا أبا عماره

حمزه ـ لبيك ياأختاه

فاختة ـ لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد آنفا من الحكم بن هشام لتحركت له رحمتك

حمزه ـ وأين التقى به

فاختة ـ ألفاه هنا عند الصفا فهجم عليه وأخذ يعنفه ويؤذيه بألفاظ تعافها الآذان وتمجها المشاعر السليمة

حمزة ـ وماذا كان جواب ابن أخى ، على هذا السفيه الدفر ؟

فاختة ـ وحقك لم ينبس ببنت شفة ، بل نجا بأذنه من سماع الباقى من سفاهاته .

حمزه ـ (غاضبا) تباً لهذا الكلب المسعور والله لأوذينه على ملأ . أتوهم أن قد خذل محمداً بنو عبد مناف أم قد فارقتنا الحياة ؟! .

ودخل حمزة بن عبد المطلب إلى المسجد محتقن الدم متجهم الجبهة دون أن يقرىء أحداً السلام كعادته فشخص الكل اليه فى زجنة ورغب . ثم شق صفوف الجالسين فتنحوا له حتى وقف بين كتفى أبى جهل ورفع قوسه وهوى به على رأسه . فتطايرت قطرات الدم هنا وهناك حتى ظن الحاضرون أن قد شطرت رأسه . وهو يقول :

أتشتم ابن أخى بكل هذه الوضاعة !؟ لئن كان ذلك لما جاء به فأنا على دينه . ورد على إن استطعت .

فنظر الحكم إلى حمزة بعين ملؤها الغيظ المكبوت دون أن يتكلم

عميرة المخزومى ـ ماهذه الوحشية يا أبا عماره ؟ !

حمزه ـ هذا دون مايستحق الحكم بن هشام

فهد المخزومى ـ ولكن هذه لطمة لبنى مخزوم . ومتى ضرب فينا سيد ونحن شهود ؟ ؟

حمزه ـ لو علمتم جرم سيدكم لما أسرفتم فى الكلام

اصوات ـ هذا كثير !! والله لا نرضى به ابداً .

ثم حدث فى المسجد هرج وتشاد

فنهض أبو جهل واقفاً ليحول دون وقوع شىء . وإحدى يديه على رأسه يمنع بها نزف الدماء ثم قال : دعوا أبا عماره فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

حمزه ـ والله يابنى مخزوم إن النفس الأبية لترفض رؤية الضعف أمام الطغيان ، والوحدة الوديعة أمام الكثرة المستبدة . ولا يسعنى إزاء مايقع لابن أخى إلاأن أومن بماجاء به . وانضوى جنديا تحت لوائه ولتحشد بنو مخزوم قوتها فى طريق محمد ؛ وسنعلم من يكون الغد فى ركابه . . . ثم انصرف غاضبا . . .

ثم ساد المجلس صمت قاتم لم يقطعه إلا فحيح أنفاس زافرة وصدى أصوات تقول: خسئت وخسىء ابن أخيك.. ثم ساد الصمت مرة أخرى .

عميرة يهمس فى اذن عكرمة بن ابى جهل ويقول له

لقد فقدنا بفضل أبيك سيفا كان لنا بالأمس بتاراً !!

عكرمة يطأطىء رأسه ويزفر زفرة حارة ثم يميل على عميرة ويقول :

يظهر أن خلف هذا الرجل مقدورا لا بد من وقوعه فانا إذا تركناه تزايد خطره ، وإذا جاهدناه رقت القلوب الكبيرة له ، فأضافت إلى صفوفه قوات جديدة ، ولا ندرى وحقك ماذا نفعل به غدا .

* * *

سرى بمكة نبأ إسلام حمزة سريان الكهرباء ، فصعقت قلوب لوقعه ، ورقصت أخرى للحنه ، واشتدت سواعد المسلمين ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

واستشاط غضب قريش لهذا الحادث المفاجىء ولم يكونوا على استعداد لسماعه فى مثل هذا الظرف .

- ٣ -

« اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين »

حديث شريف

وأخذ زيد بن حارثة نوبته فى حراسة الباب وملاحظة ماعساه يحدث خلفه من خلال الثقوب ومراقبة الداخلين إلى دار «الأرقم بن أبى الارقم» حيث كان يجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه للبحث فى أنجع وسائل الدعاوة الاسلامية وانتشارها .

وبينما يقوم بدوره . كان لا ينى عن التحدث مع بلال الحبشى بين الفينة والاخرى مادام الجو هادئا والأمور تسير فى مجراها الطبيعى ثم نظر مرة من ثقب الباب ولكنه لم يعد كعادته بل أطال النظر وأمعن ، فراب بلال منه ذلك ثم تحركت فيه غريزة التطلع إلى المجهولات فقال له . ماوراءك ؟

زيد ـ انظر أليس هذا الرجل الطويل القامة العريض المنكب هو عمر ابن الخطاب متشحا بسيفه معتزاً بقوته يتحدث مع نعيم بن عبد الله فى حدة وغضب ؟ . إنه هو بلا شك وليت شعرى ما الذى أتى به صوب دارنا فى مثل هذه الساعة ؟

بلال ـ لعله نافر إلى ناديه عند دور آل عمر بن عبد الله بن عمران أو يمم شطر ذلك اليهودى الخمار يشرب منه حتى يعل (١) كعادته .

زيد ـ إنه غاضب الوجه ثائر النفس يهوى بيديه ، ويصك الأرض

---

(١) يعل : يشبع

بقدميه ، وكأنى به يعتزم أمراً إداً . تسمع إليه قليلا وانصت لبقية حديثه مع نعيم وحديث نعيم معه .

... وأين تريد .

عمر ـ أريد محمداً ذلك الذى فرق قريشا وعاب دينها وسب آلهتها ومزق روابطها فهجر الولد أباه ، وقاتل الأخ أخاه وعصت المرأة أهلها وفارقت الزوجة زوجها ، وصبأ العبد عن دين سيده وتمرد عليه . مما اضطر قريشا إلى البطش به وحمل هؤلاء المساكين على الهجرة ومفارقة الأهل والوطن !! إن قلبي ليتمزق حين أرى هؤلاء المساكين قد خرجوا إلى الصحراء هائمين على وجوههم إلى عالم من المستقبل المجهول . . أنظر : هذه أم عبد الله حثمة وزوجها عامر بن ربيعة — وهما من تعرف بنا صلة ورحما ـ قد شدا رحالهما إلى الحبشة على ناقة عجفاء يراودهما الموت ويراودانه وولدهما الصغير يبكى على كتف أمه وينتحب وهو بعد لما يزايل الظل الظليل والخير الوارف . فرجل هذا شأنه فى إحداث كل هذه الاحداث لابد أن أقتله لأريح قريشا منه وأنيم الفتنة بعد الايقاظ .

نعيم ـ والله لقد غشتك نفسك من نفسك ياعمر أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمداً ؟ . أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ،

عمر ـ يبق ؟؟ ماذا تقول ؟؟ يبيت بن الخطاب قد اعوج عوده . . التوى أمره . أم ماذا ؟ تتكلم . . وأى أهلى تزعم

نعيم ـ ختنك (١) وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة :

عمر ـ ماخطبهما وحقك ؟ لاتزد فى عذابى . . تكلم .

نعيم ـ قد أسلما والله

عمر ـ صائحا ـ ياللعار أسلما ؟؟ يالذل الأبد وشقاء الذكرى .

ثم ترك نعيما وآب إلى بيت أختـه غاضبا مسرعا بينما سقط زيد وبلال خلف الباب من شدة التهافت والاعياء لما شاهدا وسمعا وتخيلا أنه سيحدث ثم سمع بلال يقول فى صوت خافت يشـبه صوت المحتضر : لقـد انجاب عنا والحمد لله كابوس الشر .

وقطعت فاطمة قراءتها فزعة وقالت لأستاذها

صه ، فانى أسمع وقع أقدام ابن الخطاب .

فصمت (خباب) هنيهة . ثم قال هامساً لا شىء . . أكاد لاأسمع شيئا .

فاطمة (فى خفوت) : إنه خلف الباب ولعله كان يستمع إلينا ، فالى مخدعنا فاختبىء من جبروته

وما انقطع صوت المرتلين للقرآن حتى أيقن عمر أنهم أحسوا بوجوده ، فاقتحم الباب عليهما غاضبا وأخفت الصحيفة بسرعة تحت فخذها ثم قال لها

ماهذه الهينمة ؟ ؟

فاطمة ـ ماذا ؟ ؟ لا شىء .

فتغضنت عضلات وجهه ، وبرز أسفل فكيه ، وطوى راحته اليمنى فى شدة وأشاح بها فى وجهها مهددا وقال :

(١) الختن: زوج الاخت

لا . قد أخبرت أنكما اتبعتما محمداً . . . وقذف سعيدا بقبضة يده فى وجهه ، فنهضت فاطمة ووقفت بين أخيها وزوجها لتكفه عن إيذائه . فضربها الأخرى بقبضة يده فى جبهتها فشجها وسال الدم منها ، فأهاج ذلك شجاعتهما فقالا له :

نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ماشئت .

ثم راحت تنشج وتبكى والدم ينزف فيغطى وجهها ويغشى ثيابها .

وما ان سمع عمر بكاء اخته ورأى وجهها وراء نقاب من الدم ، حتى ذابت قسوته ، وانماعت غلظته ، ورق لها ، وحنا عليها . ثم دنا منها وربت على ظهرها يستغفرها ويمسح الدم عن جبهتها ووجهها ويستسمحها . ثم راى ان يتلمس منها مايتقرب به اليها . وكان قد ادرك حين قامت تذب عن زوجها امر صحيفتها ، فقال لها :

اعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون فيها . حتى انظر إلى ماجاء به محمد

فاطمة (فى صوت محزون) : إنا نخشاك عليها .

عمر ـ وحق اللات والعزى لأعيدنها بعد قراءتها سالمة

فاطمة ـ إنك نجس .. وهذا قرآن كريم لايمسه إلا المطهرون ، فان شئتها فقم إلى خلوتك واغتسل حتى أسلمها إليك .

فقام عمر إلى ماء فاغتسل ثم اسلمت اخته إليه الصحيفة فتناولها واخذ يقرأ أول سورة : « طه . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا ... الخ » . راح يقرأ فيها ويعيد مستملحا مستعذبا ، متأثرا مشدوها ، ثم قال

ما احسن هذا الكلام واكرمه

وماسمع «خباب» كلامه هذا حتى اطل براسه من خلف باب المخدع وقال ياعمر ، إنى والله لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته يقول :

« اللهم ايد الاسلام بعمر بن الخطاب او بعمرو بن هشام »

فالله الله ياعمر .

عمر - ويحك ! ! إنه صوت خباب ، إلى ياهذاوكن آمنا وتعال فدلنى على محمد أين يكون حتى آتيه فأسلم .

* * *

يا للفزع الأكبر .. هذا عمر يابلال .. قد يمم دارنا مرة أخرى كأنه موكل بازعاجنا طيلة هذا اليوم، ولكنه فى هذه المرة هادىء النفس ، ساجى الجوارح ، يسير الهوينا ويتكلم فى أناة ويشير فى تؤدة .. نعم هو متشح بالسيف . ولكنه بصحبة خباب بن الارت يتجاذبان فى أخوة ، ويتحدثان فى صفاء .. وعلى كل حال فانه يجب أن نخطر بأمره رسول الله.

فذهب بلال وأخطر رسول الله ومن معه بشأنه . . فصمت رسول الله وأطرق ، ونفرت الصحابة إلى سيوفهم يحملونها استعداداً لما عساه يحدث ثم صاح حمزه :

- أن ائذنوا له .. فان كان قدجاء يريد خيراً بذلناه له. وإن أراد شرا قتلناه بسيفه .

ثم أذن له فدخل ، ونهض رسول الله واستقبله فى منتصف الطريق

وأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة أشعرته قوته ، ثم قال له :

ـ ماجاء بك ؟ ؟ ما أراك تنتهى حتى يرسل الله عليك قارعة ! !

فاهتز جسم عمر رهبة، وأطرق رأسه استحياء . . وتراخت أطرافه ثم قال :

ـ جئت يارسول الله لأومن بالله ورسوله

رسول الله ـ صائحا ـ الله أكبر . . . الله أكبر . .

* * *

يا معشر قريش . . . الا إن ابن الخطاب قد صبأ . . .

صيحة ذوت فرددتها أجواز الفضاء فى مكة وتناقلتها الألسن فى كل مكان . واستقبلتها الأذهان بالدهشة والفزع . وتكتب الناس لها فى كل ندوة زرافات ومثنى يتساءلون ويستقصون . . .

ومر عمر ببعض النوادى فاسترعى انتباهه صوت من خلفه يقول :

هذا هو الصابىء .

عمر ـ كذبت . . . بل إن الله قد هدانى فأسلمت .

فاجتمع الناس حوله يناوشونه ويناوشهم . ويشادونه ويشاددهم . ويعاركونه ويعاركهم. حتى أصيب الجميع بالنصب والاعياء فدعوه إلى الجلوس فجلس بينهم فى مكان المحور من الدائرة ، فأخذ البعض يهمس فى أذن البعض الآخر والدهماء حولهم فى صمت. كأن على رؤوسهم الطير ينتظرون مايقضى به الموقف على عمر . ثم ابتدره أمية بن خلف قائلا :

ـ أسحرك محمد يابن الخطاب ؟ أم استهوتك أختك وخدعك ختنك

عمر ـ لا .. والله ليس بساحر ولم يستهوون، ولم يخدعني أحد. ولكن الله هداني

أبي بن خلف ـ وكيف يستطيع إهابك (١) أن يجمع بين ماضيك . بالأمس تعذب المسلمات بسوطك وجبروتك . ثم منعتك لهم وذيادك عنهم غدا ؟!

عمر ـ لقد مسح رسول الله على صدري ودعا لي بالخير والثبات. وعفى عني

أبو سفيان ـ ولكن محمدا يعاف الخمر ويحمل عليها . ومثلك من يكرع منها حتى يعل . فماذا يكون مصيرك . يوم تطوف أطيافها برأسك ؟

عمر ـ مطرقا ـ فلترق دنانها . ولتحطم قواريرها . ولتذهب إلى هاوية الجحيم . فانها ليست في الواقع إلا شر الفاسد والسفه .

وبينما هم كذلك في نقاش مستمر . وتحد مستعر . وإذا بالعاص بن وائل يفد عليهم في مجلسهم تحت زوبعة من الجلبة والضوضاء . فساءلهم

ـ ماخطبكم ؟

الاسود بن يغوث ـ لقد صبأ اليوم عمر

العاص ـ مه . . هذا رجل قد اختار لنفسه أمرا . فماذا تريدون منه ؟ ؟ ! ! أترون بني عدى يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟! خلوا سبيل الرجل ودعوه لشأنه . فان لهذا الأمر مابعده .

* * *

وفتح أبو جهل باب منزله على أثر قرع عنيف ليعرف من الطارق . فألفاه عمر بن الخطاب فحياه أحسن تحية ورحب به أجل ترحيب ثم قال له

---

(١) الاهاب : الجلد.

مرحبا يا ابن أخى .. ما جاء بك ؟

عمر ـ جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله ورسوله وصدقت ماجاء به

ولم يكد عمر يتم كلامه حتى انصفق البـاب عاليا خلف أبى جهـل . فدوى صوته رهيبا فى الدار وما حولها . ولفت ذلك أنظار المارة فوقفوا يشهدون ما يمكن أن يأتيه الجبار عمر . . .

وقف عمر أمام الباب الذى وصـد فى وجهه وفكر مغضبا . وطال التفـكير ثم ذكر أن الذى فعل ذلك أبو جهل عدو من أعداء الدعوة الاسلامية . وأن فى غضبه وتواريه رضاء من الله . وعجزا وهزيمة له . وأن فى إغلاق هذا الباب . إغلاقا لباب الغى والشرك . . ثم نظر عمر إلى السماء . فاذا هى مضحية ضاحكة ساجية . وكأنها مرآة السكينة والسعادة قد انعكست أشعتها على صدره . فتنفس الصعداء مرتاحا . وابتسم منشرحا وعاد إلى رسول الله . وفى قلبـه من حلاوة الايمان وبشاشة اليقـين . مالا يحمله إلا قلب عمر



الدور الهام الذى قام به اعجاز القرآن

بين العرب فى سبيل الدعوة الاسلامية

١

« ومن آياته الليل والنهار والشمس »
« والقمر، لا تسـجدوا للشمس ولا »
« للقمر . واسجدوا لله الذى خلقهن »
« إن كنتم إياه تعبدون »

قرآن كريم

توارت الشمس بالحجاب . وخلفت وراءها عالما فاغر الفم حزينا . لا تدرى أمن وحشة الليل أو جفوة الفراق . لولا أن ذيولها الحمراء وقفت فى أثرها تلوح للكون براية الوداع . فتخفف من وقع البعد وتعزى بأوبة ولقاء ... ولف المساء جثمان مكة بثوب من الظلام . وبدأت رحمة الطبيعة ترسل اشفاقها على الـكون من عيون النجوم لامعة براقة فتتكشف أفنيـة مكة وابنيتها تحت حراسة الجبـال قائمة فى صف كالمردة ، يهتـدى على بصيصها السادرون الى بيوتهم ، والقاصدون الى دار الندوة تلبيـة لدعوة أبى جهل بن هشام . للنظر فيما استحالت اليه دعوة رسول الله من القوة والانتعاش ثمرة إسلام حمزة بن عبد المطلب أحد كبار الصناديد من بنى عبد مناف .

وامتلأت دار الندوة بالسادة والاشراف من قريش وغـيرها وكانوا لفرط أحزانهم كأن كل شخص منهم فى دائرة على انفراد غارقا فى محيط من التفكير العميق يتوارد على ذهنه شتيت من الصور وتتلاحق أمام عينا

شواخص المستقبل وأبطاله فى وضع مخيف ، كلما أزعجه فصل من روايته فزع ورجع فجأة الى الوراء ... ثم يطمعه تمهيد لفصل آخر قد تكون آثار الهزيمة غير بارزة فيه فيعود إلى طبيعته حتى. اذا سمع تكبير النصر وعويل الهزيمة وولولة الفارين ورأى غبار الفوز . عاد فجأة الى الوراء فزعا مبهوتا . حتى خيل للخدم والعبيد أن سادتهم قد أسلموا جفونهم لراحة الكرى تعبث بهيا كلهم وتداعب عما ئمهم. أوان نشوة الخمر تلعب برؤوسهم فتارة فى صحو وأخرى فى غيبوبة واسترخاء . فينظر بعضهم الى بعض ، ويتبادلون ابتسامات العجب والدهشة والحذر . . وكأن ذلك السراج المتهافت المترنح فى زاوية المكان يمثل فى هذه الحالة. معنوية هؤلاء . وما هم عليه من حيرة وضعف واستسلام .

ثم دخل عليهم عتبة بن ربيعة فجأة وصاح بهم. فاستفاقوا فى هزة واحدة ثم شخصوا إليه . وهم سكوت كأنهم صورة لبعض التلاميذ أمام أستاذهم فى مدرسة لمحاربة الأمية ثم قال :

محمد فى المسجد يا معشر قريش . فان شئتم عرضت عليه أموراً ، فاذا قبل بعضها أعطيناه أيها شاء حتى يمكن أن يكف عنا ويرعوى عن سب آلهتنا . وتسفيه أحلامنا . .

أبو جهل ـ أتحدثه هكذا من عند نفسك يابن ربيعة دون أن نتفق على رأى معين

عتبة ـ ومتى تتفقون وقد شدت جفونكم بأسباب الفضاء ، ونامت ألسنتكم وأفواهكم كأنكم فى إغماء ؟ ؟

أبو سفيان ـ إن وقع المصاب أذهل الصحاب

عتبة ـ أى مصاب ؟

أبو سفيان : أى مصاب ؟ اسلام حمزة بن عبد المطلب فارسها المغوار ومسددها الكرار .

عتبة ـ الاعتدال فى كل شىء حكمة وأبو الحكم قد تطاول على محمد حتى زايل المعروف وزاد على المألوف وإن للدم فى النهاية حنينا وتجاذبا وللانسانية بعد القرابة بقية نصفة .

عبد الله بن أمية ـ دعونا الآن من هذا الشرح وانظروا فى خطبكم

نبيه بن الحجاج ـ أرى ان وجود محمد فى المسجد بالقرب منا فرصة ننادى بانتهازها . وما عساه يكون موضع اجماعنا معروف . فأى مطمع لرجل يحمل على قومه كل هذه الحملة اكثر من أن يكون له فيهم امرة ، أو يدخر دونهم ثروة ؟؟ ألا يكون ممن يتخبطهم الشيطان من المس . فاعرض عليه شيئا من هذا فانا لا ندرى أيكون بيننا غدا أو يكون مشغولا بمخاطبة السماء ! !

ضحك ومرح فى المجلس

العاص بن وائل ـ ستضحكون كثيراً وتبكون اكثر

السهمان بن خلف ـ إذهب اليه وفاوضه عنا فى ذلك ونحن فى انتظار النتيجة .

أصوات ـ نرجو لك التوفيق يا أبا الوليد

دخل عتبة بن ربيعة المسجد على رسول الله فألفاه يصلى فانتظر حتى

أتم صلاته ثم ناشده

ـ السلام عليك يا محمد

رسول الله ـ وعلى المؤمنين السلام

ثم قال له :

يابن أخي انك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها

رسول الله — قل ياأبا الوليد

عتبة ـ يابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الامر مالا . جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منا مالا . وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا (١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فماذا ترى في ذلك ؟؟

رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وشخص إلى عتبة بن ربيعة وقال له

أفرغت ياأبا الوليد ؟

عتبة — نعم يابن أخي

رسول الله — استمع مني إذن ماأقول

فرجع عتبة بظهره إلى الوراء واعتمد على ساعديه من خلف وصعد

---

(١) يقصد به جنيا يلاحقه

بصره صوب رسول الله (ورفع حاجبيه وجعد جبهته وحدد ذهنه فى شغف إلى ماسيسمع من رسول الله جوابا له) وقلبه معلق بين جناحي الخوف من الرفض والامعان فى الدعوة وبين الرجاء فى أن يلين جانبه ويوطىء كنفه فيكون له الفضل فى أن تضع هـذه الحرب أوزارها ، ويكون مؤذن السلام بين محمد وقريش . قال

إيه (١) يابن أخى

رسول الله — بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمـل اننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى انمـا إلهـكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة . وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعـة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سـموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم : فان أعرضوا فان أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم

---

(١) زدنى من حديثك

ألا تعبدوا إلا الله قالوا لوشاء ربنا لانزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون إلخ .

سمع هذا عتبة بن ربيعة وكان أول ما سمع متكئا على ذراعيه من خلف وكلما أحس بأثر القرآن فى نفسه ووقعه على فؤاده اعتدل رويدا رويدا حتى رسم ظهره نصف دائرة وظل مطأطئا رأسه يستمع للقرآن يبشر وينذر ويعنف ويحذر حتى انتهى رسول الله فى قراءته إلى قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) .

فسجد رسول الله ثم سلم عن يمين وشمال فرفع عتبة وجهه شاحبا مكفهرا ورد على الرسول السلام ثم قال له النبي

هل سمعت يا أبا الوليد

عتبة — لم تسمع أذنى ولكن سمعت كل فلذة فى جسدى ثم ستأذن وانصرف .

« * »

دخل عتبة بن ربيعة على قريش وهى ما تزال مجتمعة قلقة راجية مطمئنة منزعجة . شأن من ينتظر الفصل دائما فى أمر خطير فألفته يحمل وجها غير الوجه الذى ذهب به . ثم جلس مطرقا تحت عبء من الهموم ثقيل . ولعله كان حائرا بين عاطفتين تتنازعانه . الأولى عاطفة المحافظة على علاقته بقومه وزعامته فيهم . والثانية عاطفة الرضا عما سمع من محمد رسول الله .

ولكن أبا جهل قد سئم الانتظار ومل الصمت فصاح بعتبة أن

ـ تحدث .. فماذا دهاك وماخطبك ؟بل ماوراءك ياأبا الوليدفاعتدل

عتبة فى جلسته ثم شخص إلى وجه أبى جهل وأراد أن ينحنى عائدا إلى

اطراقته فصاح به أحدهم

ـ ماخطبك يا أبا الوليد تحدث ؟

عتبة ـ أتريدون أن أتحدث

أصوات ـ على أحر من الجمر

عتبة ـ لقد سمعت والله قولا ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر،ولا

بالسحر ولا بالكهانة .

امتعاض وجلبة فى المجلس .

عتبة يواصل كلامه قائلا :

ـ يامعشر قريش . أطيعونى وأجعلوها بى . وخلوا بين هذا الرجل

وبين ماهو فيه . واعتزلوه . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ

وخطورة . فان تصبه بقية العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب

فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به

صوت ـ حسبنا . . حسبنا . فنحن فى غنى عن رشدك ونصيحتك

فأطرقت رأس أبى جهل وأخذ يحدث نفسه وهو يقلب كفا على كف

فسمع قائلا يقول :

ـ والله لقد سحره محمد بدوره .

عتبه ـ هذا وأبيك رأيى فى محمد إن كان لرأيى محل بينكم

زمعة بن الاسود ـ محتدا ـ كفى يارجل أليس فينا رجل رشيد ؟
عتبة ـ اصنعوا به ماشئتم فأنتم طلقاء
النضر بن الحارث ـ اشهدوا أن هذا الرجل ساحر
زمعة ـ لا . . لا بل هو كاهن .
نبيه بن الحجاج ـ أقسم انه ليس إلا شاعراً
عبد الله بن أبى أمية ـ لا . . بل إنما يعلمه بشر من اليمامة
أبو سفيان ـ ليس هذا مربط الفرس . بل صفوه بما شئتم وإنما كيف نجاهده وندفع عنا شره قبل أن يسقط فى أيدينا
نبيه ـ من الخطأ يا أبا سفيان أن تصف الدواء قبل معرفة الداء وإلا كان عملنا خبط عشواء
أمية بن خلف ـ لو أننا صنعنا ذلك أول الأمر لما رجع عتبة بصفقة المغبون .
عتبة ـ هاتوا ماعندكم من جديد واعرضوه عليه مرة أخرى
الأسود بن عبد المطلب ـ على ألا يذهب إليه واحد بمفرده حتى يتعذر انتصار محمد على الجماعة
عتبة ـ ليس الأمر أمر فرد وجماعة وإنما الأمر كل الأمر هو مايلقى عليه من أسئلة
أبو جهل ـ لا أريدها أسئلة يمكنه الرد عليها ، بل أريدها إعجازا وإحراجا يفيض عن طوق الثقلين
عتبة ـ وإذا أجاب رغم هذا على ما تطلبون ؟

أبو جهل ـ لن يستطيع ذلك أبدا وسترى

عتبة ـ ولو فرض المستحيل وتم . فكيف يكون المآل ؟

أبو جهل ـ يكون هذا محل بحث آخر

عتبة ـ ابحثوا إذن مطالبكم وافلوها

أبو سفيان ـ يجب أن تؤلف جمهرة من عتبة بن شيبة ونبيه بن حجاج ومنبه أخيه والحكم بن هشام والعاص بن وائل لوضع هذه المطالب حتى إذا أعدت عرضت على القوم فى ندوة أخرى

أصوات ـ مرحى . مرحى .

أبو سفيان ـ عمو مساء فقد كاد الليل أن ينتصف

*

٢

« مابى مما تقولون شيئا وماجئت »
« بما جئتكم به اطلب أموالكم ولا »
« الشرف فيكم ولا الملك عليكم . »
«ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل»
« على كتابا وأمرنى أن اكون لكم »
« بشيرا ونذيرا » حديث

الطريق وعر ، ينخفض أحياناً فى تواضع . ويرتفع أخرى فى عزة وأنفة ، وعلى حافتيه وقفت ولائد الصخر قائمة على الطريق . شاهدة على أمنه من التيه .. وأشراف قريش وسادتها فى طريقهم الى الكعبة . وكأنهم فى عمائمهم وثيابهم البيض تحت ضوء القمر ، حرجة(١) لفها الطقس بلفائف الثلج . وفى صعودهم وهبوطهم . موكب من الزوارق بين يدى الامواج ، وفى همسهم فى آذان بعضهم البعض . سعف النخل (٢) لعبت بها أيدى الرياح فمال بعضها على بعض فى حفيف وتعاطف . والناس على طول الطريق تمايل وتتساءل عن سر هذا الموكب السارى من أشرافهم صوب الكعبة . تعلو وجوههم علائم الجد . وتزيد فى صمتهم رهبة الليل . فكأنهم أشباح متحركة أو أطياف حية لا يدرى الحالم ماذا ترمز اليه . ولا ما تحمل من

---

(١) مجموعة أشجار (٢) الجريد

أسرار . وهناك على مرمى البصر من الكعبة . يشاهد الرائي رجلا طويل القامة عريض المنكبين ضخم الرأس تدلت على منكبيه غدائره (١) وقد قبضت يده اليمنى على يده اليسرى خلف ظهره وأخذ من مكانه مرتاداً يمشي فيه ذهبة وجيئة يطلق يمناه أحياناً ليشير بها هنا وهناك، ثم يدنيها من صدغه ويقف هنيهة متأملا منزعجاً كأنه يخاطب شخصاً آخر مغيظا منه حانقاً عليه . ثم يعود ثانية لاعتقال يده اليسرى خلف ظهره . ويواصل ارتياده ثم يعود ثالثة . فيقف على صخرة عالية . ويضع راحته فوق عينيه ليحجب أشعة القمر عنها ويرصد الطريق الذاهب الى داخل مكة قلقاً على تأخر القادمين . حتى اذا شاهد غباراً تسير تحته دوائر العمائم البيضاء صاح قائلا

— يا لقريش

أصوات — جادك الغيث يا أبا الحكم

أبو جهل — أزعجتني والله غيبتكم

نبيه بن الحجاج — لا أزعجت على حبيب يا أبا عكرمة

استقر المكان بالمؤتمرين . وعاد اليهم بعض الراحة في فيء (٢) الكعبة ويدأت أثقال المهمة التي اجتمعوا لها تبرز الى عالم الحقيقة . بعد ان كانت قد فارقتهم في لحيظات التلاقي والتسليم . فعادت الدماء الى حرارتها وسرعة تفاعلها . والاعصاب الى يقظتها وارهاقها . وفجأة أطلق أبو جهل الشرارة الاولى وقال

---

(١) ضفائر الشعر (٢) الظل ليلا

اجتمعت (الجمهرة) ووضعت من القواعد ما يكفل إحراج محمد فأرسلو في طلبه الآن

شيبة بن ربيعة — ولكن الغرض من إحضاره لا يصح أن يكون مجرد إحراجه ومخاصمته

نبيه بن الحجاج — طبعا ليس الغرض هو المخاصمة المحض والاحراج وانما يكون الالتجاء عند الضرورة

شعبه بن ربيعة — وأية ضرورة تلجىء إلى المخاصمة والاحراج ؟! إن كنتم أصحاب حق فاقنعوه به . وإلا فدعوه .

أبو سفيان — أراك يابن شيبة تحابى هذا الرجل وتنتصف له ولا أدرى لهذا من سر !!

الحكم بن هشام — اعذروه فما لامس هذا الرجل إنسان حتى عاد بعقل غير الذى ذهب به

شيبة بن ربيعة — ولعل هذا من قوته وتأثيره على نفس مخاطبه

الحكم — شأن كل ساحر .

شيبة — والله ماهو بساحر . وانه يتحدث بما لا يقدر عليه لسان بشر

الحكم — لم نجتمع لمثل هذا الهزر الصقيع . يابن ربيعة ! !

شيبة — أرجو ان تحترم وقارى ومكانتى . كما أرجو ان يحترموا عقولكم، واجتماع كهذا لا يصح ان يكون الغرض منه مجرد الكيد والمخاصمة وإلا فلسنا عجزة عن وضع حد لاعمال هذا الرجل

عتبة بن ربيعة — هذا منطق معقول وإلا فلا فائدة من هذا الاجتماع

أبو جهل — وهذا الآخر ينتصر لأخيه بدوره .
شيبة — ولا هذا أيضا ما اجتمعنا لأجله .
عكرمة — دعونا من المناقشات حول هذا الموضوع قبل ان يستفحل أمره . وأرسلوا لنا فى طلب الرجل
الحكم — ليذهب اليه صديقه شيبة ابن ربيعة !! فقد هام بحبه وشغف بقرآنه .
أبو سفيان — كانك تريد أن نخسر شيبة الى الابد !! اذا كانت جلسة واحدة قد أحدثت فيه كل هذا الاثر . فكيف به اذا تكررت الجلسات ؟؟ !!
عكرمة — ليذهب اليه واحد من هؤلاء السود . فترتفع نفس محمد عن مخاطبته . بينما لا يطمع العبيد فى مصاحبته
نبيه بن حجاج — يالك من أبله !! ومتى ترفعت نفس محمد عن استمالة الخدم أو العبيد . ومن حمل دعوته الى أعماق المنازل والنوادى غير هؤلاء مدفوعين بحب من وطأهم من كنفه ، ونزل الى سواء مجالسهم
زمعة بن الاسود — إذن ليذهب اليه أكثر من واحد . وليكونوا من السادة المعروفين بقوة العارضة
عبد الله بن أمية — قد يكون هذا تعظيما لشأنه وتكريما فى نظر الدهماء (١)
شيبة — لقد حار بنا والله المقام ! !
لا تريدون رسلكم عبيداً حتى لا يكونوا موضع تأثيره !! ولا سادة ، حتى

---

(١) العامة من الناس

لا يكون ذهابهم موضع تكريم لمحمد ! !

النضر بن الحرث — دعونى أذهب اليه وحدى .. ولتفعل الظروف بى ماتشاء

***

وقف النضر بن الحارث أمام منزل رسول الله بعد أن طاف به مرات وكأنه يحدث نفسه قائلا

أيطلع الملك من هذا المنزل الصغير وتطل العظمة من هذه الكوى الضيقة . وينبعث النور من هذه الظلمة القاتمة . أيكلم محمد ربه فى السماء من تحت هذا السقف ! ! ويخرج الشر زاحفاً من هذا الباب إلى صفوف قريش فيمزق وحدتها . ويفرق كلمتها !!

ليس هذا البيت بالمعسكر تصهل فيه الخيل وتلمع فيه السيوف . ويكسو بياضه سواد الجيوش فنعد له عدته . ولا محمد بالقوة الخفية فنقول إنما هو جنى أو ملك لا قبل لقوة البشر به ؟! وإنما هو فرد لا يحمى ظهره الا بنو عبد مناف لصلة الرحم . لا لصلة دعوته بهم . ولكنه أحدث كل هذا الانفجار، وأزعج الصغار والكبار . وجعل مكة وماحولها أوارا ونارا . إذن لا بد وأن يكون وراء هذا قدر لا رد له ولا عثار

وهل لمثلى أن يقف على بابه ؟؟ هو باب ككل الابواب صنعت وحداته من أعجاز النخيل . وضمت أجزاءه الدسر (١) المسننات . ولكن يظهران خلفه رجلا ذا شأن خطير . اجتمعت لخطره قريش فى شيوخها وسادتها . وتصدت له بالأمس صناديدها وقواتها فما فلت من غربه ولا ثنت من عزمته

(١) المسامير

وهل اذا لقيني ولقيته أعود بعقلى إلى قريش . أم أتركه معه ؟ لست أعظم من شيبة ابنْ ربيعة شأنا ولا أوفر ذ كاء . ولا أقل تمسكا بدين الآباء والجدود . ولكنه عاد إلى قريش بغير قلبه الذى ذهب به . وعاطفة غير التى راح بها ، ورجع بما ألب عليه سخط البعض وبغض البعض ، وهزء الآخرين

ولكن ماذا يجدى بعد كل هذا الذى يدور بخلدى. ها أناذا أمام منزل الرجل. بل إنى أمسيت منه على صدى الصوت والقوم فى انتظارى . والوقت يمر سريعاً والقلق دائما يلازم المنتظرين ، فعلى أن أناديه ولتفعل المقادير بى بعد ذلك ما تشاء

دق النضر بن الحرث باب رسول الله دق المرهوب من جلال الموقف وطيوف الذكريات . ثم عاد فنادى فلم يجبه غير صدى صوته من أعماق السكون. ثم تسمع لصوت ينبعث من فروج الباب بعيداً فى قرب ، هادئا فى رهبة . متسقا فى لحن . حنونا فى بكاء . فأرهف سمعه نحوه . وتداخل فى الباب حتى ليكاد ينفذ من بين فروجه الضيقة. واعترته هزة مرعشة فأدرك أنه لا بد مصيبه ما أصاب شيبة بن ربيعة . غير أنه سيخسر قومه ويفقد مكانته فغالب نفسه . وقاوم شعوره . وحمل على الباب حملة عنيفة سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو هائم فى تلاوته فقال :

— من بالباب

النضر بن الحارث — رسول قريش إليك يا محمد

رسول الله — رسول قريش ؟؟ أثابت قريش الى رشدها حتى أرسلت

إلى فى مثل هذه الساعة ؟ اللهم حقق آمالى فى قريش . واهد قومى فانهم لا يعلمون

وخرج رسول الله الى الطارق مسرعا . وبهاء الفرح يفيض من وجهه وأشعة السرور تطل من عينيه فسلم على النضر بن الحارث ، ودعاه الى الدخول فصمت حائراً بين الخوف من لدخول لئلا يصيبه ماأصاب شيبة ابن ربيعة ، وبين الحنين الى خلوة مع رسول الله لعله يصل معه الى مالم يصل اليه سواه ، وأخيراً غلب الرفض على الدخول بعد ان طالت غيبته على قريش فارتدى رسول الله عباءته وصحبه الى حيث اجتمعت قريش و ابتدرهم قائلا

ـ عموا مساء يابنى قومى

أصوات ـ عم مساء يابن عبد الله

ـ عبد الله ابن أمية ـ يامحمد . إنا قد بعثنا اليك لنكلمك . وانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسببت الآلهة . وسفهت الاحلام . وفرقت الجماعة . فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك . فان كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا . فنحن نسودك علينا . وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا(١) تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك

---

(١) جنيا

رسول الله — مابى مما تقولون شىء وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالات ربى فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة. وان تردوه على، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم

أبو سفيان — وإن كنت غير قابل منا شيئا يامحمد مما عرضناه عليك . فانك قد علمت أنه ليس فى الدنيا ماهو أضيق من بلدنا ولا أقل ماءا منه . ولا أنكد عيشا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به . فليذهب عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا سهلة ذلولة . وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث قصى بن كلاب فانه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل . فان صدقك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله . وأنه باعثك نبيا ورسولا كما تقول :

رسول الله — مابهذا بعثت ياأبا سفيان وإنما جئتكم من الله بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم. فان تقبلوه فهو حظكم من الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر ، لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم

أبو جهل — وإن كان لا يرضيك هذا ولا ذاك فخذ لنفسك شيئا . وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك . بل سله يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة لتعينك فى مهمتك التى تبتغى فانك تقوم فى الأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى

نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت كما تزعم رسولا

رسول الله — ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه مثل هذا . وما بعثت اليكم بهذا . ولكن الله بعثنى بشيرا و نذيرا . فان تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة . وإن تردوه على، أصبرلأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم

العاص بن وائل — بل أسقط علينا كسفا من السماء فانا لن نؤمن بلك حتى تنزل علينا فتحرقنا !

رسول الله — هذا إلى الله إن شاء يفعله بكم . فعل

أمية بن خلف — يامحمد . أيعلم ربك أننا سنجلس معك هذا المجلس ونحاسبك هذا الحساب ؟

رسوله الله — نعم . يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور

أمية — ولماذا إذن لايمدك بما تسأل فيه . ويعلمنا ما تراجعنا فيه . ويخبرك بما هو صانع فى ذلك ؟

أبو سفيان — مقاطعا أمية بن خلف — الحق انه قد بلغنا إنما يعلمه رجل باليمامة يقال له الرحمن . وانا والله يامحمد لن نترك دين الآباء لنؤمن برحمانك أبدا .

ابوالحكم — ولن نتركك وماتبلغ حتى تهلكنا أونهلكك أو تأتى بالله والملائكة قبيلا

وما سمع رسول الله ذلك حتى غادر المجلس وذهب إلى بيته مطرق الرأس أسيف البال. على ماتقدم به قومه اليه من صنوف الاحراج، ثم أحس

بوقع أقدام تتابعه . ثم عرف أنه عبد الله بن أمية فظن أنه الثمرة التى خرج بها من هذا النقاش . ولكنه عاد إلى ظنه يراجعه ، وكأنه يحدث نفسه قائلا :

انى لم أحقق من رغبات قريش شيئا حتى أكون قد استطعت أن أكتسب من المعركة واحدا . ولم أدفع أمامهم بمعجزة تنال من جموح أحد فيهم . وموقفهم منى وإن كان موقف تعنت وإرهاق . إلا أن موقفى أيضا كان سلبيا إلى حد ما . إذن فهذا الرجل الذى يتبعنى وإن كان ابن عمتى إلا أنى لا أعتقد أنه أخو هداية أو ربيب اقتناع

ثم مضى لا يحدثه ولا ينظر إليه فدنا منه صاحبه ثم قال له :

يا محمد . عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم . ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك عند الله ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل . ووالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أشهد ذلك منك ، حتى إذا وصلتها فأتنا منها بصك وقع عليه أربعة من الملائكة يشهدون أنك رسول الله ولو أنك فعلت ذلك فوأيم الله لا أصدقنك

ثم انصرف . . . ومضى رسول الله إلى منزله حزينا

***

أخذ عبد الله بن أمية طريقه إلى قريش فى مجتمعها فسمع على البعد جلبة وضوضاء صادرة عنهم . هذا يقهقه كالقرد . وذاك يصيح كالثمل . وثالث يمثل خطيبا فيقاطع بالتصفيق استحسانا أو سخرية أو مزاحا ، ثم دخل عليهم عبد الله وهم كذلك كأنهم فى إحدى الحانات أو دار رقص أو فى مستشفى الامراض العقلية . إلا أبو جهل الذى ظل محتفظا بصمته غارقا فى تفكيره .

ولم يكن أبو سفيان أقل منه وجوما . ولا أكثر تفكيرا . فصاح بهم قائلا علام كل هذا الهياج . ولماذا كل هذه الضجة ؟؟ .

نبيه بن الحجاج — على هذه الشبكة التى أحكمنا حلقاتها حتى ألقت بالصيد بين يدى الصياد ! .

أمية — أين هذا الصيد وأين غنيمة الصياد ؟ !

نبيه — أنت لاتنكر يا أمية أنها كانت حملة لها مابعدها . واحراج شفى بعض مانحمل لهذا الرجل من غل وحسد

أميـة — هذا صحيح . ولكن المرض لا يزال يقض المضجع ويؤرق المريض . فهل انتهى محمد إلى غاية . أو وقفتم معه على نهاية أو وصلنا معه إلى حلف يحدد موقفه منا أو موقفنا منه ؟ ! لا هذا ولا ذاك . إذن فعلام هذا الضجيج ؟

شيبة — وإذا كنا قد ربحنا من محمد موقعة فقد خسرنا مواقع . على أن معركته لم تربحنا شيئا . أما معاركه فقد أربحته الكثير وهاهى آثار دعوتنا فى كل بيت من بيوتكم

نبيه — حسبنا أن ينكفىء إلى أهله الليلة محسوراً محزونا .

شيبة — ولكنه غدا سيلتهم كل شىء . ونبيت نحن طوال حياتنا حزانى محسورين

أبو جهل — محتـدا — لا كتب على قريش شىء من ذلك أبدا ، ياقوم إن محمداً قد أبى علينا إلا ماترون من عيب ديننا وسب آلهتنا . وانى أعاهدكم وأعاهد الآلهة على أن أقضى عليـه . وسأتربص له بحجر لا أطيق

حمله غدا . حتى إذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ثم لكم أن تسلمونى لبنى عبد مناف . أو تمنعونى منهم

شيبة — كأنكم ستعلنون الحرب غدا على بنى عبد مناف بهذا الحادث

أبو سفيان — إن بنى عبد مناف لا يرضيهم كل هذا الذى يتحدث به إلى الناس طعنا فى ديننا وأحلامنا وآبائنا . فديننا دينهم وأحلامنا أحلامهم ووشيجة الرحم تربط بين الجميع . وأكبر ظنى أنها لن تمنعه فى هذه المرة وقد طال به الغرور وتمادى به حبل الاصطبار

شيبة — يظهر أننا سنقع فى وهدة (١) الامس . وستلازمنا نفس النتائج . وندفع لها نفس الثمن الذى دفعناه . فبالامس تلاحيت يا أبا جهل مع محمد . فكان من ثمار ذلك إسلام حمزة وأنتم تعرفون من هو حمزة . وما مقدار الخسارة التى خسرناها باسلامه . والليلة تريدون قتله ولا ندرى كم يكون الثمن الذى ندفعه غداة ذلك

عبد الله بن أمية — ومن الذى سيسلم فى هذه المرة على قبره ؟ !

نبيه — لا يبعد أن يحمل رايته من بعده أبو بكر أو عمه حمزة أو ابن عمه على ابن أبى طالب . بعد أن يأخذ بدمه بنو عبد مناف

أبو سفيان — ان محمدا يكلم السماء . وينزل عليه قرآنه كما يزعم . ولم يدع واحد ممن ذكرت أسماءهم لا آن مثل هذه الدعوى ، فاذا مات محمد وقام واحد يدعيها منهم كان مكانه فى هذا الادعاء بارز الكذب . لامع الافتراء . فاذا قام بنو عبد مناف يطلبون دمه فليأخذوا من دمائنا ماشاءوا

---

(١) المكان المنخفض

حتى يعلوا (١) منها ماظمئوا ضحية للآلهة وقربانا ، وانقاذا لكرامة الآباء وعقول الابناء

الحكم — سأفعل ذلك مهما دفعنا من ثمن وليرفع راية محمد من شاء من أتباعه بعد أن نضرب لهم الأمثال . ثم نشير لهم إلى قبر صاحبهم ونهايته .

ثم ساد المجلس بعد ذلك صمت حزين ووجوم قاتم . ثم قام كل إلى منزله وهو غارق فى عالم من الوهم . وسحابة من الظلام رغم ضوء القمر . كأنهم أحجار الشطرنج سرت فيها الحياة . لعظم مايبتوا لمحمد وهول ما تراءى لهم فى أفق المستقبل القريب . ومن منهم سيكون بين الضحايا ومن كتبت له السلامة وطول البقاء .

---

(١) يشبعوا

٣

« سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر »
« الاول ماذا كان شأنهم العجيب . »
« وعن رجل طواف قد بلغ مشارق »
« الارض ومغاربها ماذا كان نبأه . »
« وسلوه عن الروح ماهى . فان »
« أجابكم عن هـذه الثلاثة فانه نبي »
« مرسل واتبعوه . والا فهو تقول »
« وافعلوا به ماشئتم بعد ذلك »

احبار يهود

سرت أنباء المؤامرة على قتل رسول الله سريان الكهرباء . رغم شدة الكتمان فطلع الصباح على مكة وكأنها وادى القردة. يتحدثون بالاشارات ويتفاهمون بالنظرات . ويتهامسون فى فحيح. ويتعثرون فى دقيق الحصباء . كأن الفزع قد جلس على ألسنتهم . واستولى على أعصابهم

وأضحت الكعبة محل أنظار الكثيرين من الاشراف . ممن اختبأوا فى الحوانيت والأندية الواقعة حولها ، وأرسلوا عيونهم عن بعد يشهدون مصرع محمد دون أن يغمسوا أصابعهم فى دمه . وكأنهم وهم حولها هدف لتعليم الرماية . أو معبودة فاتنة أخذ الكل يدرس محاسنها . ويستشف

جمالها أو صنم جلس الجميع حوله يتبتل بالنظر اليه

وغدا رسول الله الى مكانه الذى اعتاد الصلاة فيه بين الركن اليمانى والحجر الاسود . فاحتدمت الدماء حارة . ورمته العيون بالشرر . وغلا عليه مرجل الحقد. واشتد ضغط الاسنان حتى سمع أزيزها ، ثم جاء أبو جهل فهشوا له لاهثين . وبشوا زافرين . وتبادلوا لغـة اللحاظ . وتراسلوا عن طريق الحواجب . ثم شجعوه بقبضات أيديهم فى الفضاء . وشاركوه بمجموعة من هزات رؤوسهم فى الهواء

ثم دار أبو جهل على كعبه باحثاً عن أضخم صخرة ترفعها يداه . ليحقق بها وعده ومبتغاه . ويدفن تحتها أشد العداه . فتفقد الارض هنا واستعرضها هناك . ثم هبط فى منخفض . واعتلا ظهر ربوة . ثم أشار بأصبعه على صخرة كبيرة وقال .

هذه ضالتى ..

ثم طاف حولها . وسبر ثقلها . ثم انحنى عليها وعالجها حتى رفعها وسار بها فوجفت قلوب النظارة بمزيج من الفرح والاضطراب . وبهرت الانفاس لقرب الخلاص من عدوهم والخوف مما وراء المصاب . وغالبت صفرة الرعب حمرة الانتصار القريب فهزمتها . فأضحوا أحيـاء يحملون وجوه الموتى ، وكان كلما دنا أبو جهل من رسول الله تخاذلت سيقانهم ، وغارت عيونهم ، ولما دنا من رسول حتى لم يكن بينهما إلا ذراع. جفت حلاقيمهم . ودارت الارض بهم وتهافت بعضهم على بعض وأغمض بعضهم جفنيـه اختياراً أو اضطراراً ، حتى لا يرى هذا المشهد الفظيع . وضرب البعض الآخر بأيدهم

صفحة الفضاء تشجيعاً لحامل الصخرة .

وكم كانت الدهشة عظيمة حينما شاهد المجترئون وأبصر المغمضون ، على رؤية أبي جهل وقد تراجع عن موقفه فجأة . ثم سمرت قدماه في مكانه وارتعدت فرائصه . ويبست ساعداه بما يحمل . وشحب وجهه ومات لسانه وشدت أهدابه بأسباب السماء . حتى خيل لقريش أنه قد أدركته نوبة تصلبت لها أعصابه . فقاموا اليه يتبينون أمره فألفوه تمثالا صامتاً . فألقوا عنه صخرته . واحتملوه الى ناديهم وهو بين صحو وإغماء . ثم جلسوا جلسة النادبات حول ميت مسجى هذا يستنطقه . وذاك ينظر اليه في حسرة وحزن . وثالث يسائل صاحبه عما دها أبا جهل . والناس تتوارد في سلسلة متتابعة ، للتساؤل عن الخطب الجديد . وقد سرى سريان البرق . وجاء عكرمة ولده يشق الزحام إلى والده مصفر الوجه لاهثاً . ولما وقع نظره عليه وهو متصلب الساقين صاح

وا أبتاه .. وادرعاه .. واسنداه .

فتمطى أبو جهل .. ثم تثاءب .. ثم أشار لهم أن يساعدوه على القعود فمدت اليه عشرات الايادي . فكانت كحزمة الخيزران . مختلفة الاطوال والأقطار وساعدته على الجلوس ، ثم جلس ابو سفيان بين حاجبيه ثم شاء الكلام فخانه لسانه وأطبقت عليه أسنانه ، فوضع يده على كتفيه وهزها مرات ، ثم غالب أعصابه وقال

ـ أبا عكرمة ..

ـ لبيك يا أبا حنظلة

ـ ما بك ؟؟ تحدث . فالقوم خلفك فى مأتم

ـ ان مابى شيئاً كثيراً وان قلبي ليفزع كلما حاولت ذ كره

ـ تشجع وتثبت . فقومك حولك يشدون أزرك ويقومون ظهرك

ـ ان ما رأيت والله لأعظم من أن تقف أمامه قومى

نبيه بن الحجاج ـ يهمس فى أذن أخيه ويقول له

لقد داخل عقل الرجل شيء

أبو سفيان ـ حدثنا عنه ولا تخف يا أبا عكرمة . فلقد روعنا صمتك وهدنا خطبك

أبو جهل ـ يبتلع لعابه ـ ثم يقول :

قمت لأفعل بمحمد ماقلت لكم عنه البارحة . فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الابل . ما رأيت والله مثل هامته ولا عنقه ولا أنيابه . فهم بىأن يأ كلنى . فتراجعت دونه فى غير وعى ولاشعور : وما استطعت لشدة الفزع أن ألقى مابيدى وكأنها يبست عليها وتصلبت . ولا أدرى ماحل بى بعد ذلك

ثم أسبل عينيه من شدة الاعياء وطرح رأسه على كتف جاره متعبا إلى الوراء . والكل شاخص اليه في صمت كأن عيونهم شدت إلى وجهه بالأهداب

فقطع هذا السكون صوت النضر بن الحارث يقول :

يامعشر قريش . انه والله قد نزل بكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد، فقد جاء فيكم محمد غلاما حدثا . فكان أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم الشيب فى صدغيه . وجاءكم به قلتم ساحر . لا والله ماهو بساحر

لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ثم قلتم كاهن. ولا والله ما هو بكاهن فقد رأينا الكهنة وخوالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر ولا والله ماهو بشاعر. فقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها. هزجه ورجزه وقلتم مجنون ولا والله ماهو بمجنون، فقد رأينا المجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه .. يامعشر قريش انظروا فى شأنكم فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم

الوليد بن المغيرة ـ وهذه ضحية جديدة قد تملكته شعوذة محمد وأخذت عليه قلبه وحواسه

أبو سفيان ـ حتى أنت يابن الحرث !؟ أنت الذى كنت بالامس تجلس مجلس محمد وتحدث الناس أحاديث رستم واسفنديار وتقول لهم إنى لاحسن حديثا منه ؟

النضر بن الحرث ـ هذه فى الواقع حال لا يمكن السكوت عليها والتدليس فيها على أنفسنا. فقد سئمنا ومج الناس ماتتهمون به محمدا دون أن يستطاع إثبات شىء من ذلك عليه فرد عليه العاص بن وائل مقاطعا

دعنا وأبيك من حديثك هذا وكفى ماسمعنا .

منبه بن الحجاج ـ جدير بابن الحرث أن يقوم ويجلس بجوار شيبة بن ربيعة حتى يتجاوران جسما كما تجاورا فكرة .

وضحك من فى المجلس الا النضر بن الحرث وشيبة بن ربيعة ثم تحدث اولهما قائلا !

قد يضحك الرجل من شدة البلاء :

عكرمة .. لا ـ بل نضحك مما اصابك وزميلك شيبة

أبو سفيان ـ وقد يكون أيضا من شدة البلاء

شيبة — والله لا أدرى ماذا فعلت قريش حتى الآن تجاهد محمدا وتناوئه وتصمه بماليس فيه. فلم تتقدم شبرا بينما يتقدم ذراعا . فلما تناولتموه بالأذى . وثب باعا، وعزمتم على التخلص منه فكان هذا هو المأتم يفيض جزعا والتياعا .

منبه بن الحجاج — كأنك قد نسيت انتصارنا عليه بالأمس وملاحقته بالأسئلة حتى لا يكاد يبين .

شيبة — وهل تظن أنه رفض الاجابة على مثل اسئلتكم عيا ؟ وهل تعتقد أن رب محمد طوع رغباته وخوالجه . حتى يحقق لكم كل ماتطلبون لو أن الأمر كذلك لانقلب المربوب ربا والرب مربوبا . .

وإذا كنتم فى شك مما أقول. فعليكم بآلهتكم هاهى على مرمى الطرف منكم سلوها أن تزيل الجبال . وتشق الانهار . وتلين الارض حتى تصبح حقولا وحدائق .

أبو جهل — تربت يداك . وكيف تعيب آلهتنا إلى هذا الحد إذا تسامحنا معك فى الحط من تصرفاتنا ؟

شيبة ـ لا بد من ذلك إذا كان لا بد من مجابهة الحقائق. وإلا فسنظل فى تيه وضلالة حتى يقضى لمحمد بالنصر فى النهاية. وتصبحون من عامة الناس بعد السيادة والقيادة

النضر بن الحرث — لقد غركم والله جمال حلمه وأطمعكم والله سمو أخلاقه . فاذيتموه واحتمل ، ولكن عند ماتآمرتم على حياته برز لكم

القضاء المقدور فى صورة فحل من الابل عظيم، يذودعنه ويهدد بالويل والثبور

وإذا كان شـيبة بن ربيعة قد لامس محمدا فسحره. فقال ما قال مدحا فيه وثناء على قرآنه. فمن سحرنى بدورى كما تدعون الآن؟ مع أنى لم أحادثه ولم ألامسه، وإذا كان محمد يسحر على القرب والبعد فما الذى ظهر لابى جهل وروعه إلى هذا الحد فروعنا معه؟ تحدثوا ؟؟!! وافلوا أمركم ثم حاولوا أن تجابهوا الواقع ولو كان مراً.

الأسود بن المطلب — هـذا الذى تقوله معقول غير أنه لابد لى، من أن أقول!

إذا كان محمد رسولا من عند ربه فلماذا لا يؤيده فى كل مواقفه وها نحن بالأمس قد سألناه فيما لم يجب على واحدة مما سئل عنه. فكيف ودعه إلهه وتخلى عنه فى مثل هذه الساعة.

شـيبة — أغلب ظنى أنه لم يودعه ولم يتخل عنـه ولكن حكمة الاله فوق حكمة الانسان. وعلمه فوق علم البشر. وأن مايظنه الانسان خيرا له قد يكون وبالا عليه. ومايعتقده وبالا قد يكون خيرا، فعدم إجابة محمد علينا لاعجزا منه ولا تخليا لربه عنه. ولكنها الحكمة التى قد لا ندركها.

أبو سفيان — كأنك واحـد من أصحابه!! تتحدث كما يتحدثون. وتؤمن بما يؤمنون. وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين

شيبة — وغدا تتحدثون بهذا وتؤمنون به مالم تقوموا بعمل أكثر حكمة وارسخ اتزانا.

ابو سفيان — أشيروا علينا بما نصنع فقد بلغ منا اليأس مبلغه وحارت بنا سبل التفكير والبحث حول هذا الأمر الذى جاء به محمد

الأسود بن المطلب - أرى أن تستشيروا آلهتكم فى أمره ، فان شاءت اتبعناه وإن شاءت مضينا فى مخاصمته ، حتى يقضى بيننا وبينه

عبد الله بن أبى أمية — بل استشيروا أزلامكم فانها تصدق كثيرا

شيبة ـ وهل تروا أن كهانكم يرويدونكم على الاسلام ، فتسقط مكانتهم ويصبحون آحادا فى عداد الناس بعد الرئاسة والسلطان

العاص بن وائل ـ وماللكهان وقضيتنا التى نحن بصددها. إنما نسأل الأزلام ونستشيرها . وفيها دلالات الخير والشر دائما

شيبة ـ ولكن الكهان هم الذين يستنطقونها ، ويتحدثون عنها فهم إن شاءوا بشروا ، وإن شاءوا حذروا .

العاص ـ أترى أنهم يكذبون عليها

شيبة ـ مادام الأمر يتعلق بكيانهم ونفوذهم، فهم بلا شك سيكذبون وهل هناك عليهم من رقيب أو حسيب .

أبو سفيان ـ إذن ماذا نصنع

شيبة ـ أرى أن ترسلوا رسلكم إلى أحبار يهود بالمدينة ليصفوا لهم محمدا فى شكله وأخلاقه وعاداته ومايقوله . فانهم اهل الكتاب الاول وعندهم علم من الانبياء ليس عندنا. ولا نعرفه. ولعل فى إجابتهم ما يكشف عنا مانحن فيه

أبو سفيان ـ حسبنا ذلك . وما اعتقد ان احدا يخالفك فى هذا الرأى

ولكنا نريد انتقاء الظاعنين ، حتى يستطيعوا القيام بهذه الأمانة على أحسن وجه وأكمله. لا أن نترك ذلك لكل من يريد. فأرى أن يسافر الحكم ابن هشام وأمية بن خلف .

النضر ـ كلاهما متعصب لدينه شديد العناد فيه ، فقد لا يحملون إلينا إلا ما يتفق ورغباتهم ، فنفقد المشورة ويضيع الوقت المناسب لعلاج هذه الحال .

شيبة ـ أرى أن يسافر النضر بن الحرث لعلمه بالتاريخ ومحبته للمعرفة والاستقراء . ولعل فى اعتدال فكرته ما يرضى المتشددين فى دينهم ، ولهذا يجب أن ينضم اليه عقبة بن أبى معيط حتى يحدث الاطمئنان فى نفوس الجميع .

أصوات ـ مرحى . مرحى (١)

***

نازل بنيت بالحجارة يدرج حولها صبيان يرتدون ملابس فضفاضة ملونة ، قد شدوا وسطهم بمناطق من الجلد الرقيق وعلى مرمى البصر مزارع فسيحة اختلطت فيها حمرة أزهار العصفر بزرقة أزهار القرطم . وتلاقت فيها أغصان الرمان الميادة . بأفنان الكروم الناعسة وفى الناحية الأخرى بساط سندسى فسيح من الاعشاب

---

(١) كلمة تقولها العرب فى مواطن الاعجاب بشيء وهى تحمل معنى كلمة «برافو» الافرنجية

والسعدان (١) تطوف به قطعان الغنم فتلتهم منه ماتصل اليه حتى تأتى عليه كأن بينها ثأرا، وعلى بعد خطوات تنبعث جلبة وضوضاء يمتزج فيها صوت الأطفال بصوت الرجال ويشوب عربيتها لهجة غريبة عن سكان هذه البلاد .

تقدم الرسولان إلى حيث تنبعث الضوضاء فألفياها مدرسة لتعليم أبناء يهود لغة التوراة فيما يشبه الكهف المظلم ؛ وقد جلس فى مؤخرته رجل قد امتدت به سنه. وفقد بمرور الزمن عينه. واستطالت على صدره لحيته وانحنى على نفسه من شدة الهرم .

وما أن رأى الأطفال هذين الرسولين يطلان عليهما حتى انقطعا عن التلاوة ، فنهرهم معلمهم لجنوحهم إلى اللعب والتهاون فى الدرس ، فحدثوه بما لم يفهم الرسولان منه كلمة واحدة ، فاندهش المعلم (٢) وقال :

من بالباب ؟؟

النضر بن الحارث ـ ضيف جاء بعد سفر طويل يطلب. . .

المعلم مقاطعا ـ ليس لدينا طعام إننا فقراء ، إننا فقراء . أكمل لوحك ياشاؤول

النضر ـ ماجئت يامعلم القوم لأطلب طعامك ، ولكن لأطلب علم يهود وأستفتيهم فى شأن جسيم

المعلم ـ وهل معك زادك بعد سفرك الطويل ؟

النضر ـ معنا منه بقية .

---

١ شوك تأكله الابل
٢ تكلم بالعربية بعد العبرية

المعلم ـ ليس لدينا متسع من الوقت لسماع تفاهات بنى يعرب... أكمل أكمل ياشاؤول

النضر ـ يامعلم القوم إن معى زادا كثيرا ، وإن لى بأهل هذه البلد صلة ورحما . فلا تزعج نفسك طويلا ، وهدىء روعك من هذه الناحية .

المعلم ـ إذن تفضل فادخل .

النضر ـ وإن معى رفيق طريق فهل تسمح له بأن يكون معى ؟

المعلم ـ يتأفف ثم يشهق ويزفر ثم يبحث بيده على الأرض حوله ويقول: وهل لدينا متسع لرجلين ، وعلى أى حال ادخلا سامحكما الله .

المعلم ـ ممن الرجلان ؟

النضر ـ من قريش . . . سادة من سادة .

المعلم ـ ومتى وافيتم أرض يثرب ؟

النضر ـ أمس البارحة .

عقبة بن معيط يهمس فى أذن النضر بن الحارث فيقطع النضر على المعلم كلامه ويقول له : ألا تسمح لنا بقدح من ماء ؟

المعلم ـ وهل انتهت بقية الزاد التى معكم ؟

النضر ـ لاتزال لدينا غير أنه ليس لدينا ماء .

المعلم ـ ولكن الماء من ضروريات السفر ومستلزمات الزاد

النضر ـ هو ذلك، ولكنا حضرنا إلى هنا بغير ماء .

المعلم ـ متضجراً ـ ثم نادى :

ياشاؤول .. إن كنت قد أكملت لوحك فاسق ضيوفك .

شاؤول ـ إن أمى اليوم تعصفر (١) الصوف . ولعل الماء لدينا شحيح

المعلم ـ قم أنت ياشريح .

شريح ـ ليس فى بيتنا أحد اليوم يامعلمى .

المعلم ـ قم أنت ياجدعان . .

جدعان ـ يصمت قليلا ثم يخرج ويعود بالماء فيشرب عقبة ثم تناوله المعلم ليشرب فتحسسه بيده فأدرك أنه قدح منزله فصاح قائلا :

جدعان ! ويحك هذا قدحى. ومن أذن لك باحضاره ؟ ومن أعطاك الماء ؟!

جدعان ـ قلت لهم إنه لمعلمى .

المعلم ـ ولكن بقية الماء ـ بعد أن شرب الأعرابى ـ تدل على تبذير ما تعودناه قبل اليوم .

جدعان ـ الحق أننى ملأت القدح حتى لا أعود ثانيــة فى طلب الماء ـ وكيف تركوك تملأ وتفيض ؟ حادث له ما بعده !! وهل تلوت على ألواحك اليوم ؟ ؟ ! !

جدعان يتراجع إلى الوراء . ويجهش بالبكاء .

النضر ـ إن كان قد أساء التصرف فلأجلنا ومن أجلنا ، أرجو أن تدعه تكريما لنا وفضلا .

المعلم ـ هذا تلميذ خبيث ومبذر ، وأخشى أن يتخذ من هذا الحادث قاعدة للمستقبل .

عقبة ـ أرجو أن لا يعود وسوف لا نعود إلى طلب شىء جديد .

---

١ ـ تصبغه بالعصفر

المعلم ـ هذا حسن وقد تفاهمنا .

النضر ـ نريد أن نجتمع بكبار الأحبار لنطرح عليهم سؤالا قد تطفىء الاجابة عليه نيران حرب عندنا. ويحقن لها دماء كثيرة.

المعلم ـ حرب ودماء ؟ إذن لقد ظهر فى مكة كنز من الذهب اختلفت حوله القبائل والبطون ، وإلا فما الذى يؤدى إلى الحرب غير هذا ؟!

النضر ـ لا وأبيك لم يظهر بها كنز ولا لقيا . وهى كما تسمع عنها ضيقة الأرض آسنة الماء ، فقيرة الدخل ، والأمر الذى جئنا لأجله ستسمعه عند عرضه على الأحبار .

المعلم ـ حسن.. وسأجمعكما بهم الليلة فاذهبا الآن لشأنكما وعند بعد الغروب تجدنى فى انتظارك مع أحد التلاميذ لنذهب إلى نادينا الذى نجتمع فيه

وفى المكان الذى اتفق عليه جاء النضر بن الحرث وصاحبه وذهبوا جميعاً إلى نادى يهود وهناك فى عريش ضيق وتحت سقف من بقايا ما أكلته السوس. وفى ضوء حائل حزين ، أقعى على ركبتيه رجل متكهل فوق سعف متفرق يطل بين يديه على وريقات بالية يلاحق أجزاءها المتداعية هنا وهناك ويضم فتاتها إلى بعضه. ليستطيع مواصلة القراءة فى صوت أجش كأنه أضراس الساقية . وحوله ثلاثة شيوخ لامست لحاهم حجورهم يعبثون فيها بأصابعهم كأنما يشقون فيها مسارب وطرقات. ويومئون برءوسهم بين الفينة والفينة إيماءة التأمين لما يقول القارىء. وعلى أجسام الجميع جلابيب مخططة قد غاب تحت رقاعها أصل الجلباب. فوقف المعلم الأعمى يستمع قليلا ثم فاجأهم قائلا :

ـ سلام عليكم

ـ وعلى المعلم ومن معه السلام

ولما استقر بالجميع المقام وتبادلوا عبارات التعارف ابتدرهم النضر قائلا:

ما رأى أحبار يهود فى رجل له فينا رحم ونسب . ينحدر من أقوى القبائل وخلاصة العرب . نشأ فينا وفياً صادقا عفيفاً أمينا . وجاء يدعو إلى دين غير ديننا ، وينهانا عن الوأد والخمر والزنا ، ويقول بنبوة موسى وعيسى ويدعى أنه على صلة بالسماء يحدثه ربه منها ، وأنه مبعوث خالق السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وقد جربنا معه وسائل الشدة تارة والاغراء اخرى ... ففشلنا وهو دائما ينتصر ... فحرش أحدهم فى لحيته وقال :

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول . ماذا كان شأنهم العجيب .

الثانى ـ ثم سلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماذا كان نبؤه .

الثالث ـ ثم سلوه عن الروح ماهى ؟ وما حقيقتها ؟ فان أجابكم عن هذه الثلاثة فانه نبي مرسل واتبعوه ، وإلا فهو متقول ، وافعلوا به ماشئتم بعد ذلك

- ٤ -

« ويسألونك عن الروح قل الروح »
« من أمر ربى وما أوتيتم من »
« العلم إلا قليلا »

قرآن كريم

هؤلاء أشراف قريش يسيرون صوب منزل الرسول فى شبه دائرتين مركزهما النضر بن الحرث وعقبة بن معيط. قادمين من المدينة بعد اداء مهمتهما تتناهبهما الابصار ، وتشع حولهما ابتسامات الرضا والارتياح أشبه مايكونون بخليتى نحل تحوم وحداتها حول محور واحد . وتنتقل أفرادها فى محيط محدود ومركز معين . فهذا يهنىء بسلامة الوصول. وذاك يتطامن على حسن النتيجة . وثالث يسأل عن قافلته فى طريقها الى الشام للتجارة. والناس على طول الطريق تحرسهم بعيون الغبطة . وتطوف حولهم بأفئدة السرور . يهمس بعضهم فى أذن بعض . وترتفع أصابعهم بالاشارات تصاحبها النظرات ـ الى السفيرين

وصلوا إلى منزل الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخفتت الاصوات الجاهرة ، وتواصوا بالصمت والاسماع ، كأنهم أمام محراب ، أو بطانة ملك من قادة وحجاب ، فاستيقظت فى رأس الجميع طيوف الحوادث وأشباح الذكريات . فشغلوا باستعراضها ، وغابوا بين ثنياتها (١) وتاهوا فى فصولها

« ١ » منعطفاتها

حتى نسوا أنفسهم فى مكانهم ، وذهلوا بشواغلهم عن مهمتهم . حتى أفاقتهم كثرة العامة حولهم وتزايدهم حول امرائهم حتى كأن مكة جاءت تستعرض اشرافها . وكأن الجميع قد اتخذوا من هذا البيت الصغير كعبة ومثابة وامنا .. فبرز أبو جهل من بين الجميع يهمس فى اذن شيبة ، ثم يرجع إلى الوراء ليوسوس فى اذن النضر بن عقبة ، ولعله كان يشاورهم فيمن يستفتح باب الرسول من بين الحاضرين فانبرى لذلك عتبة بن ربيعة ودق على الرسول بابه فى أدب وخشية ، ثم سكت يتسمع الجواب فكان ماسمع هو ذلك الصوت الملائكى الشادى بكلام رب السماء . فعاوده ذلك الحنين الذى كان يلامس فؤاده كلما ذكر جلسته الى رسول الله فى المسجد يستمع قرآنه . فدق قلبه دقات هادئة . ورقت أعصابه رقة مرهفة فأفسحت لهذه الموجات مكانا رحبا فى نفسه . ومستوى جذابا بين مشاعره فنسى نفسه كرة أخرى على باب الرسول . والكل ينظر اليه فى شغف وقلق . يتعللون لصمته . ويتأولون فى ذهوله . ويتذاكرون عوائده وخلقه . ثم ذكروا فى النهاية تعظيمه لكلام محمد ، واجلاله لقرآنه . فأدركوا سر صمته . فهتفوا باسمه فرفع وجهه فجأة مستفيقا من غشيته ، ثم تلفت عن يمين وشمال باحثا عن مبعث النداء ، فألفى اياد تهتز مستفسرة عن سر صمته فتذكر موقفه ، واستدرك مهمته ، فعاد يدق الباب وكلما زايلت يده مكانها (استسلاما للعاطفة . وحنينا الى الصوت الكريم) هتفوا به من جديد فيدق الباب .

ثم اطل رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم من كوة داره . وقال

— من بالباب ؟ .

ففزعت صفوفهم لصوته . وشخصت ابصارهم لطلعتـه . وتعطلت السنتهم عن اجابته عدا عتبة الذى تراجع عن موقفه قليلا ثم طالع وجـه رسول الله وابتسم وقال :

على بابك قريش فى شيوخها . قد جاءتك بعرض جديد .

رسول الله — أرجو الله لهم الهداية والتوفيق .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأهم بالتحية فردوها عليه ، ثم تقدموا صوبه زرافات ووحدانا ثم بادأه النضر بن الحرث قائلا :

يابن اخى نعرض اليوم عليك امورا ثلاثة إذا أنت اجبتها لقريش كانت بك مصدقة .

رسول الله — ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى الى .

عتبة — أجب عليها أو استوح فيها من شئت .

رسول الله — على بما معكم .

النضر — اخبرنا يامحمد عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول قد كانت لهم قصة عجب . وعن رجل كان طوافا وقد بلغ مشارق الارض ومغاربها ثم اخبرنا عن الروح ماهى .

فمسح رسول الله على لحيته بيده واطرق قليلا ونظره يغدو ويروح كأنه يستذكر شيئا ثم قال :

— اخبركم بما سألتم عنه غدا

النضر ـ نأتيك أو تأتينا يامحمد

رسول الله ـ انما بعثت اليكم خاصة والى الناس كافة .

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى داره . وانصرفت قريش الى نواديها . وأخذ بعضهم ينظر الى بعض نظرات تشف عن سرور . وتشع عن رضا بما وصلت اليه الامور . فظنوا وقد أمهلهم رسول الله فى الاجابة على ماسألوا ان قد اوقفوه موقفا حرجا . واركبوه مركبا صعبا . ثم ذكروا ان هذا من ثمار النضر بن الحرث وصاحبه عقبة بن معيط. فأحاطوا بهما من جديد ، وأغرقوهما فى سيل من الحفاوة والتكريم

ولما وصلوا إلى ناديهم . وأخذوا من الراحة قسطهم تساءل أبو سفيان معجبا :

ما هذه العلوم التى استأثر بها يهود دوننا . وحملت محمدا على الصمت والنسيأة (١) ؟!

النضر ـ هؤلاء يقرأون التوراة ويعلمون الكثير عن الانبياء ويحدثون عن الماضى . ويزعمون معرفة المستقبل .

ابو جهل ـ وكيف يجيبكم محمد إلى ما طلبتم . وقد عجز بالامس عن مثل ذلك .

أبو سفيان ماتعنى بمثل ذلك ؟

أبو جهل ـ قد سألناه ان يسير الجبال ويجرى الانهار . وان يدعو الملائكة له قبيلا .

---

(١) يقصد التأجيل فى الاجابة

النضر ـ ليس هـذا الذى طلبتم بالامس إلا عنت وارهاق . أما اليوم فليس إلا علما ومعرفة فلو قد أجابنا محمد إلى مانطلب اليوم لكنا به مصدقين .

أبو جهل ـ مصدقين ؟! ماهذا الذى تقول؟ تريدشيوخ قريش وسادتها على التصديق بابن أبى كبشة .

النضر ـ ويح أباعكرمـة وما فائدة الائتمار والتشاور وتحمل وعثاء السفر وركوب متن الغربة ؟

أمية بن خلف ـ أغلب الظن ان ذلك لم يقصد إلا لسبرغور الرجل

عقبة بن معيط — ليس هذا ماقمنا لاجله . وركبنا الصعب فى سبيله

أبو سفيان ـ وفى الحق إننا لم نتفق قبل السفر على مايجب أن يتخذ فيما لو أجابنا محمد إلى مانسأل بل تركناها لتقدير الظروف

عتبة بن شـيبة ـ وإذا كان قد فاتنا الاتفاق على ذلك فها هو الوقت الذى ينبغى فيه التفاهم على الخطة المستقبلة فيما لو أجابنا الى ماطلبنا

أبو سفيان ـ دعونا مؤقتا من تحديد هذا الموقف حتى نسمع قبل ذلك علم يهود فى هذه المسائل الثلاث فانى إلى معرفتها مشوق

أبو جهل ـ هذا ما كان يدور بخلدى مذوطئت أقدام النضر وصاحبه أرض مكة

أمية بن خلف ـ وكيف يطرح مثل هذا فى حجر نادينا... فلعل خبره يتسرب الى محمد . فنفقد ميزته ونخسر معـه كل مابذلنا من جهـد فى سبيل الحصول عليه

أبو جهل - لعله ليس بيننا من له خبيئة أو نخشى منه عثرة اللسان .
وإذا كان ولا بد من احكام الرتاج وتضييق الشئون . فلا علينا من ابعاد الخدم عن مجال الخدمة . وتغليق الأبواب دون السادرين والصادرين (١)
ثم أهاب أبو سفيان بالخدم فخرجوا وأمر باغلاق دار الندوة ثم استعد النضر ابن الحارث لما سيتحدث فيه وقال
حدثنا احبار يهود أن الفتيـة كانوا فى حاشيـة الملك الظالم دقيانوس فراضهم على الشرك وتوعدهم بالقتـل فأبوا الا الايمـان بالله ثم هربوا إلى كهف بالقرب من مدينة إقسوس فدخلوه ودخل معهم راع مع كلبه فناموا نوما ثقيلا مئات السنين إلى أن انقرض عهد هذا الملك الظالم وحل مكانه ملك صالح فأيقظهم الله وأخذوا يتساءلون عن مدة نومهم فقطع حديثهم أحدهم وقال دعونا من مثل هذه المناقشه وأرسلوا واحدا منكم يشترى لنا طعاما من المدينة وكانت معهم نقود فضية من عهـد الملك دقيانوس فلما رأى بائع الاطعمة هـذه النقود معـه ذهب به إلى دار الملك فظن الملك أن هذا الرجل قد عثر على كنز ثمين فانطلق مع رجال مملـكته إلى الكهف بصحبة الرجل الذى أطالت السنون من شعره وأظافره حتى أصبح فى حالة مرعبة فلما ذهبوا إلى هناك وجدوا سكان الـكهف على مثل هذه الحال ثم قصوا عليه قصة حياتهم وسبب التجائهم إلى هذا الـكهف ثم قصة نومهم العميق ثم بعثهم بعـد ذلك أحياء ثم استودعوا الملك وعادوا إلى مضاجعهم وتوفوا بين يديه فألقى عليهم ثيابه، وأمر فجعـل لـكل واحـد منهم تابوتا خاصا به.

(١) الخارجين من النادى والداخلين فيه

من ذهب ثم رآهم فى المنام كارهين للذهب فاستبدل بالذهب الساج وبنى على باب الكهف مسجدا

ولعلها كانت عظة لأمة هذا الملك وكانت قد انقسمت على نفسها حول أمر البعث بعد الموت فقد كان بعضهم ينكر ذلك وبعضهم يثبته أما عدتهم فستة وسابعهم كلبهم

أبو جهل ـ ان أحبار يهود يتحدثون بمثل كلام محمد ! وإلا فكيف اذا متنا وكنا ترابا وعظاما نعود بعد ذلك أحياء ؟!

النضر ـ هذا ماقاله أحبار يهود ولعلهم صادقون . وإلا فما الذى جمعهم مع محمد على هذه الآراء ، وماتعلم فى مدرسة ولاعرف إلى القراءة طريقا ولا جلس مجلس التلميذ منهم ولا من سواهم ، فقد عاش فينا وعرفنا حياته طورا بعد طور فليس بعيدا أن يكون محمد على صلة بمن حدث موسى وعلم قومه هذا الكلام

أبو سفيان ـ دعنا يابن الحرث من شرحك الآن وتفسيرك وحدثنا عن الرجل الذى كان طوافا بين مشارق الارض ومغاربها

النضر ـ حدثنا أحبار يهود انه كان عبدا صالحا يدعى الاسكندر وكانت خلفه جيوش جرارة ذات عدد وعدد لم يترك من الارض معمورا إلا وطئه ، ولا مسكونا إلا جاس خلاله ، وكان يدعو الناس الى التوحيد . فقاتلوه وقاتلهم وكان كلما قتله أعداؤه أحياه الله ليواصل دعوته . وقد بنى سدا عظيما من النحاس والحديد بين جبلين كبيرين

أبو سفيان ـ يظهر أن أحبار يهود أصيبوا بالخرف كما أصيب صاحبنا

وانك يابن الحرث أصبحت على مقربة منهم ، وإلا فكيف يحيا إنسان ثم يموت ثم يحيا ! وماعلمنا بهذا فى آبائنا الاولين . وكيف جمع الاسكندر من الحديد والنحاس ماسد به بين جبلين شامخين . وكيف أذا به والنحاس بين أيدينا فوق النار كل صباح ومساء . فما انصهرت له عارضة ولا ذابت له صفيحة . ومع هـذا فهات سيفك وضعه فى اتون من النار فانه لايلبث أن تحمر صفائحه ، ولـكنه لايذوب . فاذا زايل النار عاد كما كان بعد قليل

النضر ـ هذا والله ماسمعته من يهود. وليس هذا ببعيد مادامت هناك قوى لم نصل اليها بعد

أبو جهل ــ مقاطعا . .

ياشيخ كفى كفى ! ! حسبنا وأبيك لقد سقطت قيمة هـذه المشورة لعنت يهود وأحبارها وماحولها

الاسود بن المطلب ـ ألا ترى ياأبا الحكم انه سواء علينا أ كان ماجاءنا من أحبار يهود صدقا أو كذبا مادام ذلك يوقف محمدا هذا الموقف

أبو جهل ـ ولكن ذكر مثل هذه الانباء وتكرارها قد يجعلها مألوفة على آذاننا . وآذاننا الآن تعاف مثل هذا الخرف والتخبط

عقبة بن معيط ـ قد يكون هذا صحيحا الى حد ما . ولكن هذه رغبتكم فى تعرف ماحملناه اليكم من يهود .

أبو جهل ـ هذا صحيح . ولكنا لم نكن نفهم انكم ستحملون الينا مثل هذا الخلط .

عقبة بن معيط ـ هذا هو الذى سيعقد لكم لواء النصر على محمد ومن

معه . وهو الذى أهمه اليوم وأحزنه .

أبو سفيان ـ على أى حال هى كأس مريرة .

عقبة ـ وان كان لا بدمنها

أبو جهل ـ على أن هذا لا يمنع من أن نعرف المسألة الثالثة .

النضر ـ أما أنا فحسبي تقريعا ؟! بعد أن كنت فيكم منذ ساعة بين الاحداق .

عقبة ـ وأنا لا أعرف من أمرها شيئا .

أبو جهل ـ حدثونا على ان تجردوا الاجابة من شعوذة اليهود

أبو سفيان ـ نريد أن نعرف المسألة قبل أن يجيب محمد فنستطيع أن نوازن بين الاجابتين فى الوقت المناسب

النضر ـ فى الحق اننا لم نتلق من يهود بخصوصها شيئا . فهو سؤال لا جواب له عندنا أو عندهم

* * *

تتابعت اجتماعات قريش فى ناديها كل مساء .وكلما وفد (شريف) على المجلس تساءل فى استخفاف هل من جواب ؟

فيتضاحك الكل ويميل بعضهم على بعض كالسكارى ثم ينفرد أبو جهل بالرد ويقول لقد خاصمته آلهة السماء !

فيعود الصخب والتضاحك من جديد وبين هذه الضجة كنت تسمع صوتا يقول فى غمغمة الثمل . لله ابوك يابن الحرث . هو الذى هيأ لنا كل هذا السرور

نبيه بن الحجاج ـ ولا تنس صاحبه

السكران ـ وابن معيط شريك النضر بدوره ستذكره قريش ماذكرت هذه الليالى الزهراء .

ابو سفيان ـ لاتنسوا يامعشر قريش انه هذه الليلة تكمل اربع عشرة خلت على (غد !) محمد الذى وعد به وان (غده) هذا قد امسى دهراً لانطيق عليه اصطباراً ، فاما أن يأتى فيعلن جهله بما سئل . ويعلن بذلك تخليه عن دعوته التى شق بها صفوفنا . واما ان يجيبنا فيكون حداً فاصلا بين زعمه وزعمنا ..

السكران ـ امهلوه حتى تأتيه بنات (١) الله بالجواب ولكن كيف تنزل بنات الله ويخطرن على الارض قبل أن يزججن الحواجب والعيون

* * *

هذا مساء اليوم الخامس عشر من وعد رسول الله لقريش بالاجابة الى ما طلبوا . وهذه أصوات العامة تطوف حول بيته وترسل عيونها إلى نوافذه . تحمل الغمز السمج . واللمز النابى

وهذا رسول الله بين يدى ربه . تارة ساهم غارق فى بحر آماله . وتارة أخرى متحدث فى وسوسة وخفوت ، وثالثة ساجد صامت وان سمع لقلبه لحن الوجيب ، ورابعة يزفر حاراً ويقول:

اليك يارب اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس

ومرة خامسة ـ يستقبل بيت المقدس (٢) يتلو آيات الذكر الحكيم فى

---

(١) كانت قريش تزعم ان الملائكة بنات الله .

(٢) كان هو القبلة الاسلامية الاولى

ثم قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

وبينما كان رسول الله يتلو كتاب الله عليهم كان فريق منهم قد أخذته نشوة الطرب لجرس هذا الكلام ووقعه على نفسه فراح يهتز يمينا وشمالا وأسلم فريق آخر جفنه لعالم من التفكير فى سمو هذه المعانى . ورقة هذا الاسلوب . واطرق فريق ثالث حتى غرق الى الاذقان فى بحر من اللذائذ الروحية التى لا صلة له بها من قبل . وأبو جهل وأبو سفيان وعكرمة يرمون هؤلاء جميعا بنظرات كالشرر . وزفرات كابخرة الجحيم

وما انتهى رسول الله من قراءته . حتى صاح النضر وعقبة فى صوت واحد كأنهما على وفاق فى ذلك وقالا

— هكذا والله قال احبار يهود وزاد كلام محمد صدقا وجمالا

فجحظت عينا أبو جهل وولده عكرمة وأبو سفيان بن حرب . واحمرت وجوههم حنقا وغيظا واتقدت صدورهم بالحسد والحقد على رسول الله لحسن توفيقه الى ما جاء به

النضر — ما رأيكم فى الذى تلى عليكم ؟

أبو جهل — لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون

فانصرف رسول الله محزونا تشيعه عيون الحقد والكراهية ثم ساد المجلس صمت رهيب لم يشقه سوى صوت أبى سفيان يقول

والله لقد ضاق بى الفضاء وأظلمت الدنيا فى وجهى ولا أدرى ما أنا فاعل بعد اليوم . . اننا ان ناظرناه غلبنا . وان خاصمناه انتصر علينا . لقد انقطعت بى أسباب الحيل

الاسود بن المطلب ـ لقد ظننا أن قد ظفرنا بعد هذا الصمت الطويل

نبيه بن الحجاج ـ ولكن ما الذى حمله على كل هذا الصمت . حتى أطمعنا فى كنفه وحرك ألسنتنا فى عرضه ؟

عتبة بن ربيعة ـ قلت ولم يرقكم قولى . إن رب محمد لا يصح أن يكون ظلا لمحمد ، ولا صدى لكل رغباته ، والا لا نقلبت الأوضاع ، فالذى خلق هذا الرجل وأرسله لا بد وأن يكون أعظم منه وأحكم تدبيراً . فهو يمده حيث يجدى المدد . ويزوده حيث ينفع الزاد . ويميره حيث تكسبه الميرة موقعا جديدا .

أبو سفيان ـ متهكما ـ وأين هذا الموقع الذى كسبه فى معركة اليوم

عتبة ـ سل نفسك . . لماذا كنت مغيظا محنقا

أبو سفيان ـ متهكما أيضا ـ ولماذا كنت كذلك ؟ .

عتبة ـ لأنه لم يكن بين أكثر الحاضرين وبين الاسلام إلا خطوات ألم ترهم ما بين مشدوه حالم . ومطرق ساهم . وطروب هائم . . بغمر ما كان يقول محمد

الأسود بن المطلب ـ إذن قد عرفنا سلاحه فعلينا ألا نمكن أحداً من سماع قرآنه والا تفلتت منه قريش تفلت الابل من العقال

عتبة ـ وما نصنع فيما أخذ عنه واستظهر منه ؟

أبو سفيان ـ نلغو فيه ونمعن فى اللغو ، ونلحد فيه ونشتد فى الالحاد

عتبة ـ نجحتم إن صدقتم .

٥

« وإذا ذكرت ربك فى القرآن »
« وحده ولوا على أدبارهم نفوراً . »
« نحن أعلم بما يستمعون به إذ »
« يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ »
« يقول الظالمون إن تتبعون إلا »
« رجلا مسحوراً »

قرآن كريم

هذا أبو جهل يسير فى الضحى صوب الكعبة . وقد تدلى نصف عباءته على الأرض لانشغاله بضفر غديرته. يتابعه ظله المديد. ويحاكيه فى كل حركة وسكون . ثم أخذ بذيل عباءته وهزه بقوة فى الفضاء . ثم أعادها إلى مكانها من منكبه العريض ، وعلى امتداد الطريق التى مر بها كان يحاذيه أخدود (١) يستقيم أحيانا وينعرج أخرى ليس إلا أثراً من آثار ذبابة (٢) غمد سيفه ، وبينا هو يشد حمائله ويؤكد منطقته (٣) صافح أذنه صوت يقول :

ـ عم صباحا يا أبا الحكم

فالتفت إلى يمينه بسرعة خاطفة فألفاه أبا سفيان . فرد عليه قائلا :

ـ نعمت ونعم بك بنو أمية يا أبا حنظلة . . لقد وافيت حيث تطلب . ولعلك قد أدركت سر عطف عتبة بن شيبة والنضر بن الحرث على دعوة محمد

---

١ ـ شق ٢ ـ مؤخرة قراب السيف ٣ ـ حزامه .

ولعلك أدركت أن لهذا القرآن الذى يدعيه من السماء أثراً عميقا فى نفوس سامعيه .

أبو سفيان ـ هذا ما أعلمه . ولكن كيف السبيل إلى مجاهدة هذا أيضا

أبو جهل ـ أن نغالب وصول الناس إلى حيث يستمعونه . فنحرس ماحول المسجد . حتى لا يصل صوته إلى الناس

أبو سفيان ـ ولكنها طريق العبادة وسبيل إلى بعض الحوائج .

أبو جهل ـ لا أريد أن نأخذ الطريق على الناس . ولكننا نجاهد الوقوف بالقرب منه إذا ماجاء إلى صلاته . . . أف له . . . .

هذا هو . . قد جاء فى صمت الداهية ومشية الجرىء الثبت (١) فاصمت حتى يمر . أو فلنبادر لننشر رجالنا حول المسجد حتى يقفوا دون الناس

أبو سفيان ـ هيا ولنبادر بتنفيذ الخطة

دخل رسول الله إلى المسجد ووقف فى مقام إبراهيم يتأهب للصلاة . وفتيان قريش تثب كالثعالب هنا وهناك ، حتى غدا المسجد فى شبه حصار محكم . فلفت وقوفهم أنظار السابلة ، ودنت الأفواه إلى الآذان بالوسوسة فأدركوا سر الحصار . ولكن صوت رسول الله بالقرآن لم يدعهم فى تأملاتهم طويلا حتى صافح آذانهم ، فوقع من نفوسهم موقع السحر . ومن صدورهم مكان العذب الفرات ساعة الهجير ، فاسترخى نشاطهم ، وأنساهم حاجاتهم وصرفهم إلى حيث ينبعث الصوت الساجى الرخيم . فهتف بهم عكرمة قائلا ـ ليتجه كل إلى بغيته التى قصد . . . فنظروا إليه ثم نظر بعضهم إلى

---

١ ـ الواثق من نفسه

بعض ثم فكروا فى حيلة للاستمتاع بهذا الجمال هنيهة

فأخذ أحدهم يتشاغل بربط سيور خفه واقتدى به الثانى فأخذ يتظاهر بالبحث عن شيء فقده ، وبدأ الثالث يجمع حصيات من الأرض لحاجة فى نفسه وإن لم يكن لواحد منهم على الأرض من حاجة ، ولكنه جمال القرآن تنفثه روح محمد لا لسانه ، ويبعثه قلبه لا صوته، فيهز الأثير (١) هزاً، ويزلزل القلوب زلزالا، ويشيع فى الأجسام لذائذ ضافية من حيث لا يدرى أحد من أين دخلت إليه .

ثم دنى أبو جهل من بعض الأشراف مجتمعين وقد أخذته الدهشة والعجب وقال :

ـ أسمعتم ما يقوله محمد فى صلاته ؟

أبو سفيان ـ وماذا قال يا أبا الحكم فانك أوعانا ذكراً وأسرعنا حفظا

أبو جهل ـ كأنه وحقك يرد علينا فيما أخذناه عليه بالأمس فى حديثنا عن حراس النار التسعة عشر

أبو سفيان ـ لم أكن بالأمس بينكم فماذا قلتم فى هذا الصدد ؟

أبو جهل ـ إن محمداً كان يحذرنا النار وحراسها التسعة عشر . فهزئنا منه ومن حراس ناره . مادمنا مئات وألوفا وهم تسعة عشر حارسا فحسب فسمعته اليوم يقول :

(وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا)

(١) أرق عناصر الهواء

أبو سفيان ـ كأن محمدا لا يسمنا بالكفر من عند نفسه . بل ربه الذى يعلمه ذلك فى قرآنه

أبو جهل ـ وانا لنفخر بهذا الكفر الذى ينعتنا به . ما دام لا يدعونا الى الايمان بالمستحيلات . والا فمن ذا الذى لا يعظم عليه أن يصدق بحياة الاموات وبعثهم من جديد لحساب يختم بجنة أو نار !!

أبو سفيان ـ انه لا يقول ذلك فقط . بل سمعته بالأمس حول داره يتحدانا فى ذلك تحديا عنيفا فيقول

(قل كونوا حجارة أوحديداً أوخلقا مما يكبر فى صدوركم . فسيقولون من يعيدنا . قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو. قل عسى أن يكون قريبا)

النضر بن الحارث ـ كأنكم وقد أخذ عليكم قرآن محمد كل مشاعركم . رحتم تختلفون لسماعه . تارة حول بيته وأخرى حول المسجد . ثم تأتون فتحرمون على الناس الدنو منه ! !

أبو جهل ـ لا وحقك يا أخاه انى سمعت منه ماسمعت عرضا . وبحكم قربى من مكانه الذى وقفت فيه

النضر ـ وحرصك على استظهار قرآنه ليس إلا من قبيل التفكه على ما أظن ! !

أبو جهل ـ هذا تهكم لاذع . ولا أعتقد أن مثلى بلغ من الهوان إلى أن يقف موقف الحساب

النضر ـ لا يشك أحد يا أبا الحكم فى صدق وفائك لقريش . ولكنى

أريد أن أقول. لقد سحرك بدورك !

أبو جهل ـ وهذا مالا أقبله أيضا لأنى (تمويذة) ضدالسحر والسحرة

النضر ـ لعلك نسيت خطبك يوم الصخرة التى حملتها لتصرع بها محمدا

أبو جهل ـ إن حياتى إلى اليوم بعد ظهور ذلك الفحل ومحاولته التقافى لسر جديد، ولو كنتنى. لكنت الآن حرضا فى الارض أو رمادا تذروه الرياح

أبو سفيان ـ لا محل لهذا التلاحى العنيد على قارعة الطريق

النضر ـ وأنت يا أبا سفيان، كيف استظهرت عن محمد آية البعث والنشور؟ فاذا كان أبو الحكم قد استظهر ما استظهر لقرب مكانه من محمد اليوم. فكيف حفظت عنه ذلك وهو فى داره بالأمس ؟

أبو سفيان ـ لم يكن مرورى الامرورا عابرا حملت زهاءه اليكم هذه العبارات لعل فيها ماينفعنا فيما نحن إزاءه مع محمد

النضر ـ فلنتعاقد إذن على أن لا نسعى لسماع قرآنه وأن نقف دون الناس فى ذلك حتى ينصرف عنا أو ننصرف عنه

أصوات ـ تعاقدنا على ذلك. ولتشهد علينا آلهة الكعبة

اعتكف رسول الله أياما فى منزله . فكان لا ينتهى من الصلاة الخاشعة إلا إلى التلاوة الضارعة، ولا يوقف التلاوة إلا الى حلقة من أصحابه. قد جلسوا فى حجر داره يرتقبون طلعته ارتقاب التائه فى بطن الصحراء ظهور النجوم الهادية، وتأمل الملاح الضال حوائم العمران وطيوره الآهلة. حتى إذا طلع عليهم وقفوا لهيبته فأحاطوا بهيولته وأنصتوا لخطرته فلا يشق هذا

الصمت الا صوت رسول الله دارسا أو محفظا . ولا يخرجه من مقام التعليم الاحبو أولاده الصغار وتسلقهم ظهور صحابتـه . فتتخلل ذلك فترة مرح يمتزج فيها المزاح البرىء. بالتشريع العالى. والدعابة العفة .بالتربية السامية . والتدليل الـكريم. بالاخلاق العظيمة

وبينما يدارس محمد صلى الله عليـه وسلم أصحابه فى سورة الرحمن قال عمه حمزة .

والله ماسمعت قريش هـذا الكلام يجهر لهـا به حتى أصاخت آذان وتوطأت أكناف. واستسلمت لجرسـه نفوس. واستهوت لصقله قلوب . فهل من رجل يسمعها إياه حتى يخرج رسول الله اليها

أبو بكر ـ ومن لها سواك

حمزة ـ ولـكنى حديث عهد بالاسلام ولا أحفظ منه إلا القليل

عبد الله بن مسعود ـ أنا لها وابن بجدتها

حمزة ـ انا نخشاهم عليك وليس لك من عشيرة تمنعك منهم

ابن مسعود ـ دعونى فان الله سيمنعنى

وبينما قريش تسمر فى نوادها. إذ شق عليهم مكانهم صوت يحمل كلاما أشبه ما يكون بما يسمعون من رسول الله . موزون السجـع . متسق الحلقات، مترابط العبارات . مصقول الالفاظ . منسجم الاسلوب ليس بشعر ولا نثر ، بل فوق ما تعودوا سماعه من خطباء ذى المجنة والمجاز وحلبات عكاظ (١) ففزع عكرمة فزعة أشـبه ماتكون بمن به

(١) أسماء ثلاثة لبعض أسواق الادب عندهم

جنة (١) وذهب يتعرف من هذا الذى خالسهم، ودخل الى المقام يتلو قرآن محمد . وليس بمحمد .

ذهب اليه فعرفه ثم عاد فابتدره أبوه قائلا :

من هذا الناعق داخل المسجد كالغراب

عكرمة ـ هازئا ـ هذا القزم (٢) عبد الله بن مسعود

أبو جهل ـ أمعه مجلة (٣) أم يقرأ من عند نفسه

عكرمة ـ ان معه اقحافا وخزفا يقرأ فيها كلاما أشبه ما يكون بكلام محمد . .

أبو جهل ـ وكيف اجترأ ابن أم عبدة (٤) على أن يجهر بين نوادينا بمانكره .. فوحق الالهة لاسون الارض به ثم سارع اليه وخلفه الكثيرون وأخذوا يضربونه على رأسه ووجهه . وهو ممعن فى القراءة لا ينظر اليهم ولا يتوسل ولا يتوقف حيث يريدون منه ذلك . حتى أصابوا وجهه بجراح وتخضب مابين يديه بدمائه ، ولم يقطع تلاوته حتى انتهى من حصته فى سورة الرحمن ثم عاد الى منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفاه بين اصحابه . فابتدره حمزة قائلا :

هذا الذى خشيناه عليك منهم .

---

(١) جنون

« ٢ » القصير القامة

« ٣ » صحيفة

« ٤ » يعيرونه بسواد اه

ابن مسعود ـ والله ماكان اعداء الله أهون على منهم فى وقت من الاوقات هو انهم على اليوم . ولئن شئتم لاغادينهم (١) بمثلها غدا
أبو بكر ـ لا .. حسبك قد اسمعتهم مايكرهون
ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يضمد جراحه ويمسح عليها وهو يقول فى سبيل الله مالقيت يابن مسعود فعادت جراحه كأن لم تكن شيئا..

***

انتصف الليل إلا قليلا . وقام أشراف مكة الى منازلهم . ولم يبق منهم إلا ابو سفيان وأبو جهل والاخنس بن شريق وابن وهب الثقفى وكل منهم يدور فى رأسه سؤال ويعلو لسانه استفسار يريد أن يوجهه الى صاحبه عن سر بقائه إلى مثل هذه الساعة رغم دخول الوقت وقرب انتصاف الليل . ولكنه لايلبث ان يعود الى نفسه ويقول محدثا اياها
قد يكون الذى أقعدهم الى مثل هذه الساعة ، هو الذى أقعدك ! وبماذا تجيب لو وجه اليك مثل هذا السؤال ؟! .
فيعود كل إلى صمته ويسرح نظره فى صاحبه ثم يعود الفضول فيحفزه إلى التساؤل فيرفع رأسه من جديد . يدور فيها هذا الاستفسار ثم يفتح فمه سائلا . ولكنه لايلبث أن يطبقه فرقا من شبح الجواب
فرأى أبو جهل بذكائه ان ينتشل نفسه ومن معه من هذا الحلم المخيف ، فاتخذ من حوادث الامس فصلا للسمر والسلوى لعله يظفر بطرف من نوايا الجميع فقال :

« ١ » اذهب اليهم وقت الغداء

— لقد شفينا بعض ما بنا فى ابن أم عبدة بالامس

الاخنس بن شريق — وما ذنب هـذا المسكين لقـد وقع فيما وقع فيه سواه ..

أبو سفيان ـ ليقع من شاءله الوقوع، ولكن على أن لا يكون ذلك على حسابنا

ابن وهب الثقفى ـ ولكنى وحقكم قد أشفقت عليه من شدة ما نزل به

أبو جهل ـ ليتعظ سواه به ، سيما وقد غاظنى منه أنى لا أدرى كيف دخل إلى المسجد دون أن يشعر به أحد ، رغم ارصاد الطريق

ابن وهب ـ ضاحكا ـ وكيف لا ، وهو ناحل قمىء (١)

أبو سفيان ـ غير أنه ذو صوت ندى ، وجرس شجى

الأخنس ـ بل أجمل منه ما كان يقوله

ابن وهب ـ لاشك أن مايقول محمد وأصحابه فوق طوق البشر

أبو جهل ـ وهل يقول محمد إلا أساطير الأولين ؟ !

أبو سفيان ـ كأنك توافق ابتداء على جمال مايقول محمد . وإن خالفت فى انه من كلام رب السماء

أبو جهل ـ يطرق ـ ثم يقول تقريبا .. على أنى أقول هذا بيننا فقط..

أبو سفيان ـ ولكن أساطير الاولين قد حفظها رهبان النصارى وأحبار يهود وقد سمعوا جميعا ماجاء به محمد فلم يتهمه واحد منهم بذلك .

أبو جهل ـ قد اتهمه بذلك كهان قريش وهم منا بمنزلة أحبار من يهود . والكهان من النصرى

---

(١) قصير

أبو سفيان ـ ان كهاننا ليسوا أهل كتاب وماعرفوا تاريخ الأنبياء فهم جماعة يستقسمون ويستدنون (١) فقط. فهم أبعد مايكونون عن تعرف سير الاولين وأساطيرهم . والا فلماذا التجأنا إلى أحبار يهود بالأمس لعرض قضيتنا مع محمد عليهم .

أبوجهل ـ هذا صحيح . ولكني لا أستطيع ان أنكر على هذا الكلام جماله وتنسيقه ، سواء أ كان من عند محمد أو من السماء . على أن يكون هذا بيننا فقط .

الأخنس ـ هذا وأبيك ماأعتقد .

بن وهب ـ هذا ما كان من أمس والليلة ، وماذا نصنع غدا ؟

الأخنس دعنا من الغد حتى يخلق الغد . وهيا بنا الى المضاجع فقد انتصف علينا الليل . ثم سلم كل على صاحبه وانصرف وقد زعم كل عن الآخر أنه قد ذهب ليصيب قسطه من النوم والراحة ، فساروا بين الافنية والدروب . وغابوا بين المنازل والربوع . حتى ظهروا أمام بيت رسول الله فوقفوا دونه تحت قبة الظلام يتأملونه سا كنا كالليل . وادعا كالوداعة متواضعا كالتواضع . تطوف حوله ذكريات الحوادث الخالية . وتجثم عند بابه قريش . ويشع من كواه الضيقة . نور مصباح حزين . وينبعث من فجواته صوت موسيقى ساحر . تكاد ترقص له جوانب الليل . وتترامى حواشيه حوله ، لم يحدد رخامته لحن . ولم يقس بانسجامه غناء ، فانسل كل منهم الى حيث وقف متلفعا بالغلس (٢) يتلفت يمينا وشمالا كأنه لص هارب أو شرطي

---

(١) يقومون بخدمة الاصنام (٢) الظلام

ينتظر الايقاع بفرائسه ويتسمع القرآن فيهيم بنظامه ، ويخفق لوقعه . ويستبطىء له الزمن . ويحرص على أنفاسه لايخرجها إلا بقدر . حرصا على كل مايشدو به رسول الله . . . حتى إذا امتـدت يد الطبيعة تمسح من لوحة السماء بعض النجوم . وتنفس الفجر عن زفرات السـديم تطارد سحابة الظلام ، جمع كل منهم رداءه وتلفع بفضل طيلسانه (١) وتلفت يمينا وشمالا حتى إذا لم يجد ماراً ولا ساريا اندفع إلى بيته . . . فاتفق أن اصطدم كل بصاحبه وهو فى طريقه إلى مايقصد فنظر بعضهم إلى بعض مبهوتا . ثم أطرقوا دفعة واحدة بحركة واحدة . كأنما يفكر كل منهم فى طريقة للخلاص . . وكيف ذلك والذنب مشترك والأدلة قائمة . والاحساس بالجريمة يعقد الألسنة . ويذيب الشجاعة ، ولكن أبا سفيان قد تشجع ورأى أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم . فسأل أبا جهل قائلا :

ـ من أين آت يا أبا الحكم ؟

ـ أبو جهل ـ كنت فى زفاف عفراء بنت سعد سيد بنى النضر

أبوسفيان ـ وأنت أين كنت ؟

الأخنس ـ لقد ذكرت وأبيك بعد أن غادرتكم الليلة أن أعود أحد بنى عمومتنا فى مرضه لانشغالى نهاراً ، فذهبت ولازلت أعالجه وأمرضه حتى هذه الساعة . وقد تركت أهله حوله فى حالة أسيفة

ابن وهب الثقفى ـ وأنت بدورك أين كنت إلى هذه الساعة ؟

أبو سفيان ـ كأنك تريد أن توقفنى موقف المسئول منك وأنا من أنا

(١) مايلف على الرأس والعنق معا

كابراً عن كابر فحرى بك أن لا تعود إلى ذلك . وإلا فوجه هذا إلى نفسك وأجب عليه ثم سلنى بعد ذلك

ابن وهب - دعك من هذه المغالطة فانى أقسم باللات والعزى ما كان واحد منكم حيث زعم

ثم انصرفوا إلى دورهم . وفى الليلة التالية أخذ كل منهم مكانه الذى لجأ اليه بالأمس وقد ظن أن أحداً لم يره ولن يراه . وأسلم أذنه ومشاعره إلى الصوت الذى جازف بسمعته ومقامه بين قومه من أجله ، وما ان أغمضت النجوم جفونها ، ومزقت الشمس نقابها ، حتى أخذوا يبالغون فى التنكر ، ويمعنون فى التخفى ، ويتسللون فى هدوء . فتلاقوا مرة أخرى فوقفوا إزاء بعضهم أشباحا صامتة حتى شق سكوتهم صوت ابن وهب الثقفى قائلا لعل مريضك لا يزال يعانى ما به !

ابن شريق - فى استحياء - لعله كذلك

ابن وهب - ولعل عروس الأمس يا أبا الحكم قد أنجبت الليلة غلاما فرحت بهدايا الميلاد !! فلم ينبس أبو جهل ببنت شفة

ابن وهب - وأنت يا أبا سفيان حدثنا وأبيك عن مشاهداتك الليلة وأخبارك الطريفة فانى لا أريد أن أوقفك منى موقف المسئول

أبو سفيان - فى دهاء - يا لك من غيور على قضية قريش . لقد أسر إلى بعضهم الليلة أن محمداً سيذهب فى جنح الليل إلى الطائف ليعرض نفسه على أهلها ويدعو الناس هناك إلى الاسلام . فرأيت أن أتلمس حقيقة الأمر بنفسى . فألفيت محمداً غارقاً فى صلاته وقرآنه . وكلما سمعت تلاوة

أيقنت بوجوده ، فأزداد إيمانا بكذب مبلغي هذا الخبر

بن وهب ـ ولكنا وضعنا لهذا الأمر حلفا أو مايشبهه على أن لا نتسامع قرآنه وأن نحول بينه وبين الناس

أبو سفيان ـ مادام هذا الذى قمت به وأمثاله لا ينظر اليه بعين الرضا والارتياح . فما على من بأس فى أن أستريح وأن أترك الدار تنعى من بناها

بن وهب ـ دعها أنت تنعى من تنعى . فانه لو رآكم سفهاؤكم على مثل هذا الحال لتابعونا فيما نفعل ولسقط سلطاننا عليهم . بل لاستحالت دار محمد كعبة جديدة يحج اليها أهل الحضر والوبر

ثم تصافحوا وأخذ كل طريقه إلى بيته وهو يعض أصبع النـدم ، على سوء المصادفات التى أماطت اللثام عما كان يظن أنه سيظل سراً مكتوما

وفى مثـل الساعة التى يذهبون اليها شاقهم الذهاب إلى حيث ينبعث سحر القرآن ولكن شبح الفضيحة يبرز لهم حينا ويختفى أحيانا . حتى إذا غلب الشوق الملح شبح الخوف وشدة اللائمة . ذهب كل إلى حيث جلس البارحة . وظلوا مأخوذين مشدوهين سكرى بجمال القرآن . حتى هددتهم الشمس بكشف الحجاب فعكس كل طريقه الذي اعتاد الرواح منه . فراراً من المصادفات السيئة التى تحالف الجميع . فكانت النتيجة الحتمية أن التقوا مرة ثالثة . . فرأى أبو سفيان أن يعاجلهم بالسؤال على عادته الأولى فى الهجوم قبل الدفاع فقال :

ـــ من أين وإلى أين يابن وهب

ابن وهب — من المكان الذى كنت فيه . وإلى مثل ما أنت ذاهب اليه

أبو سفيان — وأنت يا أبا الحكم ؟

أبو جهل ـ دعونى أقول الحق . فما أريد أن أكذبكم ولا أحب أن ألتوى بكم . إنه ليشوقنى قرآن محمد مذ سمعته . وأشعر نحو نظمه بحنين عاصف . وحب ملح

ابن وهب — ولكن كيف يكون المصير لو علم الناس بأمركم . بل كيف ترضون ضمائركم بينكم وبين أنفسكم إزاء ما تعاهدتم به

أبو سفيان — أتحدث نفسك أم تخاطب الجميع ؟

الاخنس — يظهر أننا جميعا مرضى بهذا الحب . والحقيقة أن العاقبة ستكون وخيمة فيما لو شاهدكم عامتكم أو علموا بأمركم . فلنتعاقد منذ الآن على عدم الحضور مرة أخرى بعد ذلك

أبو الحكم — هنالك فلنتعاقد أمام الآلهة . حيث تقضى بقضاءها على من يخون هذا العهد من جديد

***

أغمض رسول الله جفنه وتصبب منه عرقه . ثم أخذ يحرك شفته فى خفوت وهمس . وأصحابه حوله يتواصون بالصمت . ويرمقون رسول الله ويحبسون أنفاسهم حتى لا يقطعوا عليه حبل الوحى . ثم فتح رسول الله عينيه ومسح عرقه وأقرأ قومه السلام ، ثم ابتسم وقال : لقد أقرأنى أخى جبريل قوله تعالى

« وإذا ذكرت ربك (١) فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذهم نجوى إذ يقول الظالمو إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً »

فعرف الصحابة ما يدور حول بيت رسول الله ليلا . ومبلغ تأثير القرآن فى نفوس أعدى أعدائه فضلا عن سواهم وفرحوا بذلك أشد الفرح وازدادوا به إيمانا على إيمانهم

(١) علانية

- ٦ -

« وضربـه لنـا مثلا ونسى خلقه »
« قال من يحيي العظـام وهي رميم »
« قل يحييها الذى أنشأها أول مرة »
« وهو بكل خلق عليم »

قرآن كريم

ودخل على المجتمعين العاص بن وائل فأشاروا بأصابعهم نحوه مهللين متضاحكين حتى علت صيحاتهم ، واختلطت أصواتهم .. وان كان صوت الوليد بن المغيرة يسيطر على كل ذلك فى قهقهة راعدة .. وكلما أراد التحدث الى العاص بن وائل غلبته ضحكات أشبه ما تكون بهمهمة القرود الهرم . . ثم غالبه الجد على نفسه وقال :

حدثنا يا ابن وائل ماذا قلت لصاحبك (خباب) ؟

العاص بن وائل — لقد علمتم اذن ما كان من أمرى وأمره . والا لما ضحكتم لمقدمى ..

الاسود بن عبد المطلب — انها وحقك نادرة مستملحة وانها لتكون اكثر ملاحة لو سمعناها من فمك

العاص — جاء الى (خباب) هذا يطلب ديناً له فى ذمتى ثمناً لأسياف ابتعتها منه . فقلت له . أليس يزعم محمد صاحبك هـذا الذى أنت على دينه أن فى الجنـة ما يتمنى أهلها من ذهب وفضة وثياب وخدم ؟ فقال :

بلى .. فقلت له انظرنى إذن الى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع الى تلك الدار . فأقضيك هناك حقك . فوالله لن تكون أنت وأصحابك آثر عند الله منى . ولا أعظم حظا فى ذلك

فتضاحك القوم وتمايلوا وتمازحوا .. ثم واصل العاص كلامه وقال :

والأدهى من هذا والامر أن محمداً يزعم أن الوحى قد هبط عليه بتأنيبي وهجائى . وان ربه قد قال له فى شأنى : (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا . اطلع على الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) .

فقابل القوم حديثه الاخير بجو أقرب الى الجد منه الى المزاح . ثم أخذ بعضهم ينظر الى بعض . كأن كلا منهم أراد أن يقرأ فى وجه غيره الآثار التى أحس بها على أثر التلاوة . . ثم واصل العاص حديثه وقال : ثم زعم أن جبريل قد نزل عليه بكل هذا اثر إنصراف (خباب) كأن جبريل كان خلف بابه ! !

فتضاحك القوم فى فتور

ثم تحدث ابو جهل وقال :

اضحكوا . . اضحكوا اليوم كثيراً !! كأنكم فى غفلة عما ستطعمونه من شجرة الزقوم يوم يؤدى العاص ما عليه لخباب ! ؟

أبى بن خلف — ولم لا نرحب بالاكل منها وهى عجوة تبض زبداً كما أخبرتنا بالامس ..

ابو جهل — ولكن محمداً لم يرقه ذلك . فراح يقول عنها (ان شجرة

الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم)

ابو لهب — كغلى الحميم أم كغلى قدر أبى كبشه (١)

ضحك وضجة

أبى بن خلف — قد يكون معقولا الى حدما ، بعض الذى يدعو اليه محمد ، الا أن يدعو الناس الى الاعتقاد بذلك اليوم الذى يبعث فيه ربه الرمم والرفات . وتنبت فيه أشجار الزقوم فى أصل الجحيم . وتشاد بجوارها جنة عالية قطوفها دانية . ثم يزف أصحابه الى الثانيـة . ويقذف بنا إلى الأولى ! !

تصايح وتضاحك

ولقد ذهبت اليه أمس وحملت معى عظما بالياً قد ارفت (٢) وقلت له يامحمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ؟! (٣) ثم فتته بيدى ونفخته فى وجهه . فأغمض جفنه غاضباً ثم قال .. نعم إنى لأقول ذلك . وسيبعثه الله وإياك بعد ما تكون هكذا . ثم يدخلك النار

ضحك وسخرية ! !

.. وليته اقتصر على ذلك !! بل أرسل فى أعقابى آية تطاردنى على ألسنة جماعته كهدنا به . ويزعم انهـا نزلت عليه من السماء يقول فيهـا . (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها

---

(١) كنية ألصقوها بزوج حليمة السعدية مرضعة النبي ، كانوا يعيرون بها رسول الله (٢) بتشديد التاء — تحلل

(٣) بفتح الهمزة والراء وتشديد الميم

الذى أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون)

فعاد القوم ينظر بعضهم الى بعض لوقع الآيات فى نفوسهم كأنها تيار من الكهرباء يهز مختلف الاعضاء . فتكاد ألسنتهم تنطق بالاعجاب بها والثناء . لولا عوامل الخوف والعناد والكبرياء . فاكتفوا من الاعجاب بالصمت . ومن حنان الغريزة بالحيرة والتردد

أبو سفيان — كأنى بمحمد وهو غاضب من نثر الرفات فى وجهه . قد بدأ يتأثر من مهانتنا . ويثور من تحدينا .. مع أن عقبة بن معيط قد ذهب اليه منذ أيام وبصق على وجهه ولم يفعل الا أن مسحها واستعاذ بربه من الشياطين . ولعلها كانت مرضاة لصديقه أبى بن خلف الذى أقسم عليه ليفعل ذلك أو يهجره . جزاء استماعه لمحمد فى إحدى جلساته

أبى بن خلف — لم يثر محمد من ذلك لانه رجل معتدل فيما يحكم به على خصومه ، ويوزع عليهم من جزاءات ! ! فقد اكتفى من خصمه بالندم يوم القيامة على ما فعل ، لعل فى تخفيف جزاء عليه ما يدعو الى إنابته وتوبته وقد نعته بالظالم فقط . ولعلها أخف من (الكافر .. والفاجر) ينثرها علينا كل يوم فى سخاء !!

الاسود بن عبد المطلب — وهل حكمه هذا كان بوحى نفسه أو بوحى من السماء

أصوات .. وحى من السماء طبعاً !!

الاسود — وماذا قالت السماء إذن

عقبة ـ انتهى الى أنه قرأ (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) . فلعل ذلك هو رد السماء .

ابو جهل ـ وهل علمتم بأمر بن أم مكتوم الاعمى (١)

فضحك الوليد بن المغيرة ضحكته الخشنة الداوية حين سمع ذلك . ومرت بذهنه صور سريعة مما حدث ثم قال :

مسكين هذا « المذمم (٢) » لقد سولت له نفسه باسلامى وطمع فى هدايتى . فوقف يقص على أنباء جنته وما تحويه من أنهار اللبن و لخمر والعسل . وأسراب الطيور والطلح والكروم والرمان . والحور والولدان . وأنا أسايره واخادعه حتى جاء ابن أم مكتوم واستقرأه آيات من القرآن . فعبس فى وجهه وأعرض عنه مؤملا فى نفسه هدايتى وإسلامى فلم يظفر منى بشىء . كما لم يرض عنه تلميذه ابن أم مكتوم . ثم انتهى الى أن عاتبه ربه بعد ذلك فى هذا عتابا شديداً فقال له (عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك الا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى .

(١) جعل أبو جهل من واجبه أن يفاجىء المجتمعين باثارة آخر الحوادث . حتى لا يدع لآثار القرآن الى نفوسهم سبيلا

(٢) هو المعنى المقلوب لكلمة (محمد)

كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة)

ابو لهب ـ يا له من تعنيف له بما بعده .. لكن محمداً لم يعرض لك إلا بما هو هين . وناهيك بما قاله فى شأنى وفى شأن أم جميل (١) « تبت (٢) يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد (٣) »

عبد الله بن الزبعرى ـ أظن لو أن هذا الكلام من عند محمد لا من السماء . لما عاتب محمد به نفسه هذا العتاب المر .. إلا أن يكون ذلك منه دهاء ومكراً

أبو جهل ـ وبأى شعور قابلت أم جميل هذا الهجو الشديد

أبو لهب ـ لقد جمعت ثيابها وسألت عنه حتى قيل لها انه بين أصحابه فى المسجد فحملت حجراً كبيراً وذهبت اليه تريد أن ترضخ رأسه به . ولكنها لم تره رغم سماعها صوته . فاكتفت بأن رجزت تهجوه

مذمما عصينا ـ وأمره أبينا ـ ودينه قلينا (٤)

أبو جهل ـ وكيف اكتفت برجزها الصغير دون أن ترضخ رأسه بما كان فى يدها

ابو لهب ـ تحدث أم جميل انها علمت وجوده وسمعت صوته ورأته بين الجالسين عن بعد ، ثم غاب عن ناظرها بعد ذلك فلم تعد تراه

---

(١) زوجته (٢) هلكت
(٣) ليف (٤) كرهنا

بو جهل ـ لعله سحر نفسه أو سحرها بدورها !!

ابو سفيان ـ يخيل إلى أن عمرو بن العاص أضحى فى واد ونحن فى واد . فانه لم يشاركنا حديثنا . ولم يدل بدلوه بيننا . ومذ أتى من الحبشة وهو معتم النفس كثير الاطراق

عمرو بن العاص ـ لا أجد ـ واللات ـ محلا . لكل هذا العرس تقيمون معالمه فى جوانب مأتم . فياطالما هددنا محمداً وتهكمنا بدعوته وسخرنا به وبمن اتبعه وأرسلت شعراءنا ألسنتها فيه بقيلة السوء . وعرضنا أصحابه على كل ضروب العذاب وقدمنا له الرشوة ، فلم يغن ذلك عن دعوته فتيلا !

وهذا نجاشى الحبشة يمنع أصحاب محمد ويحميهم . فاستوى مقامهم عنده . وقرت عيونهم بجواره . وهذا حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب يؤمنان بدعوته فعادت اليها الحياة من جديد . وأضافا إليها قوة أصعب من أن تغلب .

وكل هذا يتم بينما تتضاحكون وتتصايحون كأنه لم يكن هناك مايستحق التفكير والجد .. ولعل من العته أن نعتبر حثو التراب على محمد . أو وضع الشوك فى طريقه أو غمزه ولمزه ، انتصاراً لقريش بينما تسير دعوته سيراً حثيثاً تأخذ فى طريقها الكماة الصناديد

ابو لهب ـ ليس هذا كل ما فعلناه بمحمد وأصحابه . ولكننا نلناهم بالاذى وعرضناهم على كل ضروب التعذيب والنكال

عمرو ـ وماذا أجدى كل ذلك . . إن القافلة تسير ونحن ننظر اليها

وإن إسلام عمر قد أطاح بكل ما فعلناه فروروا رأيكم وألقوا بآخر سهم فى كنانتكم، فما صادف من خصومنا مقتلا أو طاش وطاشت معه سيادة قريش

الوليد بن المغيرة ـ وماذا نستطيع أن نصنع بعد كل هذا الذى حدث !!

ابو جهل ـ فى رأيي أن نحرق عليه منزله بليل فيقضى مع أهله ، فنستريح ونريح .

ابو لهب ـ ومن ذا يستطيع ذلك بعد ظهور ذلك الفحل يريد أن يلتهمك ذيادا عن محمد ، على أننا سنستهدف بعد ذلك لعداء بنى عبد مناف من أجل محمد وعداء بنى خويلد من أجل خديجة وأولادها يذهبون طعمة للنيران بغير جريرة

ابو سفيان ـ وما رأيكم لو اجتمع عشرة أشداء من عشر قبائل حول محمد ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا تستطيع بنو عبد مناف أن تقف أمام الجميع

ابو جهل ـ وماذا تصنعون اذا ظهر لكم الفحل الاورق ذو العنق العجيب والناب النابى

ابو لهب ـ كأنك لا تزال فى رعب من هذا البعير !! وماذا يصنع فحلك أمام عشرة شجعان

ابو جهل ـ بعير !! وحق اللات وهبل ، انه ليطيح وحده بعشر قبائل مجتمعة لا بعشرة شجعان

ثم يسود المجلس صمت عميق .. هذا يعتمد بذقنه على راحته شارد الذهن

وذاك مطرق الرأس سابح الفكر ، وثالث يستعرض ما عساه يكون قد بقي من أسلحة النضال يكافح بها محمداً وصحابته . ولكن واحداً منهم لم يفتح فمه بجديد يقوله . كأنما قد ضرب الله على آذانهم ثم استفاقوا فجأة على دقات الدفوف (١) تستقبل عير قريش قادمة من الشام تحمل التجارة . فانصرفوا جميعاً مطرقين تحت أثقال من التفكير عن سلاح جديد يقاومون به نبي الاسلام ودعوته

---

(١) الطبول



كان سلاح المقاطعة آخر ما لجأت اليه
قريش فى مناهضة الدعوة الاسلامية فى
مكة . ولكنه سلاح قد ارتد إليها
كغيره مفلولا

- ١ -

« لتتعاهد قريش فى وثيقة يدمغها »
« أشرافها على أن لا ننكح من بنى »
« هاشم والمطلب ولا ينكحوا منا ولا »
« نبيع لهم شيئاً ولا يبتاعون منا . »
« وأن تعلق فى جوف الكعبة »
« إشهادا للآلهة على ذلك . وتوكيداً »
« للحلف فى نفوس الجميع »

عمرو بن العاص

وعلم عمرو بن الوليد فجأة أنها مع أبيها فى « الشعاب » لمقاطعة قريش للمسلمين يصيبها ما يصيبهم وينالها ما ينالهم من تشريد وقطيعة وجوع . فراح يرتاد طريقها الى بستان أبيها يستنطق آثارها . ويستوحى ذكريات لقائها . ويجلس تحت ظل الكرمة التى كانت تجلس عندها فيذكر على ذهب الأصيل شعرها المتألق على كتفيها . وفى ظل الكرمة هدوءها . وفى صفاء الجدول . عيونها وفى تثنى الغصون قدها . وفى شدو الهزار (١) صوتها وهى تنادى أمتها ، فتهيج به الذكرى شجونا وتتبخر الشجون دمعاً هتونا . وقد تثقل على كاهله وطأة الذكريات فيطأطأ رأسه ويحنى هامته فيروح ويغدو باحثاً منقباً عن صخرة وقفت عندها يوماً . أو ربوة أشارت اليها عرضاً .

---

(١) طائر ذو شدو جميل

أو شجرة كان يروقها أن تتعلق بأغصانها • وتتأرجح تحت أفنانها

ثم غربت الشمس فضاعفت ظلمة الليل من ظلمة نفسه، وزادت وحشته من وحشة مشاعره. فغدا الى المنزل يسير وئيداً تحت أثقال التفكير. صامتا تتناهبه لواعج الحب. مطرقا كأنما يتسمع دقات قلبها وتردد أنفاسها. هامسة في آذان الطبيعة الهاجعة. والكون الحالم •

وتحت سراج مترنح كجسمه الهزيل. معتكر كمينه الدامعة، محترق كأنفاسه الملتهبة، اعتمد عمرو رأسه. وأسلم للتصورات والاخيلة عقله. وطار بخياله فوق شعاب مكة وكهوفها. وطاف حول محبوبته (سمية) مع أبيها فى معسكر المسلمين. تنضج لهم ما استطاعت يد الرحمة ارساله اليهم خلسة من قريش .. فألفاها أمام الموقد كالشمس تضفى من نورها على وجه القمر فى اطار من غدائر الليل وجدائل الدجى. تمد أناملها الى النار فتزداد اشتعالا • كأنها صف من الشموع. ثم تقبضها عنها فيخبو أوارها ويفتر تراقصها. كأنها لا تشتعل إلا فرحا لرؤيتها. ثم تطل على القدر فيستقبلها بخاره. كأنه زفير الشوق ينبعث من رئتين انهكهما طول الصعود والهبوط، ثم تحكم عليه غطاءه. وتعرض عنه فيئز حزنا. ثم يفور غضبا. ثم تقوم منقبة عن ماء تسعف به طعامها الصادي. فيسير النور فى ردائها الاسود، وتسبقها أشعة الأمل فى وجود الماء. ولكن سرعان ماتذكرانها فى دائرة الحصار، وان الماء قد نفد، فتعود حانية الرأس. كسيرة النفس. فأثار كل ذلك شجاعة عمرو، وأشعل غضبه فصرخ صرخة لاشعورية وقال:

يا لظلم قريش !!

فتداعى له من فى المنزل . وتنادى العبيد والخدم . فألفوه جاحظ العينين مرتعش اليدين شريد الذهن .. ثم أغمض جفنه وغاب عن الوجود، ثم عاد فاستفاق من غشيته، وفتح عينه على ازدحام هؤلاء جميعا حوله . وأمه قبالة وجهه تستفسر منه عن سر صرخته . وتكرر على مسمعه مافاه به وتلحف عليه فى الرد والاجابة . وهو لايجيب إلا بالتلفت . ولا يرد إلا بنظرات حائرة فى وجوه أهله .. وكلما أمعن فى التلفت والصمت أمعن القوم فى الحزن والحيرة . .

ثم ساد المجلس صمت عميق . لا تتحدث فيه إلا العيون الحزينة والزفرات المحتبسة الجازعة ، حتى تكلم أخوه بكر قائلا :

لا بد وأن يكون قد أصاب أخى مس من الجن . أو خبل فى عقله

سيف ـ وما علاقة الجن والخبل (بظلم قريش)

الوليد ـ أخشى أن يكون ولدى قد أصيب بسحر محمد . كان فى صرخته وعبارته ما ينبىء بذلك

بكر ـ غداً نعرضه على الكاهن الاكبر . ما دام لا يريد التحدث بشىء .

ثم قام القوم الى نواديهم ومضاجعهم يائسين من الأمل فى تحدثه اليهم وبقيت أمه بجواره . تعالج فيه مواضع الصمت وتتحسس منه سر هذا الفزع • حتى إذا أنهكه تفاعل دمه • وأضنى به اضطراب نفسه ، إستند إلى حائط حجرته وأغفى قليلا • وأمه ترقب منه ذلك • ثم رأت شفتيه تتحركان فى خفوت • فدنت تستمع اليه فاذا به يقول :

سمية .. سمية .. بأبى أنت وأمى

فبهتت الأم ...!! وراحت تحدث نفسها عن من عساها تكون .. تلك التى يفتديها هذا المعتوه (بأبيه وأمه !!) قبل أن يأخذ رأيهما فى هذه الفدية !! وما دخل قريش فى هذه المعركة الغرامية إلا أن تكون هذه الفتاة مطلبية أو هاشمية (١) ممن حرمت نساؤهم على رجالنا ؟! ولم تشأ أم عمرو أن تخبر أحداً بما يهجس به ولدها . تأجيلا للشر

وتنفس الصباح عن جمهرة من الاهل والأقارب . يتقدمهم الوليد . تحمله عصاه . قد جاءوا ليحملوا ولدهم على الذهاب الى الكاهن ليرى فيه رأيه . فأشاح عمرو بوجهه وقال :

ليس بى يا أبتاه مما تزعمون شيئا

الوليد ـ مابك إذن يا بنى ؟!

عمرو ـ مطأطىء الرأس ـ لا شىء يا ابتاه

الوليد ـ إذن ما الذى حدث بالامس فأقض علينا المضاجع . وسهد منا الجفون

فزفر عمرو فى حزن عميق . ودبول متهافت وقال :

لعلها اضغاث احلام

بكر ـ احلام اليقظة هذه أم ذا ؟؟

ام عمرو ـ ومن « سمية » هذه إذن وما سر هذا النحول الذى نت فيه

---

(١) نسبة الى المطلب وهاشم ...

عمر - مبهوتاً - سمية ؟ ماذا تقولين يا اماه
ام عمر - تلك التى افتديتها بأبيك وامك سلفا !!
وهنا أدرك عمرو أن أمره قد عرف . وانه لا بد وأن يكون قد جرى لسانه بما كشف عن خبيأته . فلم يجاه بدأ من مجابهة الواقع فى وجه الجميع فطأطأ رأسه استحياء وقال :
نعم .. إنى أحبها .. إنهـا عينى التى أنظر بها وسمعى الذى أسمع به . وقلبي الخفاق . وروحى المحلقة فى سماء السعادة
بكر - سمية بنت من هذه ؟
عمرو - سمية بنت عدى بن فهر بن هشم
الوليد - مقاطعاً وصائحا - يا للنازلة !! ابن هشام المطلبى ؟
عمرو - نعم هى بعينها
الوليد - مقاطعا - بعينها ؟! صه يا لـكع . والا اطحت رأسك
عمرو - لان تطيح رأسى أيسر من أحيي بدونها
بكر - ضارعا - إنهامطلبية ياأخاه .. وإن قريشا قدعقدت فيما بينها حلفاً أن لا تنكح من بنى هاشم والمطلب . ولا ينكحوا منا . وألا تبيعهم شيئا ولا نبتاع منهم ، وأن نجافى محمدًا ومن معه حتى يهلكوا . وقد كتب منصور ابن عكرمة لهم كل ذلك فى وثيقة دمغها رؤساؤها وأشرافها . وعلقت بعد ذلك فى جوف الكعبة إشهاداً للآلهـة على ذلك وتوكيداً للحلف فى نفوس الجميع .. فكيف تبنى (بسمية) وأبوك هـذا الواقف واحـد من هؤلاء الدامغين لهذه الوثيقة . كآخر سهم فى كنانة قريش يجاهد محمدا وجماعته

عمرو ـ هذا شأنكم ومحمدا ، وما شأن الوالد لا يعرف إلا وكره يحوم حوله . وإليه يأوى ويسعد

الوليد ـ فى صوته الأجش ـ يا لذل الأبد ولوثة المستقبل ، تنثر قريش كنانتها أياما وليالى وتغلى كل حيلها لحرب محمد وجماعته ، حتى اذا أدركت غايتها أو كادت ، دلفت تنقض ذلك من أجل (سمية !!) قبحت أنت وسميتك فوحق اللات والعزى لن تعرف بناتهم الينا سبيلا ، ولن يعرف ذكراننا اليهن سبيلا . وسوف تحرمهم قريش طعامها وبضاعتها حتى يذوق محمد ومن معه مرارة الحرمان أو يقلع عما يقول .

عمرو ـ وماذنب الذرارى فى هذه الملحمة

بكر ـ ليذوق آباؤهم مرارة الحرمان والبوار

عمرو ـ ناشجا ـ ولكن خيالها لا يفارقنى . وهواها لا يرحمنى . ثم اهتزهزات عصبية عنيفة . وراح يبكى وينتحب . تشاطره أمه واخوته حزنه وبكاءه ، حتى استحال المنزل الى مأتم . وأبوه فوق رأسه والسيف فى يده كتمثال جبار لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا

* * *

ونفدت بضاعة فهد بن عدى . فأخذ يعدد دراهمه مسروراً . ويحصى ربحه مغتبطا . ويستذكر قيمة ما باعه الى أجل . ثم نهض كأنما ينفض عن ثيابه غبار الطريق . وراح يتفقد حالة زملائه من تجار قريش . فألفى اكثرهم على مثل حاله ربحا ورواجا . ثم مر بزميله (مرة) المطلبى فألفاه مهموما لكساد بضاعته ، ينظر اليها كأنها جيفة عفنة . وينظر القرشيون اليه . كأنه دمية فى

سوق العاديات . فوقف على رأسه طويلا لعله يفيق من سهومه أو يدرك أن خلف ظهره من يرقبه ويرثى لحاله . ولكنه لم يفعل • فضغط على ظهره بركبته . فأفاق ثم التفت الى مبعث ذلك • فوجده فهر بن غيث رفيق صباه . وخدين تجارته . فاستجلسه فجلس • ثم ابتدره فهر قائلا :

أأرضاك سوء حالتك . وبوار تجارتك ؟ ماذا دهاك حتى كفرت بدين قريش . وآمنت بهذا الذى آمنت به . وما الذى أصابك من حظ الحياة . حتى تسد هذا الخسار .. قل لى وأبيك من أى صنف هذا الدين . هل هو قوت تطعم منه أبناءك الجياع . أو لباس تستر به عورتهم • أو سلاح ترد به عادية الاعداء عنك .

هذه قوافل بنى عبد شمس ونوفل تتأهب للسفر الى اليمن . وهذه قوافل بنى قصى وزهرة • تعد عدتها الى بلاد الشام . وهذه قوافل أخرى تتهيأ للرحيل الى الحبشة . تحمل الجلود والحبال والتمر . لترده أقمشة وفاكهة شامية ، وأنت على مثل حالك من الكمد والحزن . وبضاعتك على مثل ما ترى من الكساد . وأبناؤك على مثل ما تعلم من الجوع والشقاء . فدعك من محمد هذا . وعد إلى دين قريش ، يعد لك اليسر والرخاء .. إنى فى الواقع لا أدعوك الى حظيرة قريش بلسان الدين وإنما أدعوك بلسان التجارة والانتفاع وإلا فماذا يطلب التاجر من الحياة إلا أن يبيع ويبتاع ويربح ويثرى . فاذا عز عليك يا أخاه أن تعود الى قريش من أجل دينها • فعد اليها من أجل مالها . .

(مرة المطلبى) رأسه هزات التسليم المؤقت ثم قال :

إن ديننا هذا الذى تحدثت عنه . يعلمنا أنه مامن دابة فى الارض إلا على الله رزقها . وان فى السماء رزقنا بقدر معلوم . وان الدنيا مجتمعة لا تستطيع أن تضر أو تنفع إلا باذن الله . وان قريشا يوم تعتقد أنها بهذه القطيعة غالبة على أمرنا . فذلك ماسوف تخفق فيه وتفشل . وانها كلما حاربتنا أثبتنا جدارتنا للبقاء . وكلما عذبتنا طهرتنا وصقلتنا لملاقاة الشدة والبأساء

فهر بن عدى ـ يا لك من مسكين لا يزال بك طائف من سحر صاحبك وإلا فحدثنى عن رزقك الذى فى السماء أين هو وأين مكانه . ورزقك الذى على الله . من الذى تقاضاه عنك . وخلفك محزونا محروما .. ولماذا بارت تجارتك حيث نفقت سواها . وركد ريحك حيث تسير فى ركاب غيرك

مرة المطلبى ـ إن الرزق بلا شك موجود ومعلوم . غير أنه يحبس ويطلق اختبارا وابتلاء من الله لعباده المتقين

فهر ـ ولماذا حبس رزقك دون سواك ؟ بل لماذا كنت أنت فى مكان الابتلاء دون غيرك ؟

مرة ـ لان الله لا يبتلى إلا خيرة عباده . ولا يختبر إلا أشدهم احتمالا وجلدا

فهر ـ اذا صح أن الكساد والفقر مقياس الاحتمال والرضا والمحبة . فانى أعلن منذ الآن تنازلى عن هذا الرضا وهذه المحبة ! !

مرة ـ لكم دينكم ولى دين

* * *

ستيقظت عاتكة الصغيرة قبيل الاصيل على إحساس منها بالجوع ، وراحت تلقى بنفسها على ناحية من أمها « فاطمة » ثم طلبت اليها طعاما . فلما لم تجب الى طلبتها مدت يدها الصغيرة الى وجهها تحوله صوب وجهها لتستمع لطلبتها . ولكن وجه الأم كان غريقاً فى لجج من التصورات والاخيلة الحزينة . فلم ترع لظلامتها بالا . ولم تعط لشكواها أذنا . ثم عادت فاستمعت اليها أخيراً تحت الالحاح والدأب ..

وكم كان قلبها يتمزق لكل مقطع من مقاطع فتاتها فى طلب الطعام حيث لا طعام . ولم يكن لدى الأم المسكينة إلا أن تجيب ابنتها بالمطل والتسويف . ثم تقوم الى رحلها متشاغلة بالبحث عن طعام لها . فتدرج الفتاة خلفها . يشيع فيها السرور المزيج بالبكاء . حتى اذا قسى عليها عامل الجوع ، عادت الى طلب القوت فى شىء من الاجهاش والنشيج . فتعود الأم الى تمثيل الدور من جديد و « عاتكة » تجرى أمامها الى الرحل . تساعدها على البحث والتنقيب . حتى إذا عضها الجوع وقسى عليها ، راحت تبكى وتنتحب . وأمها هائمة حيرى تلبى نداء الدموع بالدموع . بعد أن ضاقت فى وجهها رقعة الفضاء . ولف الكون أمامها بلفاع الأسى والحزن . ولكنها تعود الى مكافحة عواطفها وتجالد نفسها : وتقوم الى مداعبتها بقلب كسير . وتبش فى وجهها بأسارير مستعصية ، وتبتسم لها بشفة ذابلة . والفتاة تضحك باكية . وتمرح عابسة . وتدرج عاثرة

ثم ونيت عنها أمها فى ذلك لحظة بفعل التعب . فتعالى صوت « عاتكة »

بالبكاء . وهى مكبة على وجهها فى حجر أمها ، وأمها لا تجد سبيلا فى التفريج عن نفسها إلا أن تستجيب لدموع بنيتها بدموعها فى صمت . وأن ترد على نحيبها بنحيب مثله أو أحر .

واسترعى طول بكاء الطفلة أسماع بعض المسلمين فى رواحلهم. فتوافدوا يجرون أقدامهم من الجوع والضنك . لا يعينهم على السير إلا روح الايمان. ولا يقيمهم الى النجدة إلا أريحية الاسلام . ثم وقفوا أمام أم لا تجد ما تقوله من شدة التأثر . وفتاة منطوية على نفسها فى حجر أمها . لا تعرف من ألفاظ لغتها إلا لغة الخبز . .

وحلق طائر الأسى على الجميع لحظة يستمعون فيها الى نشيد الجوع . وألحان الظلم الصارخ فى وجوه ضامرة . شاحبة . وعيون جاحظة غاضبة . ترمى بالشرر هؤلاء القوم المتحجرى القلوب

ثم هوى أحدهم على الفتاة فاحتملها يسائلها شكواها وهو يعللها . ويمسح على ظهرها حنانا عليها . ومرح عينيه فى وجهها الذابل ، فكاد يذوب جوى عليها وأسى . ثم أشار على أمها بأن توقد تحت القدر ناراً حتى توهمها بأن هناك طعاما يطهى . فتتعزى به حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . ثم راح يسرى عنها بحديث قصصى فأخذ يقول :

حدثنى أبى عن جدتى أنه جىء لها يوماً بأرنب ولم يكن لديها ما تطهيه به ، فراحت تجلب الماء من العين القريبة منها . فالتقت أثناء الطريق باحدى قريباتها . وأخذت تتحدث معها . ثم عادت تحمل الماء بعد لأى . وكان فى حسابها أن لديها من الوقود ما يكفى للطهى . ولكن خانها فى ذلك زعمها.

فخرجت تحتطب . ثم جاء جدى متأهبا لطعام شهى يشتهيه من لحم الارنب الذى أضناه العدو خلفه حتى أصابه

فاستقبلت خياشيمه بخار المرقة . فأهاجت فيه شهية الطعام وأسالت منه اللعاب . وفتحت فى معدته آفاقا واسعة لا يرد نهمها إلا جفنة من ثريد يستوى فوقهما جثمان الارنب العتيد . ثم نادى زوجه فلم يلب صوته إلا صداه . فأدرك أنها لا بد وأن تكون قد خرجت لبعض حاجتها . فأخذ يذرع حجرته ذهبة وجيأة يستبطىء زوجه • ويهدىء شهوته ويبتلع لعابه. ثم ينفس عن غضبه وقلقه • بالتطلع من كوته • يتسلى برؤية السابلة • ويتلهى بالتشاغل ببعض الشؤون • وهو بين هذا وذاك على أحر من الجمر •• حتى وافت زوجته تحمل الحطب • وتمنى نفسها بأكلة هانئة • فابتدرها زوجها بالسؤال عن سر غيابها فقالت :

ـ كنت أحتطب

ـ وما مآل الضيف الهنىء ؟!

ـ فى قدره بخير !! وها هو الحطب سيكمله طهياً وانضاجا

ـ هيا « يا سوده » فان الجوع يكاد يفتك بى، وها أنذا أساعدك فى تقضيم الحطب وتحطيمه للنار ••

ثم سبقها صوب القدر ودفعه فضوله إلى أن يطل فيه فما لبثت امرأته أن سمعته صارخا

ـ أين الأرنب ؟

ـ الأرنب ؟؟! فى القدر

ثم أطلت بدورها فلم تجده فصعقت فى مكانها . . ثم شاهدا آثار ماء فى خط مستقيم ، فأدركا أن هرا جريئا قد سـطا على الأرنب وراح به ! ! وخلف وراءه أمعاء ملتهبة . ولعابا سائلا وشهوات اسيفة

كان عبد الله المطلبي يقص هذا أمام الفتاة المسكينة الجائعة . ويتخـذ من القدر المعلق على تنوره مثالا لأحاديثه . فتبتسم عاتكة لاشاراته . ابتسامة حزينة تفتر عن شفة جافة . تضىء خلفها أسنان ثلجية مفلجة .

ولكن قارص الجوع لم يدعها فى أحلامها طويلا ، فغدت تدرج صوب أمها وتسـائلها عن السويق (١) ولم تجد أمها ماترد به عليها بعـد كل هذا الاصطبار فبكت عاتكة من جديد

فأهاج حالتهما شجاعة عبد الله . فغادر رحلهما صوب مكة . معتزما أن يأتى لهما بطعـام مهما كلفه ذلك . فلمحته حراس الشعاب من قريش ووضعوه تحت رقابتهم. فأدركوا سر نزوله إلى مكة . فأحاطوه برقابة شديدة حتى لايمكنوه من الحصـول على مايريد . ولما أدرك عبـد الله منهم ذلك وقف فى وجههم غاضبا ناقما . متحفزاً لكل ماتأتى به المقادير وقال

أتظنون يامعشر قريش أن مثـل هذا الاعنات يفل من عزمتنا . أو يوهن من إيماننا . لا والله . إن الايمان غذاء الجـائع . ورداء العارى . وقوة الضعيف . وانكم إن وصلتم بهذه الأسلحة إلى إرهاقنا وتجويعنا فلن تصـلوا إطلاقا إلى إيماننا الذى فى قلوبنا. وإذا كان ايمان الكبار ذنبا . فما ذنب الذرارى الصغار تموت جوعا

---

(١) طعام يشبه الدشيشة اليوم عند البدو

هذه (عاتكة) الصغيرة بنت حكيم تتضاغى فى حجر أمها جوعا . وتتلوى ألما . ولا منقذ لها إلا أوراق الشجر يأكل منه الكبار ويعافه الصغار . . ماذنب هؤلاء وما جريرتهم وهم بنو أخوالكم وعمومتكم . . إن من يمت منا فسوف يموت شهيدا . ومن يعش فسوف يذيق قريشا من النكال

عكرمة — ليت شعرى ! ! ومن عساه يعيش بعد هذا الحصار المحكم

عبد الله — إن الآجال محدودة والارزاق مقدورة . ولن تستطيع قريش مجتمعة أن تضر أو تنفع بغير إرادة الله

. . واجتمع الناس على هذا التلاحى من كل صوب . وتأثر أحدهم ورق لحال (عاتكة) الصغيرة وما روى عنها . فدس فى جيب عبد الله قطعة من الخبز القديد خلسة

ثم عاد عبد الله إلى رحله وقد أنهكه العناء . وأذهله الجوع . فأخرج قطعة الخبز القديد فى يده . وما كاد يقضم منها قضمة حتى سمع بكاء عاتكة من خلف الخيام ففتح فاه مستذكراً إياها . نادما على نسيانه أمرها . ولو أن ما بفمه يصلح لطعامها لبذله لها . ثم حمل الباقى اليها وقدمه لها . ثم راح يداعبها حتى نامت مؤثرا طعامها على طعامه . وسلامتها على سلامته .

٢

« ولقـد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه »
« بشر ، لسان الذى يلحدون اليـه »
« أعجمى . وهذا لسان عربى مبين »

قرآن كريم

وصاح عكرمة فى المجتمعين صيحة زائرة وقال :

وما ثمرة هذا الحصار طيلة العام مادمنا نتطوع بحل عراه فى مثل هذه الاشهر من كل سنة . بعد أن يكون قد بلغ الضيق بالمسلمين غايته ، والجوع نهايته ، وأصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار . . وهاهى نيرانهم بين الشعاب تحدث ألسنتها أجواز الفضاء . ويشع ضوؤها على وجوه طافحة بالبشر والرفاء . . وهاهو الأفق يردد أصواتهم بالتهليل والتكبير . انتظاراً لما يأتى لهم به الغد من رد حريتهم . والحصول على مآربهم ولقاء الناس من أطراف البلاد

الوليد بن المغيرة — ولكنها الأشهر الحرم !! تنام فيها الخصومات وتحقن فيها الدماء . وتبرد فيها الأحقاد . منذ القدم احتراما للآلهة

عكرمة — وفى سبيل الآلهة نقوم بتعذيب أخوالنا وأبناء عمومتنا . فيجب أن يظل التعذيب قائما . والحصارمشرعا حتى يعود هؤلاء المارقون إلى صوابهم . أو يموتون

النضر بن الحارث — دعهم يتنفسون فانى قد سمعت من حكم الفرس

أن الضغط يحدث الانفجار . وأن شدة الظلم تؤلف بين قلوب المظلومين. فلولا مثل هذه الأشهر . يعود فيها المسلمون بعد الحرمان والشقاء . إلى حياة النعيم والهناءة . لرمونا بآخر السهام وقامت الحرب بيننا وبينهم على ساق وقدم . ولعل في عودهم إلى الحياة الرافلة . والعيش الرغد . ما يحببهم في مصانعة قريش . حتى لا يتعرضوا لمثل ما تعرضوا له من النفي والتعذيب والمقاطعة . ولا تنس بعد ذلك أن هناك من أصهار المسلمين وأبناء عمومتهم من يرى في صحيفة المقاطعة ظلما فادحا، وقسوة منكرة لا مبرر لكل ضروبها العاتية . فلولا فترة التنفيس عن المسلمين في الاشهر الحرم . لثار الكثيرون على نظام هذه الصحيفة . وتواطأوا على الخروج عليها أو تمزيقها

عكرمة — ولكن محمدا وجماعته سيتحينونها فرصة سماحة . ويعودون إلى طرائقهم في مطاردة الحجاج وملاحقتهم . وإيذاء أسماعهم بالنيل من عقولنا وآلهتنا دون مراعاة لحرمة هذه الأشهر التي ما هيئت إلا لعبادتها وتقديم القرابين لها . فيكون كمن ينال من مضيفه وثوقا من كرمه

النضر بن الحارث — وكيف يرتكب مثل هذا الشطط ونحن شهود أحياء . . علينا أن نخوف الوافدين إلى مكة من أطراف البلاد شره . وأن نحذرهم سحره . وبهذا نفسد عليه أمره

الوليد — كأننا سنزحف إلى الهوة التي وقعنا فيها باختيارنا . دون أن نتعظ من حوادث الماضي القريب . فان الالحاح على الحجاج وملاحقتهم والتعرض لطريقهم ، قد أحدث في الماضي من الشجار والتلاحم ما أحال الموقف إلى أعظم دعاوة لقضية محمد

النضر — لعل هذا كان ثمرة الاستحماس فى التبليغ والمبالغة فيه . وعدم الحكمة فى اتخاذ الوسائل السديدة الموفقة . فاذا ما اتبعنا خطة الكياسة والحكمه . أفسدنا على محمد قصده وأمره . دون أن ننتهك حرمة الأشهر الحرم .

ثم ساد المجلس صمت عميق أحس خلاله كل واحد منهم بثقل الواجب ووطأة مايتطلبه الموقف من الحكمة واصطناع الملاينة . ثم عرك النضر بن الحارث بعض أسنانه ببعض ، حتى سمع لها صرير قاس ، ثم تنفس حارا . وزفر يائسا وقال :

لو أن محمدا هذا يرتفع بديانته — على الأقل — من وضع العبيد والأحرار فى سواء واحد ، ويكف عن تقبيح الخمر ، وتشويه الكهانة ، وتسفيه الربا والميسر ، لكان لديانته بعض الحظوة . ولكنه يسمح لمثل بلال أن يجالس أبا بكر ، ويغرى عامر بن فهيره على مناقشة سيده الطفيل بن عبد الله الازدى ، ويحرض أبا فكيهة على احتقار مالك عنقه صفوان ابن أمية . ويقبح الخمر وعنده عمر بن الخطاب وقد كان يشربها حتى يترنح ثم يشوه الكهانة والكهان وهم شفعاؤنا ، ويسفه الربا والميسر . وهما ثروة لا ينضب له معين . ثم لا يكتفى بهذا بل يحذرنا من شر يوم عبوس مستطير ويفزعنا فى وصفه بآيات هى أشد فى وقعها من الشر والفزع الذى يصف . . وإلا فهل سمعتم فى شعر الأولين وبلاغة الأقدمين وصفا ليوم كهذا الذى يقول فيه محمدا « يوم تكون السماء كالمهل ٠ وتكون الجبال كالعهن ٠ ولا يسأل حميم حميا . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه

وصاحبته واخيه وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى • نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى »

نبيه — بل هناك ماهو أفدح من ذلك وصفا إذ قال « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية . قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية »

ثم سكت نبيه وأخذ يستذكر بقية الآية . ففتح الكل عيونهم التى كانت مغمضة خلف عالم من جمال القرآن ثم نظروا إلى نبيه نظرة المستزيد ولكن ذاكرته كانت قد خانته . فأنقذ الموقف اخوه منبه وأكمل قائلا :

(ما أغنى عنى ماليه. هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون)

ثم سكت منبه بدوره فاستفاق السامعون لا تدرى أمن سكرة التلاوة أم من وقع العبارات وتصويرها لهذا الفزع ، ثم طأطأوا رؤسهم، كأن متعة الاستمتاع أوشدة الوقع قد أثقلتها ، فلم يعودوا يستطيعون حملها . وكأنها غريقة فى بحر لا يجيد فيه السباحة . فأسلمت قيادها لاتجاه الأمواج، دون أن تنبس ببنت شفة ، خشية بعضهم بعضا

وكأن ذلك قد أحرج صدر أمية بن أبى الصلت وأثار فيه كامن الحقد

والحسد ، فاحمر وجهه ، واتقدت عيناه ، ثم زفر زفرة ملتهبة وقال :

هذا هو محمد الذى لم يتنبأ لنفسه بوجود ، يصبح راوية لمثل هذا الكلام العجيب ، بينما أنا الذى تنبأت بوجوده قبل أن يوجد لا يهبط على مثله ، وانى لأقسم غير حانث لو أن هذا الكلام من عند إله حكيم لاختارنى لروايته وفضلنى على كثير من خلقه

الوليد بن المغيرة — وهل كان ينزل على محمد مثل هذا الكلام وأترك كابرا وسيدا لقريش ، أو يترك أبو مسعود عمرو بن عمير سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين (١)

أبو لهب — وحقك انه لم ينزل عليه شيء ، إنما يعلمه (جبر) النصرانى ، أكثر مايرمينا به

نبيه — لكن جبرا ذو لسان أعجمى وهذا لسان عربى (٢)

***

ولفت نظر الدعاة من قريش رؤية رجل مهيب الطلعة واسع العينين مدبب الانف ، تتعارك فى رأسه ولحيته فلول الشباب بوفود المشيب ، قد استوقف ناقته عند مالاحت له الكعبة ، ثم وضع يده على صدره وانطوى على نفسه ، ايماءة الاحترام والتقديس ، ثم ترجل وخلفه ناقته تتابع سيره ، وتتقيل خطاه ، كأنها تحاكى خشوعه وتواضعه ، ثم دنا بالقرب منه شاب

---

١ ـ وفيهما نزلت الآية الكريمة « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا »

٢ ـ وفى هذا نزلت الآية الكريمة المنشورة على رأس هذه الصورة

قرشي وهمس في أذنه وأطال الهمس ، فنظر الشيخ اليه من زاوية عينيه وتابع سيره دون أن يرد على محدثه بكلمة واحدة ، فعاد الشاب إلى محدثه في مبالغة من الرقة والادب ، فأعاره التفاتة غاضبة وتابع سيره دون أن يرد أيضا ، فنظر الشاب إلى رفيق له يتابعه عن بعد ، نظرة استعانة ، فتجاهل الرفيق أمره وتباله عليه ، ثم عاد الشاب الى الالحاح على الشيخ يبدى على مسمعه ويعيد ، فانفجر الشيخ في وجهه وقال :

لعلك لا تجهل أنني شاعر لبيب ، وأستطيع بمحض فطنتي أن أفرق بين السحر والحقائق ، فيما لو قابلني هذا الذى تخبرني عنه ، دون حاجة إلى مرشد .

عكرمة — لا كان من يتهمك بغير ذلك ، ولكنا وقد جمعتنا في الموسم محبة هذا البيت وساكنيه ، فما علينا من بأس حين نبذل النصح ونحذر من الشر

الطفيل — أستطيع أن أكرر لك أنني شاعر وحكيم . ومن كان هذا شأنه يكون من أشد الناس غنى عن النصائح

ثم سار في محاذاة الكعبة يطوف بها مطرقا ، ولعله كان يحدث نفسه عن من عساه يكون هذا الذى حمل قريشا على أن تحشد ضده كل هذه الحملات ؟ لا بد وأن يكون ذا شأن . ولا بد من أن أتعرف اليه . وبينما هو يطوف ، ألفى ملأ من الناس مجتمعا وقد وقف بينهم رجل متكهل تفيض عينيه إيمانا والناس حوله بين مستهزىء ضاحك ! ! وبين مطأطىء الرأس خاشع ، كأن على رؤوسهم الطير ، فأدرك أن هذا هو الرجل الذى تحدث عنه

الشاب . ثم دنا منه وتسمع . فأنصت وأنصت طويلا . ثم سرح نظره فى الفضاء وغاب . ثم هز رأسه إيماء بالرضا والارتياح . ثم أطرق إلى الأرض وكأنه عاد إلى نفسه يلومها على مافات من أجل . ونفد من عمر . فى عالم من الشعر بعيدا عن هذا الرجل ! ثم عاد إلى إطراقته وكأنه يحدث نفسه قائلا

واثكل أمى . . والله إنى لرجل لبيب . مايخفى على الحسن من القبيح وما على من بأس فى متابعة هذا الرجل حتى أعرف خيره وشره . فانه يقول كلاما فوق الحكم قوة وبيانا

ثم أنهى رسول الله حديثه مع الناس . وسار صوب بيته يتبعه بعض صحابتـه . وخلفهم الشاعر الأريب يقود ناقته فى إطراقة عميقة . لا يرفع رأسه إلا ليرى اتجاه رسول الله حتى لا يضل خلفه . ويكاد لا يسبح بخياله إلا فى عالم من المعانى السامية التى سمعها

ثم دخل رسول الله داره فدخل خلفه والكل ينظر إلى هذا الذى لم يروه قبل ذلك . ولعلهم سمعوا به ولا يعرفونه . ثم جلس بين يدى الرسول يستقرئه القرآن . ورسول الله يتلو عليه ماتيسر منه . والشيخ لا يتمالك نفسه من الاهتزاز والترنح على وقع آياته . وجرس عباراته . فشجعت حالته رسول الله على أن يعرض عليه الاسلام ، فأسلم . ثم قام بعد أن سلم على الجميع . ثم تساءلت الصحابة من عساه يكون هذا ؟ ! فأجاب على :

هذا شاعر العرب وحكيمها الطفيل بن عمر الدوسى

فقفزوا جميعاً من شدة الفرح به . وراح بعضهم يهنىء بعضا باسلامه

* * *

وكان الواقف عند الشعاب يرى شبانا من قريش يتنادون ويتواثبون ثم يقفون هنيهة، ويسألون بعض السابلة، ثم سمع بعضهم يقول لبعض لقد صعدوا فوق هذا الشعب ثم هبطوا عند هذه الوهدة. فيرد ثالث ويقول بل انعطفوا من هذه الربوة، واستقاموا بعد ذلك إلى داخل مكة. فيجيب رابع ويقول: وإذن فلا فائدة من البحث خلفهم. والعدو نحوهم. ماداموا قد دخلوا إلى أفنية مكة ويمموا صوب الكعبة. فأغلب الظن أنهم قد اتصلوا به. وبدأ سحره يسير فيهم. فقال خامس: لقد حدثنى واحد ممن سألته عنهم، فقال: انه يغلب على ظنه أنهم لم يفدوا إلى مكة للحج. ولكنهم جاءوا ليشهدوا محمداً بعيونهم ويروه بأنفسهم. ويجادلونه فى دينه الذى يزعمه. وأنهم من نصارى نجران

عبد شمس — إذن ستكون بينهم وبين محمد ملحمة عاصفة. لأنهم أهل كتاب. أخذوا عن رهبانهم أخبار الأولين وأسرار الآخرين. فهيا إلى البحث عنهم حتى إذا كان النصر حليفهم. حصنا (١) فى وجهه، وأيدناهم فى حقهم عليه

ليث — وماذا يعود على قريش فى نصرتهم على محمد. أو ماذا يضرها من نصرة محمد عليهم. هؤلاء إن صح أنهم نصارى ثم انتصروا كان ذلك لهم ولمن أرسلوهم لا لقريش ولا لآلهتها. وإن خذلوا، لم تفقد قريش شيئا لأنهم ليسوا منها ولا يدينون بدينها

عبد شمس — ولكن انتصار محمد عليهم. واقناعه إياهم. لمما يؤيد دعوته،

(١) ثرنا

وبطل قضيته . ويذيع رسالته . سيما وهم أهل كتاب . وذوو علم بأنبا الأنبياء . وأخبار الرسل . فاسلامهم بلا شك سيكون سلاحا جديداً

ثم نظر عبد شمس عن بعُد وحدد بصره صوب مكة ثم قال :

أليس هذا القادم هو سعيد بن حكيم ؟ ؟

فنظر الكل اليه دون أن يجيب أحد . ثم قال ليث :

لاشك أنه هو . . وأنه لابد وأن يكون قد حدث داخل مكة مايكدر . فان وجهه ينطق بالغضب ويقطر بالغيظ . ثم صاح به أحدهم :

(ما وراءك ياعصام ؟ !)

فلم يستطع سعد أن يرد على ليث لبهر (١) أنفاسه ، وشدة غيظه . . ثم انفجر فى وجه الجميع وقال :

أين كنتم حين دخل هـذا الركب من النصارى يسألون عن محمد ثم يتصلون به بهذه السرعة الخاطفة . دون أن يلقاه منكم أحد !

ليث — فى الحق انها ليست إلا مفاجأة عجيبة تلك التى تمت فى سويعات بين سؤالهم عن محمد . وعلمنا بأمرهم . وخروجنا للبحث عنهم واتصالهم به فى مثل هذه السرعة . . ولكن حدثنا ماذا تم فى أمرهم معه

سعد — ماذا تم ؟ ؟ وهل يتصل بهذا الرجل أحد ، ثم يدعه يقوم قبل أن يسحره

ليث — خيبة الله عليهم من ركب بعثهم من وراءهم من أهل دينهم ليأتوا بخبر الرجل . فلم يطمئن مجلسهم عنده . حتى فارقوا دينهم وصدقوه

(١) تردد الانفاس بسرعة

- ٢ -

« يا أهل مكة أنأ كل الطعام ونلبس »
« الثياب وبنوهاشم هلكى لا يبتاعون»
« ولا يبتاع منهم! والله لا أقعد حتى »
« تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة »

زهير بن ابى أمية

ولم يكن يخالط النوم جفنيها الساجيين إلا لماما . ترصد النجوم . وترقب طلعة الفجر لتقوم في جوف الظلام بأداء مهمتها التى اعتادتها

ونهضت (أسماء) قبيل الفجر . تجمع عليها ثيابها . لتغادر حجرتها والكل نيام حولها ، فى خفة الأرنب . ومرور الطيف . دون أن تحدث من الحركات مايوقظ النوام . وفى سويعات معدودة كانت أمام منزل حكيم ابن حزام تستنجزه طعام عمته خديجة بنت خويلد، قبل أن يستيقظ حراس الطريق المؤدى إلى المسلمين . وتستودعه طعاما لأبيها أبى بكر . ثم عادت أسماء قبل الشروق إلى بيتها تتسلل متئدة . ولكن أزيز الباب فى مثل هذه الساعة كان أعلى من أن تحتمله الآذان وقد شبعت أوتارها بالهدوء والراحة فتحرك أبو قحافة فى فراشه ثم تسامع إلى مصدر الأزيز . ثم أعاره انتباهه ثم جلس استعدادا لمعرفة سر ذلك فى مثل هذه الفترة التى لا يزال يسمع فيها غطيط النائمين . فى جو يسوده الصمت ويكسوه الهدوء . فسمع وقع أقدام تدنو من أذنه ويتزايد وقعها هنيهة بعد أخرى يصحبها حفيف ثياب فصاح

من القادم ؟

فتوقفت أسماء عن السير والاجابة وراحت تحدث نفسها. أترد عليه فتكشف عن أعمالها الستار. وقد تبوء منه بالغضب. أم تلوذ بالصمت فيهتف بالخدم والعبيد. وتثور فى البيت عاصفة قد تنتهى بنفس المصير ؟؟ النتيجة إذن واحدة. ومن العبث أن أظل فى مكانى صامتة.. مرت هذه الخواطر فى رأس « أسماء » الصغيرة مرورا سريعا. ثم بادرت باجابة جدها. قبل أن تعتوره الشكوك. فيحتد عليها ويستغيث بمن فى المنزل. فراح يسائلها وهى تجيب الى أن قال لها :

وأين كنت خارج الدار فى مثل هذه الساعة ، وماذا كنت تصنعين ؟ ياللهول !! تحدثى.. مالك وقد أصابك العى يابنت أبى بكر. أما يكفى مارزئناه فى أبيك حتى تعاجلينا برزء جديد !!

فاستيقظ من فى المنزل. وتداعوا لمعرفة النبأ. ووقفوا ينظرون إلى أبى قحافة محتداً ضاربا راحة بأخرى. ثم إلى أسماء الصغيرة. مطرقة الرأس صامتة. لاتريد البوح بسرها. ثم هتف أبو قحافة (بحبيبة) أمها. فلبت نداءه. ووقفت بالقرب منه ثم سبح بيده فى الفضاء يتلمسها نحو مبعث صوتها فمدت يدها اليه. فأخذ بمعصمها وقال فى مضض :

ليت أمى لم تلدنى يابنتاه حتى لا أوجد فى مثل هذا الجحيم !! غرر (محمد بن عبد الله) بولدى حتى حرمتهم قريش الخبز والأدم. ففجعنا فيه. ومنينا بفراقه !! ثم أستيقظ اليوم على صرير الباب تدخل منه بنيتك أسماء فى مثل هذا الوقت ، ولا أدرى أين ذهبت ولا من أين جاءت. ثم لا تريد

أن تنبئني ولا أن يذهب بسرها أحد . فضايق أسماء حروجة الموقف وقد ارتسمت علائم الاستغراب والدهشة على وجوه الجميع . فأجابت جدها في نبرة خانقة وقالت :

لم أخرج ياجداه في مثل هذه الساعة إلا .. ثم سكتت تمسح دموعها

ابو قحافة ـ محتداً ـ الا لماذا ؟؟ تحدثي يا لـكيمة

أسماء ـ الا لأرسل طعاما لأبي الذي يكاد الجوع يفتك به ومن معه . لولا حنين ذوى القربى وأريحيتهم يبكرون إلى إرسال بعض الطعام عند الفجر اليهم قبل أن تستيقظ قريش لحراسة الطريق المؤدى إلى الشعاب

أبو قحافة ـ غاضبا ـ طعام ؟! ويح بنت أبي بكر . وكيف ترسلين طعاما دون علم مني بذلك . ومنذ كم من الأشهر تفعلين هذا ؟ وماذا تقول قريش . وقد عهدتني رجلا يحترم وعده وموثقه . ألآن بصري قد كف ؟ ؟ أم تجاهلا لوجودي بينكم !

أسماء ـ باكية ـ وماذا جنى ـ ياجداه ـ هؤلاء المساكين . حتى يحكم عليهم بالقطيعة . والموت جوعا ؟! وإذا كانت قريش ظالمة . فكيف نتطوع بعونتها على تحقيق الظلم . والتمادى فيه ؟!

أبو قحافة ـ أى بنيه . لعلك لاتعرفين ماذا فعل هؤلاء حتى استحقوا ماهم فيه من ذل وجوع وتشريد وعناء . هؤلاء قد سفهوا عقولنا وسبوا آلهتنا . وفرقوا كلمتنا . وأثاروا الفتنة في كل منزل وناد .

أسماء ـ لقريش أن تتجرد من قلوبها وتفعل بهم ما تشاء . . ولكني

لا أستطيع أن أتجرد من قلبي وحبي لأبي ومن معه لأجله ..

أبو قحافة — هادئا — وما وسيلتك اليهم يا بنيـة والطريق وعر والمنافذ ملتوية

أسماء — منذ أكثر من عام وأنا أمدهم بما أستطيع من طعام تارة على قدمي وأخرى فى رحل هشام بن عمرو بن الحرث . يأتى بالبعير قد أوقره طعاما ثم ينزع عنه خطامه ثم يضرب به على ابطه فيسابق الريح حتى يصل الى المسلمين تحت ستار الظلمة وفى غفوة من قريش

ابو قحافة — هشام بن عمرو ؟! . يا للخطب لقد انتقص الصحيفة من أطرافها وخان العهد والميثاق

أسماء ـ واليوم خرج حكيم بن حزام بن خويلد بطعام لعمته خديجة . فالتقى به أبو جهل وتعلق بما معه وقال له: والله لا تبرح مكانك حتى أفضحك . فتناقشا وتشادا وتداعى الناس . وجاء أبو البخترى بن هشام وأخذ يؤنب أبا جهل على موقفه ويقول : مالك وإياه . عنده طعام لعمته . أفتمنعه أن يحمله اليها ؟ خل سبيله . . فأبى أبو جهل عليـه ذلك . فهوى عليه ضربا بلحى (١) بعير حتى شج رأسه

وأخذ يطأه بقدمه وطأ شديدا . ولم يكن ذلك بأشد عليـه من رؤية حمزة بن عبدالمطلب له وهو على هذا الحال يشمت به ويضحك منه. ويحمل خبره الى المسلمين فى الشعاب

---

(١) جلد بهم جاف

ابو قحافة ـ يا لها من فتنة شعواء . قريش تقاتل نفسها ، ومحمد وأصحابه يشرفون على ذلك من أعلى الجبال .

***

وهناك بالقرب من الصخرة العالية « بخطم الحجون (١) » جلس الاربعة فى انتظار هشام بن عمرو وأخذ زهير بن أبى أمية يقص على جلسائه قصة دامية تدور حول فتـاة صغيرة أيقظها الجوع فى جوف الليل البهيم وراحت تبكى من قارص الالم . وأمها ترد على بكائها بيكاء . فتارة تشعل ناراً تحت القدر إيهاما بوجود طعام تحت الطهى والانضاج . وتارة أخرى تقوم الى متاعها فتتظاهر بالبحث فيه عن خبز وقديد ، حتى جيء لها باناء فيه مزق (٢) فكادت تلتهمه التهاما من حرارة الجوع

كان زهير يقص على مستمعيه قصته بين أصوات الأسى ورنين الحزن لما وصلت اليه حالة المسلمين من أخوالهم وبنى عمومتهم . وما كاد زهير ينتهى من قصته حتى أخذ المطعم بن عدى يقص قصة أخرى عن مطلبى (٣) كان يسير فى سوق مكة تحت أسمال بالية ، ومزق مهلهلة ، يشع من خلالها جسم عاره . وفتوة حادة . والدراهم فى يده يريد بهـا رداء يستر به بدنه البادى يجمع عليه الخرق بيديه ؟

وكلما أحس القرشيون بنسبته الى بنى المطلب أشاحوا بوجوههم عنـه وامتنعوا عن البيع . وتنكروا فى حديثهم معه وأغلظو له الكلم

(١) مكان باعلى مكة (٢) لبن ممزوج بالماء

(٣) بتشديد الطاء نسبة لبني عبد المطلب الذين يناصرون المسلمين

وعقب البخترى بن هشام على حديث صاحبيه بقصة « عامر بن سعد » الذى أصابته نوبة من الخبل لامتناع (أبى دلامه) القرشى عن تزويجه ابنته (شميشة) التى كانت مخطوبة له من قبل. لا لشىء. إلا لأنه دخل مع أبيه فى حلف بنى عبد المطلب . وخروج على قريش وعهدها

زمعة بن الاسود — فى الحق انه لميثاق جائر وعهد ظالم . وصحيفة قاطعة للاهـل والرحم . وانا لمدينون جميعا بفضل هـذا الاجتماع الميمون لهشام بن عمرو الذى لم تيئسه وحدته عن التفكير والعمل على ابطالها وتمزيقها رحمة بأبناء عمومتنا وأخوالنا المشردين منذ ثلاث سنوات كوامل .

زهير ـ لقد وافانى هشام فى منزلى والأسى يملأ صدره والغيظ يطل من عينيه وقال لى : أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت ؟؟

أما أنا فأحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم (١) ثم دعوته الى مثل مادعاك اليه ما أجابك أبداً ، فقلت له وماذا أصنع وما أنا إلا رجل واحد وو الله لو كان معى رجل آخر لنقضتها

فقال ـ قد وجدت رجلا فقلت ومن هو ؟

قال أنا . فقلت ابغنا ثالثا .. ولعله فعل معكم مثل ذلك . حتى استطاع أن يجمعنا الساعة لاداء مثل هذا الواجب الكريم

ابو البخترى ـ يظلل عينيه بيده ويقول

أليس القادم هشام ؟ تأملوه . أليس هو ؟؟

---

(١) أبو جهل

أصوات ـ هو برمته على بعيره المحجل

المطعم ـ ياله من بعير مبارك !! ثلاثة أعوام يحمل الزاد فى منعة العقاب وسرعة النسر ، الى أخوالنا فى الشعاب ولم يصب بنقب ولا دبر

زمعة ـ لا . بل قد نمى وترعرع

ثم وافاهم هشام فقاموا له احتراما . ثم بادرهم بالاعتذار عن تأخيره . ثم قال : ان قريشا تأبى إلا مضايقتى وملاحقتى لاستطلاع أخبارى وتعرف حركاتى وقد أبيت إلا أن أضللهم . ثم تفاهموا على طريقة نقض الصحيفة فى مواجهة الجميع .

***

غدت قريش إلى أنديتها . وجاء زهير بن أبى أميـة . ووافاه اخوان مجلسه الأربعة . وراح يطوف بالبيت حتى أتم طوفاته . ثم نظر عن يمين وعن شمال . واعتلى مرتفعا من الأرض وصاح :

يا أهل مكة : أنأكل الطعام . ونلبس الثياب . وبنو هاشم هلكى . لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟! والله لا أقعـد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة

فسمع زهير من خلفه صوتا مبهورا يقول له (كذبت . والله لا تشق) فالتفت اليه يتبينه فاذا به أبو جهل . ولكنه لم يكد ينظر اليه حتى سمع صوت زمعة بن الأسـود يقول لأبى جهل : أنت والله أكذب .. مارضينا بها حين كتبت

أبو البخترى ـ صدق زمعة . لا نرضى حقا بما كتب فيها

المطعم ـ صدقتما وكذب من قال غير ذلك

هشام بن عمرو ـ هذا والله ماتنادى به الرحمة فى كل مكان . وما تنبض به قلوب الجميع .

وقف أبو جهل يستمع إلى هذه الأصوات المتلاحقة وينتقل برأسه الى مبعث الأصوات واحداً بعد آخر ، فكان كالهدف يتلقى السهام من كل ناحية فطأطأ رأسه . ثم عاد فهزها مرات ثم قال :

لاشك ان هذا أمر بيت بليل

ثم صاح المطعم فى المجتمعين . . على بالصحيفة حتى أمزقها أو أن أذهب لتمزيقها

أبو طالب ـ على رسلك !! لقد مزقتها قبلك الارضه

فضحك بعض المشركين استهزاء منه .

أبو طالب ـ لقد أخبرنى ابن أخي . وهو عندى صادق أمين . أن الأرضة أكلت ما فيها من قطيعة رحم وظلم . وتركت اسم الله تعالى . فأحضروها بين هذا الملأ . فإن كان صادقا علمتم أنكم ظالمون لنا قاطعون لأرحامنا . وإن كان كاذبا علمنا أنكم على حق وإنا على باطل . فقاموا اليها سراعا يتدافعون بالسوق والمناكب . ثم وقفوا أمامها فاغرى الافواه مذهولين . ثم عاد أحدهم يقيتها يقلبها فى يده متعجبا ، والكل خلفه كأنهم فى مأتم . فتناولها أبو طالب ثم رفعها فى يده وصاح :

الآن قد تبين لكم أنكم أولو الظلم والقطيعة

فنكسوا رؤوسهم ثم تنفس أحدهم وقال معترضا

انكم تأتوننا بالسحر والبهتان فى كل مكان ! !

فأنشد أبو طالب يقول :

جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا على ملأ يهدى لحزم ويرشد

قعوداً (بخطم للحجون) كأنهم مقاولة بل هم أعز وأمجد

أعان عليها كل صقر كأنه إذا ماشى فى رفوف الدرع أجرد

طويل النجاد خارج نصف ساقه على وجهه يسقى الغمام ويسعد

كثير الرماد سيد وابن سيد يحض على تقرى الضيوف ويحشد

قضوا ماقضوا فى ليلهم ثم أصبحوا على عهدهم والناس فيها رقد

هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا وسر أبو بكر بها ومحمد

* * *

علم المسلمون وحلفاؤهم من بنى هاشم والمطلب بأمر تمزيق الصحيفة . فكبر المسلمون تكبيرات رددتها أجواز الفضاء . ورددها معهم حلفاؤهم مشاركة لهم فى انتصار قضيتهم على ظلم قريش وعسفها . ثم راحوا يحزمون أمتعتهم . ثم أخذوا طريقهم إلى مكة فى مثل مهرجان العيد . وليالى النصر يكبرون ويهللون . ولم يكن هناك من لا يشع من عينيه السرور . ولا تنطق حركاته بالجذل والحبور . إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . يسير وسطهم كالهالات حول القمر . والسديم حول الشمس . لا يستخفه الطرب ولا يطير به الجذل . يجوز العقبات إلى سواها . ويحطم حلقاتها إلى غيرها أشد التواء . وأصعب مكسراً



وسط عاصفة من الكفاح العنيف ،
افتقد رسول الله عمه أبا طالب وزوجه
خديجة فى عام واحد ففقد بفقدهما
درعه بين قومه ، وريحانته فى راحته

١

« ما نالت منى قريش شيئا أكرهه »
« حتى مات أبو طالب »
حديث

زحف الليل بجيوشه الساحمة . وأمست أبنية مكة فى حجر الطبيعة كالعجائز تلفعت بالصمت . وانحنت على نفسها من رهبة الليل وسكونه ووقفت الجبال حول مكة وقفة الحراس الجبابرة تبعث بالرعب . وتوهم بالرجفة والفزع

ولم يكن يشق الظلام إلا ذبالة زيت ضئيلة فى إحدى زوايا دار الندوة كأنها أنفاس مريض متقطعة . وقد أخذت تستقبل الوافدين عليها من أشراف قريش وسادتها . والكل مطرق ساهم . حزين واجم . لثقل ما يحمل من هموم وأحزان .

حلق الصمت فى سماء المجلس . حتى شق سكونه صوت أبى جهل فى رنة حزينة ، وجرس متداعى النبرات متهدج وقال :

ـ قضى الأمر . وتمزقت (صحيفة القطيعة) لهؤلاء الخوارج على دين قريش وآلهتها . وعاد محمد وجماعته إلى سنتهم المنكرة فى الدعوة لدينه . والحملة على قريش وآلهتها وأحلامها . وراح يعرض نفسه على الوافدين للتجارة . والقاصدين للحج . ومثل هذا له أثره السىء على أذهان الناس .

وقد يتزايد الموقف تعقيداً وسوءاً، لوكان مرض أبي طالب ـ الذى علمت ـ مرض موت . فاذ ذاك نلتقى والمسلمين وجها لوجه . وعلى رأسهم عمرو وحمزه . وهما من تعلمان شكيمة وعصبية . فأرى أن يذهب رهط منا للمرة الأخيرة إلى أبي طالب . لعله يرعوى عن حمايته . أو ينصح لابن أخيه بالعدول عن دعوته . سيما إذا ألفى نفسه على حافة القبر . وهو حاميه وناصره دون أعمامه .

شيبة بن ربيعة ـ وماذا يستطيع أبو طالب أن يفعله مع ابن أخيه مع مرضه . وليست هذه أول شكايتنا منه فى تسفيه أحلامنا . وسب آلهتنا . وتشقيق ذات بيننا .

أبو جهل ـ الأمر أجل من أن يسكت عليه بعد كل هذا ياشيبة. قبل أن يبتزونا أمرنا ، على أن شكايتنا بالأمس لم تكن إلا مجرد رغبة . أما اليوم فسوف تحمل فى طياتها الوعيد والانذار الشديد ، مماسيحمل أبا طالب على التفكير الجدى فى خطب ابن أخيه قبل أن يحل به مانحن عليه عازمون على أن فى شكايتنا إلى أبي طالب اليوم ، معنى عيادته فى مرضه . وفى هذا إصابة عصفورين بحجر واحد

أمية بن خلف ـ وماذا اعتزمتموه فى حالة رفضه ماتطلبون ؟

أبو جهل ـ لانريد أن نبحث فى هذا حتى نعلم جواب أبي طالب بالرفض أو القبول . وإذ ذاك نصف الدواء للداء . والذى نريده الآن هو معرفة من سيذهبون إلى أبي طالب

* * *

أخـذت الشمس طريقها إلى كبد السماء . وأضـحت ترمى بحرارتها الجبال والحصباء . فتساهم فى ارتفاع الحرارة فى أفنيـة مكة . فترسلها على الأرض زهومة متراقصـة . وأوارا منعرجا فى الفضـاء . . هذه أقطار الابل متلاحقة إلى المراعى والشعاب . يقودها الحادى فى أهازيج البادية . وأغانى الطبيعة . وهاهى اماء قريش من الأحابيش وقـد ملأن الجوار فى مثل الكواكب نظاما والغصون قدودا!

وهاهو وفد قريش على باب أبى طالب يسـترعى الأنظار . ويغرى بالفضول والتسـاؤل . ويدعو إلى تكتب الصبيان واجتماعهم حول الدار متهامسين متسائلين

دخل الوفد إلى حجرة أبى طالب فألفوه يتقلب على فراش مرضـه . وقد نال منه الألم ما نال . وحوله بعض جوارى أخيه العباس وقد أمسك الطبيب الهندى يسراه قياما بتمريضه ومعالجته .

أصوات ـ عوفيت من أخ كريم

(أبو طالب فى صوت خافت) عوفيتم من كل ملمة . ثم تأوه

ومضت فترة صمت لم يمزقها الا صوت أبى سفيان بن حرب قائلا

يا أبا طالب : أنت منا حيث علمت ، وقد حضرك ما ترى وقد تخوفنا عليك . وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا . ونكف عنه . وليدعنا وديننا ، ولندعه ودينه . حتى لا نغضب له رحما . ولا نعق بيننا أصلا ولا فرعا

أبو طالب — هاتفا — على يابن أخى (يافيروز)

(فيروز يلبي طلب سيده ويخرج مسرعا إلى حيث أمر)

أبو طالب — متأوها — لقد أصبحت على حافة القبر وبدأ الموت يدنو منى رويداً رويداً . ولا أدرى ماستفعله الاحداث بابن أخى، إنه إلى حبيب . وانه لدى عزيز . ولكنه قد جاء إلى العرب بما يزهدهم فيه . ويثيرهم عليه . وان زعم أنه منقذهم من هوان الدنيا وعذاب الآخرة . ولكن قريشا لاتريد أن تنزل إلى هذا التفاهم البرىء . ولا أن تسمع لما يقول . ولا يريد ابن أخى أن يتركهم وما يعتقدون . . .

صمت طويل، ثم تهامس .. أغلب الظن أنه تعليق على كلام أبى طالب

(رسول الله يستأذن فى الدخول . فيؤذن له . ويحاول أبو طالب أن يقعد احتراما له . فتخونه قواه)

(وفد قريش يمتعض لهذه الحركه)

أبو طالب — يا ابن أخى

رسول الله — لبيك ياعم

أبو طالب — هؤلاء أشراف قومك . قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك . فدعهم وأنت صادق أمين . أن تدعهم عند اعتقادهم . وهم يدعونك لاعتقادك

(وفد قريش ينظر بعضهم إلى بعض نظرات تذمر من وصفه للرسول بأنه صادق أمين . .)

رسول الله — ياعم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب . ويدين لهم بها العجم

أبو جهل — نعم وأبيك لك عشر كلمات لا كلمة واحدة ! ! تفضل فاسمعنا ماعندك !

(الكل منصت لما سيقوله رسول الله) .

رسول الله — هى أن تقولوا لا إله إلا الله وتخلعوا ماتعبدون من دونه

ابتسامات استهزاء وسخريه . .

أبو جهل — أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ ؟ إن أمرك لعجب

رسول الله — لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون

أمية بن خلف — مالك يا ابن عبد المطلب لا تتحدث ؟

أبو طالب — يتصامم ثم يسبل عينيه ويتأوه . .

أبو جهل — قوموا بنا فوالله ماهذا الرجل بمعطيكم مما تريدون شيئا . فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى تحكم الآلهة بينكم وبينه

(صمت فى المجلس عميق)

أصوات — هيا بنا . .

أصوات أخرى — لا . وشفنك إلا آلهة يا أبا طالب

رسول الله — لا وشفاه الله وحده . .

(وفد قريش ينصرف غاضبا)

أبو طالب — والله يا ابن أخى مارأيتك سألتهم شططا

(رسول الله يشع السرور فى نفسه لكلام عمه وقد ظن أن الوقت قد

حان لاسلامه) فقال لعمه

— قلها أنت ياعم . . أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة

أبو طالب — والله يا ابن أخى لولا مخافة السبة على وعلى بنى أبيك من بعـدى . وأن يظن أنى قلتها جزعا من الموت لقلتها . ولا أقولها إلا لأسرك بها

* * *

الجو معتكر ، والشمس شاحبة الجبين ، وجماعات من الناس متناثرة هنا وهناك تتحدث فى خفوت . فمنها الحزين الكامد . والمتفائل الآمل . والسائر المطرق . والمتوثب المسرور . ثم سمعت عجوز تجر أقدامها ضعفا وتحدث نفسها حزينة

لقد قضى والله صدر بنى عبد مناف

فدنت منها أخرى كانت بالقرب منها وقالت :

من ذا الذى قضى ؟؟

العجوز — لقـد قضى أبو الاشبال . وقريع الابطال ، أبوطالب بن عبد المطلب

العجوز الثانيـة — لتبكه الارض والسماء . وتنعه الكواكب والشموس الزهراء

العجوز الاولى — بل ليحزن عليه محمد بن عبد الله . فقد كان له كهفا وملاذا . وغيثا ومجيراً

الثانية — إذا مات أبو طالب . فان ربه لم يمت

- ٢ -

« ماغرت على امرأة للنبي صلى الله »
« عليه وسلم ، ماغرت على خديجة ، »
« هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت »
« أسمعه يذكرها وأمره الله أن »
« يبشرها ببيت من قصب . . »

عائشة زوج النبي

وقفت (نهرو) عند رأس خديجة ترمقها بعين الطب . وتفحصها بيد الحكمة . وما لبثت أن رفعت يدها محزونة أسيفة لارتفاع حرارتها باطراد ثم أهابت بالخدم فى احضار المياه الباردة تستعين بها على اطفاء هذا اللهب ينبعث من اهاب المريضة . ولكنها كلما وضعت خرقة على جبهتها مبللة رفعتها جافة ساخنة . فتردفها بأخرى وبأختها رجاء التغلب على وقدة الحمى . فتهدأ تارة ويهادنها الألم . . وتستمر أخرى فتعود الأوجاع إلى الكر عليها والايلام . حتى إذا تعبت الطبيبة (نهرو) أسندت ظهرها إلى إحدى الوسائد . وألقت بيديها إلى جنبيها إعياء . تشرف على التجربة تقوم بها زينب وفاطمة فى حنو البنوة ورفقها . . حتى إذا أعياهما ذلك . قامت اليها (نهرو) تجرعها الدواء . ثم تعود إلى طستها ومياهها الباردة تلطف بها مايمكن تلطيفه من الحرارة . والكل حولها يعمل فى صمت وسكون كآلة هادئة . والجزع يخيم على المنزل فى رهبة واجمة ، لايشق سكونها

إلا أنين المريضة يمزق أحشاء من حولها . ويدفع بدمع فاطمة الى المزيد فى صمت رهيب . فيهز ذلك من مشاعر خديجة على بنتيها ، فتمد يدها هزيلة إلى رأسها تمسح عليها رفقا وحنوا . ثم تدنيها اليها لتضمها إلى صدرها فتأبى آلام الحمى عليها أن تدعها فى حلمها الرحيم . وسمادتها الخاطفة . فتكر عليها قاسية . وتحملها الى عالم آخر تنسى فيه فاطمة على صدرها دامعة باكية ثم عادت فاستفاقت وأخذت تتفقد من حولها وقالت :

— ألم يأت بعد رسول الله يافاطمه ؟

— لا يا أماه . انه اليوم فى بنى حنيفة .

ثم علا صوتها بالبكاء

خديجة — ما يبكيك يا بنتاه . ان الموت غاية كل حى . ونهاية كل موجود . فان لم أمت اليوم فسأموت غدا ، واذا مت غدا فليس هذا إلا سنة الله فى الناس

أصوات — لا وشفاك الله ، يا ربيع اليتامى والأرامل

فاطمة يزيد بكاؤها ويرتفع صوتها

خديجة — ماهذا يابنتاه ؟ ! أليس الموت حقا

أصوات — نعم هو حق

فاطمة — ولكن ؟ ؟ أبى

زينب — أبى ؟ ؟ ماذا ؟ ؟ انه بخير

فاطمة — بل فى عذاب دائم من صنيع قريش به . بينما أماه التى هى ظله ورحمته ، فى مثل هذا الجحيم . . فرحماك اللهم به ، يخرج من جحيم الى

جحيم . بل رحماك اللهم بالجميع

الكل يبكى وينتحب

ثم أشارت خديجة بيدها ايماء بالسكوت . فهدأت الضوضاء قليلا ، ثم قالت فى صوت متهدج

نعم يحز فى نفسى أن يعرض رسول الله كل يوم على لون من ألوان العذاب . ولما يأت قومه إلا بخيرى الدنيا والآخرة . ولا يرجو إلا دوام السعادة لهم والنعيم . . ولكن الله مؤازره وناصره فانه والله ليصل الرحم ويصدق الحديث . ويحمل الكل . ويقرى الضيف . ويعين على نوائب الحق . ولن يخزيه الله أبدا

قالت خديجه هذا . . ثم أسبلت عينها وغابت عن الوجود مبهورة منهوكة . ثم سمع من ناحيتها صوت يقول :

رقية . . ؟ ؟

فعرف الجميع أنها تفكر فى ابنتها رقيـة زوج عثمان بن عفان رضى الله عنهما مهاجرة معه الى الحبشة فرارا بدينها ودينه . ولعله قد ارتسم فى ذهنها عن أولادها الغائبين جميعا ، تصورات مخيفة . وأخيلة حزينة ولعلها رجعت الى الماضى تستعرض رقية ، طفلة ساذجة تدرج كالطائر البرى . ثم يافعة كالزهرة فى الكمامة لفتها الطبيعة بأوراق الطهر ، ثم شابة كالوردة النضرة تهتز على غصن كاعب ، وتميد فوق قد ممشوق

ثم زوجة زادها الخفر جمالا ، وصبغها الحياء بصبغة الفتنة والبهاء . ثم

مهاجرة كسيرة النفس . حزينة الفؤاد . ذابلة الوجه

طافت كل هذه الصور بذهن خديجة فزاد شغفها بها . وحنينها اليها فعادت تقول :

رقيـة . . .

ولكنها كلما ذكرت أن الشقة بعيدة . والمزار وعر ، تهافتت على نفسها وبهرت أنفاسها . وغابت عن الوجود لاتفتح عينيها إلا فرارا من طيفها الحزين . ولا تحرك شفتيها إلا باسمها العذب . .

* * *

طافت بمكة أنباء مرض خديجة وشـدته ، فحل على الفقراء واليتامى حلول الصاعقة ، وراحوا يطوفون حول البيت الذى طالما أسبغ عليهم من نعمه وبره، وفاء من فضله وكرمه ، يتحسسون أخباره . ويتلمسون ظواهره . ويفسرن مايصدر عنه ويرد اليه . وقد ربطوا على قلوبهم خشـية أن تحل النهاية بربة برهم . وارتعدت فرائصهم خوفا على حياة سيدة نعمتهم . فاذا ماخرج من المنزل خادم أو زائر تكتبوا حوله. وأحاطوا به. وراحوا يسألونه عن حالة المريضة البارة . وعن خطوات مرضها ودرجات شفائها فى ضراعة الملتاع . وأحزان المحروم . فاذا سمعوا من أنبائها مايسرى ويسر . عادت الحياة الى وجوههم الشـاحبة . ونبع اللعاب فى حلوقهم الجـافة . وراحوا يتواثبون فى بهجة وانشراح يزف بعضهم الى بعض أنباء السرور والجذل وقد لاتطول تلك الموجة بهم . حتى يفد عليهم فوج آخر يمشى على أقدام

الحسرة والأسى . ويحنى رأسه تحت حمل من الأنباء ثقيل . قد استقاها من خادم آخر أو زائر جديد . فلا يستطيع الموقف إلا أن يتبدل ويلبس فى يوم عرسه ثوب الأسى والجزع . فيقف الكل تحت سماء من الحزن قاتمة ، سابحا فى بحر من الأخيلة والتصورات المستقبلة . دون أن يجد مايقول . أو يرى من الكمد فرارا أو فيما حواليه مهربا من هذه الصروف

وكان كلما مر رسول الله بنوادى قريش مطرقا محزونا على مرض زوجه خديجة . تمازحت وتضاحكت . وتمايل بعضهم على بعض فى سخرية واستهزاء . اعتقادا منهم بأن مرض خديجة سيحد من نشاطه . ويميد باتزانه بل إذا ماتت فستهد عزمته وتفل قوته . لأنها مؤنسه فى حزنه . وميرته فى فقره . وورده فى ظمئه

ولم تكن أنباء مرضها بموقفة سفاهة قريش ومضيها فى إيذاء رسول الله إشفاقا عليه من وطأة المقادير ، وملاينة منهم إزاء الشدائد تؤلف القلوب . والمحن تغسل الخصومات . . بل إن إيذاء قريش له قد تضاعف . والنكال به قد اشتد ، حتى قال صلى الله عليه وسلم (ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب)

ولكن الرسول الأمين لم يكن بحيث تفل من عزمته الصروف . أو تهد من قوته النوازل . وان حزنه على مرض خديجة لم يكن يوقف دورته أو ينسه واجبه ورسالته ، رغم وفاته لربة أولاده ، ونبراس هناءته ، وركن سعادته ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته

* * *

يمم رسول الله بيته وقت الغروب . بعد أن ردته بنو حنيفة رداً قبيحا ، كما يعود القائد المنهزم من ساحة القتال ، مطرقا تحت سحابة من الاحزان . ثم وقف دون الباب يرجف فؤاده . ويدق دقات من ينتظر صدمة القضاء المحتوم . ويتلمس أنباء خديجة من أصوات القاطنين بحيه وأحاديثهم وحركاتهم . ولكن الصمت كان مخيما على البيت لا تسمع فى هدأته إلا أنة خافتة لا تزال تبعث الأمل وتزجى بالرجاء . يستجيب لها نشيج متقطع وبكاء مذبوح . فعرف أن خديجة لا تزال على قيد الحياة رغم حالتها السيئة وأن فاطمة لم ترقأ لها دمعة بعد

ثم وقف رسول الله عند رأس المريضة . فشمت ريحه الشذية المباركة وأحست بنشوة تجرى فى عروقها . فتشيع فى جسمها موجة من الحركة والانتعاش . فحاولت أن تعتمد على ساعدها لتجلس . فرحا بمقدمه ، أو تحية له . فخانتها قواها ولم تستطع . فسارعت فاطمة نحوها وأجلستها . ولكنها لمحت فى وجه رسول الله مخايل الألم العميق . لا تدرى أمن أجلها ، أو من احدى الحوادث التى لا تنقطع حلقاتها عنه . فقالت له :

— صبرا يا أبا القاسم فوالله لن يخزيك الله أبدا . ولن يكلك الى عدو يتقحمك .

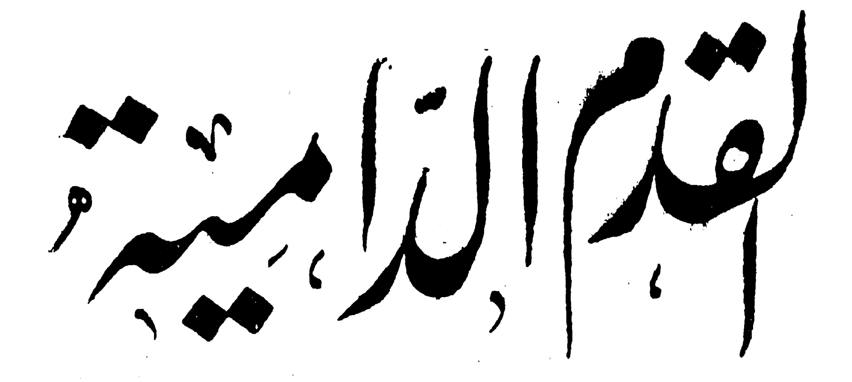
وبينما هم كذلك وإذا بأحد جيرانه نقذفه برحم شاة . فقامت فاطمة نحوه تزيل آثاره عنه . وقد زاد بكاؤها وعلا عويلها تأثراً مما يصيب اباها . وحزنا لما عليه أمها . وعجزا عن رد هؤلاء الأجلاف إلى صوابهم . ثم قام رسول الله فحمل رحم الشاة على عود . وخرج به الى ما بعد بابه وقال :

. « أي جوار هذا يابني عبد مناف ؟! » ثم ألقاه في الطريق

وما انتصف الليل إلا أقله حتى ارتفعت حرارة خديجة فجأة وتوالت دقات قلبها مسرعة . ثم زارتها حشرجة قاسية تمصد جسمها لوطأتها عرق وأخضعت جوارحها إعياء وتراخيا . ثم راحت تحجظ بعينيها الواسعتين في وجه رسـول الله . كأنها تتزود منـه بكل ماتستطيع أن تتزود به ، ثم مدت يدها تتلمس يده الكريمة وتستشف منها برد السعادة والهناءة الابدية وتشد عليها تأكيداً للايمان به . وتجديداً للعهد والميثاق . ثم أدنت فاطمة منها ومسحت على ظهرها بيدها ثم أدنت أم كلثوم وزينب وصنعت بهما كذلك ، ثم هوت يدها إلى جنبيها للمرة الأخيرة وقالت :

أشهد . . أشهد أنك لاشريك لك . وأن محمدا رسولك الحبيب

فسـالت دموع النبي الشريفة ، واستجابت لدموعه دموع الحاضرين جميعا في خفوت والتياع .



ضاقت مكة بدعوة الرسول الى الاسلام
فسافر الى الطائف ليعرض الدعوة
على ثقيف فعاد الى مكة مضمد القدم

- ١ -

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة »
« حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين »

بدأت يد الفجر تمسح من لوحة السماء بعض النجوم . وأخذ طائر الليل يرفع جناحه عن الشرق فى تؤدة واتزان . وسارت نسمات ما بعد السحر تطوف بشجيرات الاذخر وتداعب أغصان الزهر فتزودها بما ينفث فى النفوس ريحان الأمل . . ورسول الله فى طريقه الى الطائف . يدعو ثقيفا الى دين الله لا يؤنسه مؤنس ولا ترعاه الا عين الاله الذى أرسله

. . وصل رسول الله الى حى بنى عمرو بن عمير ، فألفى أخوة ثلاثة امام محلتهم فوقف دونهم وقال :

يا بنى عمرو انى رسول الله اليكم والى الناس كافة . أن تؤمنوا بالله وحده وتخلوا ما تعبدون من الأوثان . وتمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم . ولا تسرفوا ولا تزنوا ولا تأتون ببهتان تفترونه . فان آمنتم بى وصدقتمونى . استحللتم شفاعتى يوم القيامة . ومن اتبع هواه بغير هدى من الله فان الله لا يهدى القوم الظالمين

فرفع مسعود بن عمير وجهه قبالته وقال له :

ان كان الله قد أرسلك ، فانى أمرط ثياب بيته !! « الكعبة »

وابتسم عبد ياليل بن عمرو - بسمة ساخرة وقال : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !؟؟

وسعل حبيب بن عمرو سعلة متكلفة ثم نظر اليه وقال :

اصغ إلى يا محمد ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، فأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، وان كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك

رسول الله — أرجو أن تكتموا عنى ما صنعتم حتى لا يتحرش بى العبيد والصبيان . ولا تشيع الشماتة بى فى قريش

ثم انصرف حزيناً آسفا لقلة ما يصيب من توفيق . ثم همس (عبد ياليل) فى أذن أحد عبيده فسارع هذا العبد يجمع العبيد والخدم والصبيان من هنا ومن هناك . وأخذوا يهللون خلف رسول الله ويصخبون ، ثم أخذ بعضهم يقذفه بالحجارة ويحثوه بالتراب . ويرسل اليه الشتائم . . وأشراف الطائف ينظرون اليهم متضاحكين . والنساء والعجائز يشرفن على هذه المطاردة هازئات ضاحكات

وتحت سحابة من الثرى وبين ضوضاء الصبية . اختبأ رسول الله خلف سور حديقة لبنى ربيعة . فكان اختباؤه مؤذناً بهدوء المعركة وأوبة الاطفال من حيث أتوا

وفى ظل حبلة من العنب جلس رسول الله يجفف الدم من أعقابه ويستجمع من هدوئه . ثم صعد ببصره الى السماء ضارعا وقال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى .. إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى. إن لم يك بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات . وصلح

عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك .
لك العتبي حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك »

قالها رسول الله وهو يظن انه لم يسمع شكواه إلا السميع المجيب . .
غير أن صاحبي الحديقة التى نزل بها، كانا قد سمعا مادعا به ، فتحركت له رحمة أحدهما فنادى عبده (عداس) وقال له

خذ قطفا من العنب وضعه فى طبق وقدمه لهذا الرجل يأ كل منه

شيبة بن ربيعة — لاخيه — وحقك لا يقول مثل هذا الكلام بشر

عداس — يضع العنب بين يدى رسول الله ويقول له :

تفضل ، فكل ..

رسول الله ـ ينظر الى العنب ثم إلى حامله ثم يمد يده قائلا :

بسم الله .. ثم أكل

عداس ـ ينظر إلى الرسول مبهوتا ويقول

بسم الله !! ؟ والله إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد

رسول الله ـ من أى البلاد أنت ؟؟

عداس ـ من أهل (نينوى)

رسول الله ـ وما اسمك وما دينك إذن ؟

عداس ، النصرانى

رسول الله ـ أنت إذن من بلد الرجل الصالح يونس بن متى ؟

عداس ـ مبهوتا ـ ومن أدراك بيونس بن متى ؟

رسول الله ـ ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى

« فأكب عداس على رأس رسول الله ويديه وقدميه يقبلها »

فنظر شيبة بن ربيعة لاخيه وقال له

أرأيت ؟! لقد أفسد علينا محمد غلامنا ، ولعل هذا ثمن إشفاقك عليه !!

عتبة بن ربيعة - في غير اكتراث - لا تحزن فكلاهما من نبعة (١) واحدة

ثم رجع عداس إلى سيديه ، فقال له شيبة

ويلك يا عداس !! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

عداس - ما في الارض شيء خير من هذا الرجل . لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي

شيبة - عساه يكون قد صرفك عن دينك وهو خير من دينه الذي يزعم ..

عداس - لا والله .. لقد زادني اطمئنانا عليه . وما هذا إلا ملك كريم

* * *

بدأ ميزان الشمس يميل نحو الغروب . واستطال الظل في فيض وكرم ينقذ الارض من هجير الشمس ولفح الحرور . وأخذ رسول الله طريقه الى مكة فوصل الى (نخلة) فجلس بين شعابها واذخرها يستعيد راحته ويستجمع نشاطه فغلبه النوم ، حتى اذا انتصف الليل قام يصلي ويرتل القرآن في جوفه والكون مصغ . والنجوم ساهمة

* * *

كان رسول الله في مجلس من أصحابه بمنزله ، فاحمر وجهه وتفصد جبينه

---

(١) يقصد من أصل واحد في الديانة

بالعرق ، ثم أسبل جفنيه ، فأدرك صحابته حالتـه ، فانقطعوا عن تحديثه ، وتواصوا بالصمت . انتظاراً لمـا يأتى به الوحي . ثم استفاق عليـه السلام وسلم على اصحابه فردوا السلام عليه ، ثم قال له أحدهم

خيراً اللهم .. ما الذى جاء به إليك جبريل يا رسول الله

فقرأ عليه السلام قوله تعالى

« واذا صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن. فلما حضروه قالوا أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه . يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لـكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض . وليس له من دونه أولياء . أولئك فى ضلال مبين

فقالت الصحابة صدق الله ورسوله .

وقد علموا أن الله قد زف الى رسوله ليلة عودته من الطائف طوائف من الجن استمعت الى قرآنه فى جوف الليل. وآمنت به وصدقته، حتى لا يشق عليه رفض ثقيف لدعوته . واغراء السفهاء بايذائه والتشهير به



كان اسراؤه صلى الله عليه وسلم نوراً
جديداً للاسـلام والمسلمين . وناراً
ثائرة فى معسكر المشركين والمنافقين

١

« سبحان الذى أسرى بعبده »
« ليلا من المسجد الحرام الى »
« المسجد الاقصى الذى باركنا حوله »

قرآن كريم

استيقظت هند بنت أبى طالب على صوت رسول الله يناديها . فهبت من نومها جالسة تمسح على عينيها بيدها . وتفتحهما لتتعرف بها وجه الزمن ولكنها لا تلبث أن تغمضها ثم تعود الى فتحها . حتى أدركت أن أنفاس الفجر بدأت تغشى سواد الليل وتمحو معالمه . وان وقت الصلاة قد وافا وأهاب بالنوام الى الوضوء . فنهضت هند من فراشها . وراحت ثم عادت متوضأة . وصلت خلف رسول الله صلاة الصبح مع أهلها . ثم سادت فترة لم تكن تسمع فيها من رسول الله الا ما يشبه وسوسة الحلى . لعله قرآن الفجر أو دعاء بالنصر لدين الله ، ثم سكت هنيهة وقال

يا أم هانىء (١) لقد صليت العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ثم جئت بيت المقدس . فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين

فنظرت اليه أم هانىء نظرة الدهشة والعجب. ولسانها لا يكاد يتحرك وعيناها مشدودتان الى وجه رسول الله . لا يمنعها من تكذيب حديثه إلا

---

(١) كنية لهند بنت عبد المطلب

إيمانها بصدقه وأمانته ثم قالت وكيف تم ذلك يا رسول الله . فقال رسول الله ما معناه :

بينا أنا نائم فى الحجر (١) اذجاءنى جبريل فهمزنى بقدمه فجلست ، ولكنى لم أرشيئا . فعدت إلى مضجعى فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه . فجلست ولكنى لم أرشيئا . فعدت الى مضجعى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه فخرج الى باب المسجد. فاذا دابة بيضاء بين البغل والحمار فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع يديه فى منتهى طرفه ، فلما دنوت منه لأركبه شمس (٢) فوضع جبريل يده على مؤخرته ثم قال ألا تستحى يا براق مما تصنع ؟ فوالله ماركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه . فاستحى حتى ارفض عرقا . ثم قر حتى ركبته ، ومضينا الى بيت المقدس فوجدت فيه ابراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الانبياء فأممتهم فى الصلاة ثم أتى بثلاثة أوان من خمر وماء ولبن . ثم سمعت مناديا يقول ان أخذ الماء غرق وغرقت أمته ، وان أخذ الخمر غوى وغوت أمته . وان أخذ اللبن هدى وهديت أمته . فأخذت اناء اللبن وشربت منه فقال أخى جبريل ، هديت للفطرة وهديت أمتك يامحمد ، ثم عرجت الى السماء فوجدت فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..

قال رسول الله هذا ثم هم بالانصراف من لدن بنت عمه فشهقت شهقة الاشفاق عليه والرحمة ، وتناولته من طرف ردائه وقالت له جازعة متوسلة :

---

(١) حجر اسماعيل (٢) نفر

يا رسول الله . لا تحدث الناس بهـذا الحديث فيكذبوك ويؤذوك .
فانهم أهل جاهلية .

قالت هند هذا فى لهجة ضارعة حزينة رجاء أن يكف رسول الله عن اذاعة هذا بين قوم هبطت عقليتهم الى مستوى عبادة الاحجار التى يصنعونها بأيديهم لا تضر ولا تنفع .. فنظر اليها رسول الله نظرة تزاحمت فيها عاطفة الواجب وعاطفة الحنان ، ثم قال لها

والله لأحدثنهموه

فأرخت هند رداءه وراحت تسرح فيه نظرها حزينة مستسلمة . . فذهب الى المسجد وهتف بالناس فتكتب المسلمون سعيا وراء الاستفادة من أوامره ونواهيه . وارشاداته ونصائحه . وتتداعى غيرهم عسى أن يكون قد تنازل عن دعوته . وعزم على اعلان قريش بالمدنة والمصالحة . ولكن شيئا مما زعموا لم يقع . بل وقف يحدث بما حدث به هند بنت عمه ومن معها . فسكت المسلمون تصديقا له إلا قليلا منهم . وارتفعت أصوات قريش بالسخرية والهزء والتضاحك . ثم انبرى له عبيد الله بن سعد من الصفوف وقال :

سمعنا روايتك ، وعصينا رسالتك ، حتى تؤيد ما تقول بآية ما

فقال النبي صلى الله عليه وسلم

آية ذلك انى مررت بعير بنى فلان بوادى (كذا) فأنفرهم حس الدابة . فند (١) لهم بعير ، فدللتهم عليه وأنا موجه الى الشام ، ثم أقبلت حتى اذا كنا (بضجنان) مررت بعير (٢) بنى فلان فوجدت القوم نياما ولهم

(١) شذ (٢) الابل

اناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء . فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أيضا أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنية التنعيم يتقدمها جمل أورق عليه غرارتان احداهما سوداء والاخرى برقاء

سمع القوم هذا فوقر الصمت فى نفسهم لا يتعرضون لما قال بنفى أو اثبات . حتى ترد الركبان ويسأل حداتها عن صحة ماروى . الا ان جماعة ممن لاشأن لهم إلا العناد والتكذيب قد ذهبوا وفيهم بعض المسلمين إلى منزل أبى بكر وقالوا له

هل لك يا أبا بكر فى صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع الى مكة

أبو بكر — انكم تكذبون عليه

أصوات — لا وأبيك . . ها هو ذا لا يزال يحدث الناس فى المسجد

أبو بكر — والله لئن كان قد قاله ، فقد صدق فما يعجبكم من ذلك . فوالله انه ليخبرنى الخبر يأتيه من السماء الى الأرض فى أية ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقوم خلفه وقال له :

يارسول الله . أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟؟

رسول الله - نعم

أبو بكر — صفه لى يانبي الله فانى قد جئته

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف بيت المقدس له وللمستمعين كأنما يقرأ فى كتاب . أو كأنه يسير بين رحباته وثنياته . يستعرض

أبوابه ومنافذه وأبهاءه ، وأبو بكر يختم كل جملة يقولها النبي بقوله : صدقت صدقت . . وقدماه لا تكاد تستقر على الأرض من كثرة الفرح ، وتفاعل السرور . . حتى قال له رسول الله : أنت يا أبا بكر الصديق (١)

* * *

استرعى انتباه الناس دقات الدفوف قوية مفرحة ، وضوضاء الاطفال وضجيجهم يحيطون بالقارعين ويستبقونهم ، فأدرك السادة من قريش أن قوافل الشام قد وافت مكة . وأن الوقت قد حان لكشف الغطاء عن ما ظنوه كذبا فى إسراء محمد ومقابلة العير التى حدثهم عنها . وقد كان أسبق الجميع إلى لقاء الركب. أبو سفيان بن حرب . ولم يكن ذلك فرحا بالتجارة والربح بقدر ماهو فرح بما ينتظر محمدا من التكذيب ، اعتقادا منه بأن ماتحدث به رسول الله من قصة الاسراء والمعراج ليس إلا كذبا ودجلا . ثم التقى أبو سفيان بالركب عند الثنية التى وصفها لهم رسول الله . فكان أول ما ابتدرهم ذلك الجمل الذى وصفه لهم رسول الله . بأنه جمل أورق حاملا غرارتاه البيضاء والبرقاء . . فنظروا اليه . ثم نظر بعضهم إلى بعض وسبابتهم بين أسنانهم ، ثم أمعنوا بين أقطار الابل . وسألوا فهر بن ليث رئيس الركب :

هل ند منكم أثناء الطريق بعير ، نفارا من حيوان غريب ؟

فهر — نعم . . لقد حدث هذا فى (وادى المران)

أبو سفيان — وماذا تم لكم فى مسألة القدح المغطى

---

(١) هذه هى المناسبة التي لقب فيها أبو بكر بالصديق

فهر — لقد نمنا وتركناه مغطى فاستيقظنا ولما نجد شيئا وظل مغطى كما هو ، فعجبنا لأمره .. فأطرق أبو سفيان ومن معه حزنا لا يدرون بماذا يجيبون الناس فى ذلك

ثم قال فهر :

من حدثكم بهذا كله . وبيننا وبينكم مسيرة أشهر

أبو سفيان — لقد حدثنا بهذا نبي بنى عبد مناف يدعى أنه قد أسرى به الى طور سينا ، ثم الى بيت المقدس ، ثم طاف بأرجاء الدنيا . وعاد قبل أن يبرد فراشه الذى غادره ! !

فهر — أما حديثه عن الجمل الأورق . والبعير النافر . والقدح المغطى فهو صدق والله . أما غير ذلك ؟ ؟

أبو سفيان ـ مقاطعا ـ فهو من آثار السحر أو نشاط الجان .

انسحاب الظلام

الزنط

انبثق للاسلام فجر جديد ، بوفادة
لفيف من أشراف يثرب الى مكة
ولقائهم برسول الله واسلامهم على يديه
وايفاده بعض صحابته الى يثرب للدعوة
للاسلام فيها ، وبنائه بسودة بنت
زمعة ، وعقده على عائشة أم المؤمنين

١

« ياعائش هذا جبريل يقرئك السلام .. فقلت »
« وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.. ترى ما لا أرى »

حديث

وعاد رسول الله الى بيته من (منى) مكدوداً متعباً على أثر مناقشات حادة . ومشاكسات عنيدة . بينه وبين بعض المشركين . فلم تكن وحشة المنزل وخلوه من الشريكة الحانية . والزوجة الرحيمة . بأقل أثرا فى نفسه من هذه المشاكسة التى وطد نفسه على احتمالها . أسلم نفسه بعض الصلاة لتصورات شتى . أوحاها اليه سكون المنزل بعد خديجة . ووحشته بعد عودة بناته الى بيت الزوجية . . فحلق بخياله فى سماء المنزل . وطاف بحجراته . يتأمل آثارها . ويستوحى ذكرياتها . ويستذكر عطفها وحدبها . الذى طالما خفف عنه وطأة الجفوة من قومه . ورفه عنه خشونة ما كان يلقاه . . وظل رسول الله فى استسلامه وتصوراته . حتى أيقظته فاطمة تمسح على ظهره بيدها الرحيمة . بعد طول وقوفها بجواره . فرفع بصره صوبها فوجدها وردة منكمشة ذابلة ، فتلاقت العيون الحزينة . وتجاوبت المشاعر الجريحة . فأدناها رسول الله منه . وراح يبادلها عطفها الصامت بعطفه الحبيس ، فأحست بأبخرة الأسى تنحدر الى ماقيها دموعا . فخشيت على مشاعر أبيها من رؤية الدمع فى عينيها . فنهضت واقفة . وخلفته نهبا للاحزان . سابحا فى الفضاء الفسيح الذى كانت تشغله خديجة . ربيعا لدعوته . وريحانة لراحته . ومفكرا فيمن عساها

تستطيع أن تسد الفراغ من بنات اقرب النـاس الى نفسه من صحابته . فراح ينثر كنانتهن . ويقـارن بينهن . ويفلى آباءهن ، ليعرف أكثرهم بلاء . وأشدهم فى الحق والاسلام تفانيا . فاذا كان لابن الخطاب فتاة فان لأبى بكر مثلها .. صحيح أن الثانية ليس لها من سنها ما يؤهلها للزواج . ولكنها فى الوقت نفسه بنت أبى بكر . أوفى الصحابة الى . وأبذلهم مالا لدعوتى .. واذا كانت الحاجـة الى هذه الشريكة ماسة فحاجة سودة بنت زمعة الى هذا التعاون أمس ، بعد أن مات زوجها (السكران بن عبد شمس) مهاجراً الى الله ورسوله فى الحبشة

وليست ذات مال يغرى طلاب المال بزواجها . ولا صاحبة جمال يدعو طلاب الجمال الى البناء بهـا . اذن فلأعقد على عائشة توثيقاً لروابط المحبة بينى وبين أبى بكر ، ولأبن بسودة بنت زمعة جبراً لنفسها الكسيرة ووفاء لزوجها الجندى المهاجر فراراً بدينه وارضاء لربه

.. لعل هذا بعض ما كان يدور بخلد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتدت عليه وطأة الوحدة . وأظلته سحابة الأحزان . وهتف به هاتف الوفاء للدعوة

وكم كانت فرحة أبى بكر حين طلب رسول الله منه يد عائشة . فراح يعلن الاهل والاقارب ويبشر الاصدقاء والمعارف . ويهب الصدقات وينحر الذبائح برا وشكراً على نعمة المصاهرة النبوية الكريمة .. وامتلأت دار سودة بنت زمعة بالمهنئات والمهنئين . يحملن اليها الهدايا اعلان بهجة وشارة جذل وارتياح وهى بين هذا كله لا يعرف النوم الى عينيها طريقا لكثرة ما اعتراها من هزات الفرح والسرور . بعد طول الاسى . وظلمة اليأس والقنوط .

- ٢ -

« يارسول الله انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من »
« العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله »
« بك . وان يجمعهم عليك . فلا رجل أعز منك »

أسعد بن زراره

ووقف (شاءول) عند الأصيل يسرح نظره صوب الجهات الأربع حتى إذا أيقن أن ليس هناك من يرقب اجتماعهم عن قرب أو بعد . دخل البستان مسرعا وأخذ مكانه بينهم يأتمرون فيما يجب اتخاذه صوب الاوس والخزرج وقد تواطأوا مع نصارى الشام على الغدر بهم ، كلما لاحت فرصة أو عنت لهم رغبة فى الانتقام

ساد الاجتماع همس ووسوسة ، تتخللها همزات الاستفهام ، ولمزات الاندهاش . حتى قطع عليهم ذلك صوت الحبر (جداع) بعد إطراقة طويلة وقال :

إذا كان هؤلاء النصارى من عبيد الرومان يحقدون علينا ويحاربوننا لأن يد آبائنا قد انغمست فى دم المسيح . . فما جريمتنا مع بنى الأوس والخزرج نقدم لهم مايلبسون ونجلب خير مايأكلون ويشربون فيسبحون فى عالم من الأحلام جميل ! !

شاءول — لأننا شعب الله المختار من دون الناس أجمعين

جداع — انهم لا يعرفون الله ولا شعبه ، مختارا كان أو مغضوبا عليه !

اللهم إلا أحجارا يطوفون بها ويستمنحوها النماء والماء ! ! دون أن ترد عليهم نفعا أو تدفع عنهم ضرا

شيلوك — انهم يحقدون على شعب اسرائيل لنجاحه فى التجارة والصناعة وحصوله على الثروة من طرائق لايجيدونها ولا يعرفون اليها سبيلا

شاءول — وكيف الوصول الى تلافى شرهم وهم جيراننا . والجار السوء شوكة فى جنب جاره . أنحاربهم فجأة ونستأصلهم ؟

أصوات - لا . . والوصايا العشر . . قبح الله وجه الحرب

جداع — كفانا من الحرب مانحن فيه . . ثم أجهش بالبكاء وقال حسبي أموالى التى فقدتها فى ذمة من مات فى المعركة الماضية قبل أن أتناول فضلها ورباها

شاءول ـ وماذا نصنع إذن . . حدثونى .. أتريدون أن نعيش عبيدا أذلاء ؟ ؟ وكيف يكون ذلك ونحن شعب الله المختار ؟ !

شيلوك — رب حيلة أنفع من قبيلة ، وحيلتنا فى ذلك أن نبث بذو الفتنـة بين الأوس والخزرج ، حتى إذا نشبت أظفارها ، واستحكمت حلقاتها . عشنا فى ظل إحداهما نضرب بها الأخرى ونحاربها بها . فتنمو تجارتنا فى فيئها وسلطانها

أصوات — مرحى .·. مرحى

***

واستيقظ شاءول من أطراف يثرب على صهيل الخيل وصياح الفرسان تتنادى للقتال وتتجمع للحرب . ولم يستطع الشاب اليهودى أن يكتم فرحه

بانتصار فكرتهم ، ونجاح فتنتهم فصاح بين المنازل : ياالشعب اسرائيل هلموا فقد وقعت الواقعة . فأسرع نحوه الحبر (جداع) رافعا يده فى الفضاء ـ مرتعش اللحية ، تتعثر قدماه فى أرديته ـ حتى وضعها على فم شاءول وشاءول لا يدرى أهرولة الفرح ونشوة السرور قد عقدت لسان (الحبر) فأضحى لا يستطيع الكلام ، أم موجة الخوف والتحذير من بلوغ صوته العالى آذان المتحاربين. فيلفت نظرهم ذلك الى حى يهود ومافيه من ثروة وعتاد يستعينون بها على ماتتطلبه الحرب من أكلاف وأعباء . لعل هذا ما كان يدور بخلد الشاب (شاءول) وهو مكمم الفم بيد (الحبر) حتى اذا أفاق الحبر من لهثته . وثاب إلى هدأته . والناس حوله أشد ارتقابا لما يقول من الظامىء إلى قطرات الماء ـ قال فى إعياء

اختبئوا خلف الآطام والأشجار والحوائط (١) حتى لا تشعروهم بوجود من يرقبهم من خصومهم القدامى . وإلا حن بعضهم إلى بعض . وتلاقت القلوب المشبوبة ودارت علينا الدائرة . فنذهب وقودا للصلح وضحية الصفاء بين الجميع

وما كاد الحبر يتم كلامه حتى تقاصر الجميع . فأضحوا كواد من الأقزام أو قطيع من القردة سريع التلفت كثير الحذر . وفى لحظة لم تكن ترى إلا عيونا تطل على المعركة الدائرة بين الأوس والخزرج . تجحظ تارة لوقع الحسام يندر الرؤوس ، وتسديد السهام يزهق النفوس . وينثر الدماء ، ويطيح بالأشلاء ، وكر الفوارس فى ظل الدروع وفىء البواتر . ثم يعودون

(١) البساتين

فينظر بعضهم إلى بعض فى فرح مكمود وذهول حائر ، ثم عن لهم أن يروا آثار ذلك فى وجـه حبرهم الأكبر . فاذا بهم يرونه مأخوذاً ، جاحظ العينين عاضا على أصبعه ويقول :

لا . . لا . . بحق اسرائيل . وموسى ابن عمران الكليم

فخفوا نحوه يسائلونه خطبه الذى أصابه ، فقال لهم إن الخزرج قد غلبت الأوس . وهاهى الأوس تتقهقر مهزومة صوب نجـد . ياللخطب المدلهم . دعونا من النقاش الآن

الحمد لله . . لقد طعن أبو أسيد حضير الكتائب نفسه ، وأخذ يصيح بقومه ويستنجد بهم . . أتسمعونه . هذا هويقول (واعقراه . . والله لا أريم حتى أقتل فان شئتم يامعشر الأوس أن تسلمونى فافعلوا) وهاهى الأوس تعود لنجدته قبـل أن تحمله الخزرج الى معسكرها . وهاهى الحرب تدور من جديد فى شدة لم تعهد عليها من قبل

شاءول — مالنا والأوس فلتذهب إلى الجحيم ، فانها أشد عداء لنا من صاحبتها . أو فليذهبا معا

جداع — مبتسما فى دهاء — نعم فليـذهبا معا الى قرارتها . لا أن تذهب واحدة لتتركنا طعاما شهيا للأخرى لا منقذ لنا منها ولا مجير . .

. . . يالعبر الحياة انظروا . هذه الأوس تسترد مكانتها الحربية من جديد . وذى يدها على مقربة من غصن النصر ، وهاهى الخزرج تأخذ مكان الهزيمة بعد أن ذاقت لذة الفوز ولم تستمتع به طويلا . ليت شعرى وما ذنب النخيل والمنازل تجتاح وتحرق ، وأكبر الظن أن الاوس قد اعتزمت

أن لا تبقى على الخزرج ولا تذر . وفى هذا ما يهدد كياننا من جديد بعد أن نجحت زميلتنا واطمأننا على موازنة الحال بين القبيلين

شاؤول — ولكن فيما أظن أن انعدام إحدى القبيلتين يعيننا على إبادة الأخرى والتخلص منها

جداع — انك طيب القلب ، ان قومنا ليسوا رجال حرب ونضال . وإنما هم رجال تجارة وكسب ومال . هذا إلى أن لهم - من أعدائنا نصارى الشام ومن بنى عمومتهم فى اليمن - ما يجعلهم علينا أقوياء أشداء

شاؤول — أتسمع ؟ ؟ هذا أبو قيس بن الأسلت يصيح بحضير الكتائب ويقول له : كفى . . كفى ، ياحضير لجوارهم خير من جوار الثعالب ! ! ومن الثعالب المعنيون بهذا الكلام إلا اليهود ! !

جداع — لتكن كذلك . ولكن هذا خير وأبقى . .

ثم رفع قلنسوته ومد يده صوب السماء وقال :

— اللهم أدم التفريق بينهم حتى يستطيع أن يعيش شعب اسرائيل فتعبد فى الأرض . فرفع الكل أيديهم خلفه . ورددوا دعاءه بقلوب واجفة وعيون ضارعة . ثم هوت يده إلى الأرض فهوت أيديهم وتدلت رأسه البيضاء فى حجره فتدلت رؤوس الجميع . ثم إنصرفوا إلى منازلهم حزانى بعد أن سمعوا ما قاله أبو قيس لحضير الكتائب وما وصفهم به مما ينبيء عن الكراهية لهم والحقد ثم الخوف من ثمار ذلك يصب على رؤوسهم فى الوقت المناسب .

* * *

خرج رسول الله من بيتـه مع الفجر الباكر وسار فى طريق يثرب ثم جلس هناك على صخرة ملساء يحمل رأسه الشريف تتوارد عليها سلسلة من الحوادث التى تحيط به منذ وفاة عمه ، من اعراض القبائل عن دعوته وسفاهتها فى ردها عليه. وارتداد بعض المسلمين .وزيادة هزء الكفار به بعد علمهم بأمر الاسراء والمعراج . ووقوف الدعوة فى دائرة محدودة لا تتقدم إن لم تتأخر ، أثرا الاغراء أو ثمرة لفتنة ثم نفاد مال خديجة من يده وعدم الامل فى نجاح الدعوة بمكة بعد كل هذا الكفاح الدائب . فتنفس صلى الله عليه وسلم صابرا ، وسأل الله الفتح والنصر بعد أن صمد الشيطان فى طريق دعوته . وكأن الله قد استجاب دعاءه لتوه . فصافح أذنه عن بعد ، ما يشبه حداء الابل ،وفى مقدمة الركب كهل عملاق يلوح على محياه أنه سيد قومه وصنديد ركبه . فتوسم فيـه النبي خيراً ورجا أن تكون حوادث الامس نهاية الحوادث ، وركب اليوم طليعة الفتح . فسلم على القوم فردوا على التحية بأحسن منها . ثم راعتهم وسامته . وهزتهم طلعته . فنزلوا من فوق مطيهم وراحوا يتأملون وسامته ويستنبئون وفادته ، ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم

ـ من أنتم ؟

أصوات ـ نفر من الخزرج

رسول الله ـ من موالى (١) يهود .

أصوات ـ نعم

رسول الله ـ أفلا تجلسون أكلمكم ؟

---

(١) حلفاء

أصوات ـ بلى

رسول الله ـ (ما معناه) انى رسول الله الى العرب خاصة ، والى الناس كافة ، وانى أدعوكم الى عبادة الله وحده وأن لا تشركوا به شيئا .

فنظر بعضهم الى بعض فى فرح وجذل ثم قال اسعد بن زرارة سيد القوم

ـ انه وحقكم للنبى المنتظر الذى تواعدكم به يهود (١) وهددوكم بافنائكم عن طريقه متى انضموا الى صفه فلا يسبقنكم اليه . ثم قالوا له بعد أن أعلنوا اسلامهم على يديه

ـ يا رسول الله انا قد تركنا قومنا ولا قوم (٢) بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك وأن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك

ثم عاهدوه على العمل لدعوته فى يثرب والاستعداد لنصرته من قومه بعد أن عرف منهم اثنين من أخوال جده عبد المطلب ، هما أسعد بن زرارة بن عدس وعوف بن الحرى بن رفاعة من بنى النجار ثم رافع بن مالك بن عجلان وعامر بن عبد حارثة من بنى رزيق وقطبة بن عامر وعقبة بن عامر وجابر بن عبد الله

ثم انصرفوا بعد أن دعى لهم صلى الله عليه وسلم بالتوفيق والنجاح فيما عاهدوه عليه

---

(١) كان اليهود بيثرب يهددونهم اذا اختلفوا معهم بقولهم ان نبيا مبعوثا الآن قد أظلكم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم .

(٢) بكسر القاف وفتح الواو أى لا رابطة

- ٣ -

« يابنى عبدالاشهل إن كلام رجالكم »
« ونسائكم على حرام . حتى تؤمنوا »
« بالله ورسوله »

سعد بن معاذ

ضرب سعد الأرض بحربته غاضبا . فاخترقت أحشاءها واهتزت مؤخرتها رعبا بين يديه . ثم اعتمد عليها وقال لصاحبه وهو يحاوره

— ماهذان الصابئان يغشيان دورنا وينزلان حوائطنا (١) كأننا منهم على مصاهرة أو قرابة ، بينما يغررون بضعفائنا . ويبذران بذور الفتنة بيننا .

أسيد بن حضير ـ أما أولهما فانه أسعد بن زرارة لايحتجز الأذى عنه الا أنه ابن خالتك . وأما الثانى فضيفه ويدعى (مصعب بن عمير) وكيف ننال من ضيف قدأجاره فينا ذو شرف وجاه ؟ بل كيف السبيل إلى ايقاف هذه الدعوة تنتقل كل يوم فى حى من أحياء يثرب . . انظر كيف تتوارد الناس عليهما حيث نزلا بحائط (٢) بنى ظفر وإلى أى حد بلغ عدد الجالسين حول البئر هناك .

سعد بن معاذ ـ وما الذى أتى بهذا الرجل ؟ ؟

---

(١) حدائقنا (٢) حديقة

أسيد بن حضير ـ فيما انتهى الينا منذ بضعة أيام على لسان أحد القادمين من مكة ، أن اثني عشر رجلا من أهل يثرب ذهبوا للحج في هذا العام للطواف بالآلهة ، فعادوا بدين يرفض الاعتراف بآلهتنا ويسفه أحلامنا ويدعو إلى عبادة إله واحد لا مكان، ولا وجهة له ولا جسم، وأن هذا الدين يقوم بالدعوة له نبي من بنى عبد مناف .

سعد ـ مبهوتا ـ مناف ! ! ؟ وكيف ذلك وهم سدنة الكعبة ولهم شرف الرفادة والسقاية دون العرب . وماذا صنعت قريش به ، وشرفها مقرون بهذه (البنية) (١) وما فيها

أسيد ـ لقد أوذى كثيرا وعذب من معه أكثر ، حتى اضطر بعضهم إلى ترك مكة ، وأنه لقى حربا سجالا بينه وبينهم منذ ثلاث عشرة سنة لا يهادنونه ولا يهادنهم . وانه لا يزال يغشى الأسواق داعيا لدينه ويعرض نفسه على حجاج البيت مناديا لدعوته . وأنه كان فيمن تصيد هؤلاء اليثربيين الاثنا عشر . وقد خشى عليهم العودة إلى دين آبائهم . فأرسل معهم هذا الذى يدعى مصعب بن عمير يعلمهم ويفقههم ويدعو غيرهم الى هذا الدين الجديد ، وهاهم يتكتبون حول الرجل فى جوار ابن خالتك وحمايته .

وما سمع سعد كل هذا حتى احتشد الغضب فى وجهه . وأطل الغيظ من عينيه . فانتزع الحربة من مكانها وصاح بصاحبه قائلا

ـ لا أبالك . خذ هذه الحربة وانطلق إلى هذين الرجلين فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارنا . فانه لولا أن اسعد بن زراره منى حيث قد

(١) يقصد الكعبة

علمت. ولا أجد عليه مقدما لكفيتك ذلك. فحمل سعد حربته وانطلق كالريح العاصفة يذود عن سيادته، ويدفع عن كرامته وديانته، وما أن رآه اسعد بن زرارة حتى مال على مصعب يسر اليه بشيء.. أغلب الظن أنه يحدثه عن خطر القادم وبأسه. وما يترجم عنه اندفاعه وغضبه، فرنى اليه مصعب ارناءة خاطفة من خلال أوراق العنب أحس منها على سرعتها ما خلف القادم من أحداث، ولكن ماذا يفزع المؤمن المهاجر يحمل رأسه على كفه من أجل الله وفي سبيله. وماذا يصنع الا أن يصطبر على اللأواء، أو يشكر الله على التوفيق وحسن البلاء!!

ثم مال (مصعب) على صاحبه وأسر اليه بما يمكن أن يقوله مجاهد صابر في عبارة مقتضبة جامعة. ثم أطرق برأسه ولم يرفعها إلا على صوت راعد يقول:

ـ ما هذا الذي تصنعان أيها الصابئان؟؟ أضنت عليكم الآلهة بالحيا (١) والنماء فكفرتم بها دون الناس. أم هبطت عليكم الهداية وحدكم دون الخلائق؟؟ أم تسهلتم ضعفاء الأحلام واستملحتم طيب المقام. ثم جمع (أسيد) كل شجاعته وشهر الحربة في يده. وصوبها نحو مصعب وأسعد وقال:

اعتزلانا ناكصين على الأعقاب.. إن كانت لكما بأنفسكما حاجة

مصعب ـ في هدوء ـ أو تجلس فتسمع؟؟ فان رضيت أمراً قبلته. وإن كرهته كف عنك

---

(١) المطر

فسكت اسيد هنيهة ثم نظر عن يمينه وشماله ليقرأ وقع ذلك فى وجوه بنى قومه ، فهدأت ثائرته وتراخت الحربة فى يده ثم رفعها فى الهواء وهوى بها إلى الارض . فانتصبت واقفة تهتز كأنها جان ، ثم سوى مكانه بقدمه يمينا وشمالا وجلس وهو يقول :

ـ أنصفت فيما تقول فهات ماعندك لأرى فيه رأيى

مصعب ـ إن الدين الذى جاء به رسول الله محمد يدعو الى ألا يشرك أحد بالله شيئا . ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه . ولا يعصيه فى معروف . فمن وفى ذلك فله الجنة . ومن غشى عن ذلك شيئا فأمره إلى الله . إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . ثم تلا عليه قوله تعالى :

(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى)

كان أسعد أول ماجلس يستمع ، عابس الوجه متجعد الجبهة . وما أن أخذ مصعب يتحدث عما بايع رسول الله الناس عليه ، حتى أخذت هذه العضلات المنكمشة تتفتح رويداً رويداً كما تتفتح الأزهار تحت حرارة الشمس ، وراحت عيونه المتوارية بالأهداب تتسع وتلتمع . كما تلتمع صفحة الماء تحت ضوء القمر ثم شعت على فمه ابتسامة تنطق بالرضا ، وتبعث على الارتياح ، ثم نظر إلى حربته فى زهو وخيلاء كأنه يعدها لأفق من الفتح جديد ، ويعول عليها لمجد عتيد ، ثم أسبل عينيه وشخص إلى محدثه وقال

ما أحسن هذا الكلام وما أجمله . وكيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين

فقال له مصعب

أن تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق

فقام أسيد بن حضير من فوره إلى البئر فاغتسل وغسل بعض ثيابه واستبدل الأخرى بمثلها وبينه وبين الناس ساتر ، ثم جاء فجلس بين يدى مصعب وأخذ يكرر مايعلمه إياه . ثم وقف موقف المصلى وراح يتلقى تعاليم الصلاة حتى أتمها . ثم أطرق وكأنما سرت روحانية الصلاة فى جسده سريان الماء فى العود الاخضر ، فأنعشته وهزته بالفرح والسرور ، ثم قال إن ورائى رجلا لو اتبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه . وسأرسله اليكما الآن ، ثم أخذ حربته وانصرف مطرقا مفكرا فماذا يقول لصاحبه سعد بن معاذ ، ينتظر ثمرة عمله فى طرد أسعد بن زرارة وصاحبه عمير من حائط بنى ظفر . وماذا يكون موقفه منه حين يعلم بفشله فى عمل شىء ، بل كيف يكون الحال وقد ذهبت لانتهارهما وطردهما والتضييق عليهما ، فأعود اليه وقد أصبحت نصيراً لهما

وإذا أمنت غضبه ومجافاته بعد ذلك ، فكيف أحتال عليه فى احضاره لصاحبي الجديدين وفاء لهما بما وعدتهما به ؟ ؟ الذى لاشك فيه أنه دين حق وأن ماتلاه على كلام كريم ، لايقدر عليه بشر ، وأن مجافاة القوم له حقد وجهالة أو ركود وأنانية . وانى لاأعدل به شيئا بعد ذلك حتى وان تصرم الحبل بينى وبين سعد بل بينى وبين الناس جميعا . على أن سعداً رجل ذو

رجاحة وحصافة . وانه ليثق برأيي ويحرص على مودتى . وأنه سوف لا يتنكر لى أو يستخف بحصاتى (١) وان كنت ـ حرصا على مودتنا ـ سأسلك معه جادة الحيلة ـ حتى إذا سمع هذا الكلام الرفيع وأخذ بجماله وبهر برصانته ، التقيت وإياه عند أقرب طريق

هذا ما كان يدور برأس أسيد بن حضير وهو فى طريقه لمقابلة سعد ابن معاذ وهذا ما استقر عليه رأيه فى النهاية بعد هذا الحوار الذى قام بينه وبين نفسه

* * *

وجم الكل حول سيدهم وابن سيدهم وقلقوا لقلقه . وتحاشوا التندر أمامه . وسعد بن معاذ على باب النادى يغدو ويروح . ثم يقف قبالة حوائط بنى ظفر لعل المقادير تسعفه بصديقه أسيد بن حضير . وكلما مرت ساعة من زمن وتلتها أخرى . دون أن يرى شبحا لصاحبه أو يوافيه نبأ عن مهمته التى راح لها ـ كلما غلا غضبه واشتد حنقه على هذا الضيف الذى سبب له كل هذا الازعاج . وبدأ يشعل ثقاب الفتنة بين الناس بعد أن وضعت الحرب بين الأوس والخزرج أوزارها . ووضع زعامته وزعامة صاحبه فى كفة المستقبل المجهول . وبينا هو فى هذا الارغاء والازباد إذ أفاقه صوت يقول :

هذا أسيد بن حضير قد وافى عن بعد . فأرسل سعد بن معاذ عينه فى ذيل الأفق . فاذا به يتوكأ على حربته فى تمهل كأنه يرزح تحت حمل

---

(١) عقلى

ثقيل . ويسير مطأطىء الرأس فى إطراق كأنه قد طافت به ذكريات رهيبة أو حلقت على رأسه أسراب من الطير ، فحدق سعد فيه النظر وحدده وقال والله إن أسيداً قد جاء بوجه غير الذى ذهب به فليت شعري ماوراءه ؟

ثم شخص إلى أسيد وكان قد دنا منه وقال

ـ ماذا فعلت ؟

أسيد ـ كلمت الرجلين فوالله مارأيت بها بأسا

أصوات ـ مستنكرة ـ بأسا ! ؟

أسيد ـ مستدركا على حديثه ـ وقد نهيتهما عما يقولان فقالا : نعمل ما أحببت .

سعد ـ ولكن ما الذى أهمك وأثقل لبك ؟

فسكت أسيد هنيهة حاك فيها أحبولته التى سيأخذه بها مكتوفا الى صاحبيه ثم قال :

ان بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وما ذكروا أنه ابن خالتك حتى اعتزموا تحقيرك وامتهانك

فأخذت سعد عزة الجاهلية وغضب للموقف الضعيف الذى وقفه أسيد ابن حضير (فى زعمه) وسار غاضبا .. ثم عاد فقال :

والله ما أراك قد أغنيت شيئا عما أرسلتك به وانى لامحالة من أن آخذهما بكرامتى التى كادت تذروها الرياح بفعلة ابن خالتى . ثم حمل حربته وانصرف وخلفه أسيد بن حضير يتابع القيام بدوره ، حتى يسقى صاحبه

من الرحيق الذى شرب منه ويمتزج الاسلام بقلبه ويفى بما وعد به صاحبيه فيصبحا أخوين فى الاسلام ، كما كانا كذلك فى الجاهلية

***

أصاب النادى شيء من الفرح والانتعاش على أثر انصراف سعد بن معاذ وصاحبه الى حائط بنى ظفر ، فتحدث المتحدثون ، وتندر المتندرون بشيء من التحفظ والاقلال ، ولكن هذا الانتعاش لم يدم طويلا بين السامرين فقد أخذ بطء عودتهما ، وانقطاع أنبائهما ، تنقض من حبل اصطبارهم ، وتنغص عليهم مقامهم ، وتعكر هدوءهم ، وليس المقام بالشيء الذى يمكن الانصراف عنه دون معرفته فينصرفون ، ولا بالأمر الذى يتطلب النجدة والعون فيسارعون اليهما وحدانا ومثنى ، وما راعهم بعد طول الانتظار ، ونفاد الصبر إلا رؤية سعد وأسيد يسيران على قدمين من ثبات وسرعة صوب النادى والكل فى انتظار الأخبار على أحر من الجمر ثم جاء سعد حتى وقف دون الناس وأمسك بحربته ونادى فى قوة وشجاعة وقال :

يابنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

أصوات ـ سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة

سعد ـ ان كلام رجالكم ونسائكم على حرام . حتى تؤمنوا بالله وبرسوله

فلم يراجعه أحد ولم ينقض كلامه

كلمات معدودات تردد صداها فى أحياء يثرب وما حولها . فأضاءت ظلمة النفوس وأخصبت مجدبها ، فاخضرت وأينعت وأتت بأبرك الثمرات

٤

« ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله »
« يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فانما »
« ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد »
« عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما »

قرآن كريم

استعار — مصعب — من الليل رداءه وأخذ يتسلل بين الدروب ويلتوى مع الازقة حتى وقف بباب الرسول الامين تتنازعه عاطفة الاشفاق على راحته من مفاجآت الليل ، وعاطفة الشغف برؤيته والحنين اليه ، مع عظيم ما يحمل له من أخبار (يثرب) وازدهار الاسلام بها وقوة المسلمين فيها . فآثر الثانية على الاولى ودق على رسول الله بابه فى خفة وهدوء فأذن له فى الدخول ولما ينته رسول الله بعد من صلاة الليل الاولى ، فرحب الرسول به أعظم ترحيب . وراح مصعب يروى ظمأه منه عناقا ولثما ، ثم أطرق حتى أتم رسول الله صلاته ثم قال مجيبا

إن أهل يثرب يارسول الله قوم أوفياء وان الحرب بين الاوس والخزرج قد طحنتهم بكلكلها فعافوها. وكرهوا مذاقها . وألفوا فى الاسلام الدواء الناجع فتكتبوا حول ورده وقد دفع الشيطان بأسيد بن حضير وسعد ابن معاذ لاطاحتنا ، فوقعا معا فى جمال القرآن وأسره بطريقة متشابهة ، وأسلم باسلامهما خلق كثير حتى لم يعد هناك منزل واحد ليس فيه مسلم أو مسلمة

اللهم الا ما كان من دار ابن أمية بن زيد وخيثمة ووائل وواقف ، وذلك لتوقف شاعرهم ابى قبيس بن الاسلت المشهور بصيفى - عن الاسلام - وإنى لآمل أن يكون فيما بعد من أئمة المسلمين ما دام قد أسلم من صناديدها أسعد بن زراره ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحه ، ورافع بن مالك والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حزام ، وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر ، وابو الهيثم بن التيهان وهم سادات الأوس والخزرج .. وان المسلمين هناك فى قوة ومنعة وطمأنينة ودعة ورخاء ، لما تزخر به يثرب وما حولها من زروع ونخيل وأعناب وأمواه ، وقد حضر الى حج هذا العام من المسلمين نحو ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين

كان مصعب يقول هذا ونشوة الفرح والسرور تتمشى فى جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظهر ذلك فى وجهه يتفصد بالبشر ويفيض بالجذل ثم سكت عمير وأطرق رسول الله طويلا يستعرض ما عليه المسلمون فى مكة وما يقاسونه فيها من ضروب العذاب وأنواع المحن زهاء ثلاثة عشر عاما رغم خشونة العيش وقسوة الطبيعة ، وان المؤمن وان استساغ مرارة الألم واستعذب التضحية عن رضى وطيب خاطر ، الا أن فى استمرارها ما يشغل المؤمن عما وراء ذلك من التوسع فى العلم ، والاشتغال بما ينمى فيه قوة التمسك بالحق ، وعاطفة التفانى فيما يعتقد واذا كان الله قد فتح على الاسلام (يثرب) بعد كل هذا الجهد والاصطبار ، فلماذا لا يهاجر المسلمون اليها ولا شك أن الله سينصر من ينصره .. واذا كانت الهجرة الى الحبشة لم تأت

بكل فوائدها وانها لم تتعد عصمة المسلمين ومنعهم من شر عداتهم . فان مقدمات الهجرة الى يثرب قد دلت على عكس ذلك . وماذا انتظر من البقاء بمكة مقر بيت الله ومهوى فؤادى ، بعد كل هذا التجلد والاحتمال؟؟ نعم أن بنى هاشم والمطلب قد منعونى من قريش ، وكفونى شر أذاها ، ولـكن هل هذا كل ما تتطلبه نصرة الاسلام وما تحتاجـه الدعوة ، وهل يكتفى بهذا بينما المسلمون يؤذون فى كل شبر من أرض مكة ، ويعتدى على أرزاقهم ، ويتآمر على حياتهم ؟؟ ثم الى متى يظل الموقف سلبيا مع أعداء الله ورسوله ، والى متى تظل البيعة بينى وبين الناس سلمية هادئة قاصرة على اجتناب الشرك . ومجافاة السرقة . والزنا والقتل ولا تكون حلفا على السلم والحرب حتى يدفع المسلمون الاذى بالأذى والعدوان بالعدوان ؟ وها هى ساعة العمل قد حانت . سيما بعد أن اسلم كل هؤلاء الزعماء ، وألف الله بين الأوس والخزرج فى الاسلام

لعل هذا بعض ما كان يدور بخلده صلى الله عليه وسلم . بعد أن سمع ما سمع من مصعب ابن عمير .. ثم تنفس هادئا وابتسم مطمئنا لما استقر عليه رأيه ثم قال لمصعب ما معناه .

أرجو أن التقى بالمسلمين عند العقبة فى منتصف الليلة الثانيـة من أيام التشريق دون أن يعلم بهذا أحد من مشركى مكة أو يثرب

* * *

سكن الكون ونام ، وآوت مكة الى حجر الطبيعة ملتفعة بفضة القمر الا قلوباً تنبض فى الظلام حية وهاجة ، وعيونا تتابع النجوم وتعد على الليل

أنفاسه ، حتى اذا بلغت الكواكب منتصف الشوط تلمس كل صاحبه فى الرحال . وضغط على بعض أطرافه فنهض الجميع يتسللون فى هذا السكون كالأطياف . ويهيمون كأسراب القطا لا تسمع لهم صوتاً ولا حفيفا . يقودهم دليلهم بالاشارة ويرد همسهم بالايماء . ويطوف حولهم بنظرات ملؤها الغبطة بدنو النجاح ، ثم يعود فيقف على مرتفع ليتأكد خلو الطريق من متجسس أو طفيلى يتابع ظلهم عن كثب ، ثم يتابعون سيرهم بين الجنادل (١) والشعب (٢) يرتفعون تارة وينخفضون ، كرهط من الزوارق يسير بقوة التيار بين صخور شلال عاتية ، وما دنوا من المكان اللعين (٣) حتى ازدادت دقات قلوبهم ، وبهرت أنفاسهم لا من صعوبة الطريق أو اعياء المسير . ولكن فرحا بلقيا البشير النذير ، غير أن فرحهم لم تكتمل موجاته لعدم وجوده صلى الله عليه وسلم . فأضاف ذلك الى متاعب الليل متاعب الانتظار ، والى شعلة المحبة جمرة المستقبل المجهول . ثم جلسوا فوق الآكام والجنادل يرصدون الطريق . ويتفحصون تمايل الظلام من هبات النسيم ، ألبشر يكون هذا التمايل أم للاغصان ؟؟. وكلما مرت سويعات وتلتها أخواتها كلما ضاق الفضاء أمامهم والهبت حرارة الدم وجوههم . وغلا مرجل المحبة فى صدورهم . حتى كانت صيحة خافتة عميقة أرسلها مصعب بن عمارة يقول :

---

(١) جمع جندل وهو الصخرة الكبيرة

(٢) الاحجار المدببة المتصلة بطبيعة الارض

(٣) العقبة

هذا رسول الله قد وافى العقبة

فغطى أسعد بن زرارة فمه بيده لئلا يرتفع صوته بكلام آخر ، ولكن ذلك لم يكن معينا ولا ضابطا للموقف ازاء سيل من المحبة جارف . وعاصفة من السرور جائحة . مسحت المخاوف. وأزالت حواجز التكتم والحيطة سيما وهم بمنأى عن مكة ومن فيها من المشركين

ثم جلس رسول الله قبالة القوم فى فرح مكبوت تترجم عنه بسمته الهادئة ونظراته المسعدة الساجية . وجلس عمه العباس (١) عن يساره ، وسيفه على فخذيه ثم قال

يا معشر القوم : ان محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ؛ وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده

أسعد بن زرارة ـ قد سمعنا ماقلت يا ابن عبدالمطلب . فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت . فتلا رسول الله آيات من القرآن . كان القوم خلالها فى سكر اللذة ، أو لذة السكر ، تسبح فى سمائه هذه الفطر السليمة التى أعدها الله فيما بعد لتأدية رسالة الاسلام

---

(١) وكان العباس إذ ذاك لا يزال على دين قومه . وانما كان يصاحب رسول الله حماية له .

ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم

فأخذ البراء بن معرور بيده وشد عليها وقال

بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر والذى بعثك بالحق . لنمنعك مما . .

أبو الهيثم — مقاطعا — يارسول الله ان بيننا وبين الرجال (١) حبالا نحن قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

بل الدم الدم.. والهدم والهدم (٢) أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم. وأسالم من سالمتم

فكبر القوم فى هدوء ومدوا أيديهم للبيعة ، فقاطعهم العباس بن عبادة قائلا .

يا معشر الخزرج (٣) أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟؟ انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس . فان كنتم ترون انكم اذا نهكت أموالكم مصيبة. وأشرافكم قتلا ، اسلمتوه ، فمن الآن فدعوه .فهو والله إن فعلتم، خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الاشراف فخذوه . فهو والله خير الدنيا والآخرة

«١» يقصد اليهود

«٢» الهدم بسكون الدال : أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم

«٣» خاطب الجميع باسم الخزرج تغليبا للخزرج على الاوس

أصوات انا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الاشراف

رفاعه — وما لنا يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك ؟

فابتسم صلى الله عليه وسلم هادئا ، وتنفس مطمئنا وقال :

الجنة . الجنة

ثم مدوا أيديهم متزاحمين على البيعة ثم قالوا :

بايعناك على الحرب والسلم . نمنعك مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا . والله شهيد ووكيل

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

اخرجوا منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء .

فتنحى القوم قليلا وتحدثوا فيما بينهم مليا ، ثم عادوا يخبرون رسول الله بأسماء نقبائهم فصاح مصعب وقال :

كأنى يا رسول الله على علم بهم . هم الذين خبرتك عنهم بقضهم وقضيضهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى

أحد النقباء — بايعناك على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا . وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم

أصوات — على هذا بايعنا الله ورسوله

ثم خيم السكون قليلا ، وغاب كل عن وجوده مشتغلا بقراءة صفحة

المستقبل وما يمكن أن تحمل من أحداث، وماشق هذا السكون إلا صوت صائح من وراء الآكام يقول

ان محمدا والصباء (١) معه ، قد اجتمعوا على حربكم

فتلفت القوم دهشة لهذا الشيطان يخرج عليهم من مأمنهم . ويفاجئهم بما ليس فى حسابهم

* * *

وكان المار أمام دار أبى سفيان قبيل الفجر يسمع مناديا ينادى به ويقول

ياأهل الحباحب (٢) هل لكم فى مذمم (٣) والصباء معه قد اجتمعوا لحربكم

فنزل أبو سفيان وكأنه سقط من عل ، وأرسل فى طلب عمرو بن هشام وعكرمة بن عمرو وعتبة وربيعة بن شيبة وغيرهم من زعماء قريش حتى امتلأت بهم دار أبى سفيان . وراح عبد العزى (الجاسوس) يشرح لهم كيف وأين اجتمعوا وماذا قالوا وعلى أى شيء تحالفوا ، والكل فوق اتون من الحقد والغضب حتى قال

أرقت (٤) لامرما ، فغادرت فراشى . وظلت قدماى تسيران بى إلى أن سمعت ما يشبه الهمس . فأيقنت أن هناك أمرا يبيت بليل

ودفع بى فضولى الى أن اكمن لهم وأتسمع ما يقولون . حتى عرفت

«١» جمع صابيء وهو الخارج على دين قومه

«٢» الحباحب المنازل

«٣» كلمة كانوا يطلقونها علي رسول الله تحقيرا وهي مقلوب كلمة محمد

«٤» الارق ذهاب النوم

انهم من الاوس والخزرج ، وانهم قد حالفوه على الحرب والسلم ، وبذل الاموال وإهراق الدماء

أصوات — دماء ؟؟ !!

أبو سفيان — وكيف عرفت محمدا بينهم

عبد العزى — عرفته بصوته حين رد على وأنا أهتف (هذا مذمم والصباء يريدون حربكم)

فقال لى (استمع يا عدو الله .. والله لأفرغن لك) ثم شخص إلى من حوله يزيل مخاوفهم ويهزأ بأحلامهم فقال (هذا صوت الشيطان يصرفنا عن الهدى والرشاد) فاستحمس أحد هؤلاء اليثربيين لنبيه وقال له : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا . فرد عليه قائلا لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم

أبو سفيان — ان الأمر لجد خطير ، وانه لاغضاء على قذى ، وهدنة على دخن ، أن لا نقلب وجوه الامر ومناحيه

عمرو بن هشام — وكيف السبيل الى التحقق مما يقول عبد العزى قبل أن نكاشف القوم (١) بما نمى الينا . حتى إذا وقع الكلام موقعه أخذناهم بما فعلوا ، والا كانوا جد أبرياء

أبو سفيان — لا مناص من أن نصبحهم فى منازلهم ، ونتنطس (٢) عليهم حتى يحصحص (٣) الحق ، ونعرف ما بيتوا بليل لقريش . فانتصارنا على محمد زهاء اثنى عشر عاما وحصر دعوته بمكة ، يوشك أن يتفلت من

---

(١) يقصد اليثربيين (٢) نتجسس (٣) يظهر فى جلاء

أيدينا ، واذا صح هذا الذى قيل ، فليس بعيداً أن يكون منهم من يغزونا فى عقر دارنا غداً .

***

وتحت القباب الحمراء جلس أبو سفيان وعمرو بن هشام ومن معهما وجاء اليثربيون مرحبين بسادة قريش وزعمائها فابتدرأبوسفيان الحديث قائلا :

يا معشر الخزرج انه قد بلغنا انكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا . وتبايعونه على حربنا . وانه والله مامن حى من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم

مدركة بن فهر – مبهوتا – من صاحبكم هذا ومتى نستخرجه وإلى أين نذهب به ؟؟ ! أفى يقظة نحن أم فى منام ؟ !

أبو سفيان — بالأمس كان رهط منكم عند العقبة بين الشعاب وفيكم محمد بن عبدالله هذا المتنبي ، وبايعتموه على الحرب والسلم . وكان بينكم وبينه ما هو أشد من الحلف توثيقا وقوة ..

مدركة – ينظر إلى القوم فى حيرة – ثم يقول لمحدثه أحقا ما تقول أم أنت مازح . ان واحداً منا لم يغادر فراشه – ورب هذا البيت – منذ الأمس ، وأكبر الظن أنها رؤيا مزعجة

عكرمة — محتدا — ما هذا الذى تقوله يا مدركة . انها رؤية لا رؤيا وانك تداورنا فيا تقول متسهلا فيما يذهب فى سبيل ذلك من أموال ودماء

مدركه — والبيت ذى الحجب ، والعلامات والنصب ، إن شيئا من ذلك لم يقع

كل هذا كان يدور. والمسلمون ينظر بعضهم الى بعض، كأنهم من الامر على جهل به. ويكتمون من الضحك مايكتمون من السر لا تفتر شفة عنه بابتسام

* * *

هذه حلقة من الصبيان تصيح وتهلل. وهؤلاء شبان قريش وصناديدها قد أوثقوا رجلا وضيئا بالحبال. وغلوا يده عند عنقه وأخذوا يهوون عليه بالجريد والعصى حتى اذا تعبوا وثبت عليه جمهرة من الشيوخ تتضاحك كالقردة هذا يبصق عليه، وذاك يجذبه من شعره الكث الطويل، وثالث يركله بقدمه.. ووقف بالقرب من ذلك رجلان قد خط الحزن على وجه أحدهما خطوطا عميقة فمال أحدهما على صاحبه وهمس فى أذنه قائلا :

من هذا الغريب المضطهد تعذبه قريش

فتنفس صاحبه حارا ، وحبس دمعة كادت تنحدر من مآقيه وقال :

هذا سعد بن عبادة سيد من سادات يثرب

مصعب — ولم كل هذا العذاب وللضيف قراه

ليث — يبدو أن وشاية وقعت بين قريش وبين حجاج يثرب فى أن بينهم من آمن بدعوة محمد بن عبد الله وتحالف معه على الحرب والسلم وانها بدأت اشاعة ثم كبرت رواية ، ثم تأكدت عند الاشراف والسادة فلاحقوهم فى الطريق الى يثرب . فأدركوا اثنين منهم ، أما أحدهما وهو المنذر بن عمرو فقد جاهد عن نفسه حتى تخلص ممن أدركوه واختفى عن أنظارهم . وأما الثانى فهو من ترى

مصعب — أليس له من يجيره من أهل مكة

ليث — لا أدرى وأبيك . وحبذا المجير فى مثل هذه الضائقة

مصعب — اذا كان يعنيك من أمره شىء . فتقدم اليه واحتل على الموقف حتى تخلصه من أيدى القوم

فتقدم ليث نحوه وأخذه من جمته (١) وراح يشيح بيده فى وجهه متظاهرا بالعزم على لكمه ثم قال له فى خفوت

ويحك اما تستجير ؟! أما بينك وبين أحد من قريش جوار

سعد بن عبادة — بلى والله . لقد كنت أجير بن مطعم والحرث ابن حرب وامنعهما ومن معهما ممن أرادوا ظلمهم ببلادى

ليث — ويحك.. اهتف باسم الرجلين. واذكر ما بينك وبينهما من جوار

... وما راع القوم الا هتاف سعد

أنا فى جوار جبير بن مطعم والحرث بن حرب ثم ما راعهم بعد ذلك الا حضور جبير والحرث وقد صاحا معا

قد أجرناك يا سعد

ثم قال جبير

والله انك لتحمى الحمى وتقرى الضيف

فتنحى القوم عنه ونامت أذرعهم على جنوبهم وعاد كل الى جوار صاحبه محزونا . يرنو بعين كارهة لهذه الفاجأة ويرمق جبيرا والحرث وهما يفكان وثاق سعد ، ويمسحان على وجهه وجسده آثار الضرب ثم عادا به إلى منزليهما

---

(١) مقدم شعر رأسه



أسلم عمرو بن الجموح بحيلة طريفة ، قام بها ولده معاذ بن عمرو ، فأتم الله باسلامه فتح يثرب بسلاح الحب.

١

« وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون »

قرآن كريم

فى ناحية من المنزل الفسيح وتحت شجرة السدر (١) الكبيرة الضاربة فى الفضاء ، جلس معاذ بن عمرو وعمرو بن معاذ يتذاكران ما سمعاه من رسول الله أثناء وجودهما فى مكة ، وما عاهدهم عليه عند العقبة ، ويدبران طريقة الدعوة الى الاسلام فى حيهم بين الاشياخ المحافظين على أطلال القديم . فاسترعى انتباههما صوت صادىء أجش ينطلق راعدا بين المحتكمين اليه وهو يقول :

انى حلفت يمين صدق برة (بمناة) عند محل آل الخزرج

فنظر عمرو بن معاذ الى صاحبه نظرة صارمة وقال له

وهذا أبوك يعلن شركه على مسمع من سدنة (٢) التوحيد

فأطرق معاذ بن عمرو برأسه الى الارض مفكراً ما يصنع ، حائراً بين حنان الابوة وعاطفة الاسلام . ملجما لا يدرى ما يقول لمحدثه . . أيعتذر عن أبيه بأن هذا البيت من نظم غيره وقد تمثل به فقط .. ولكن كيف يتفق هذا وبالقرب منه صنمه (مناة) يطوف به كلما هزه الشوق الى آلهة الكعبة . ويسفك عنده دماء الضحايا تقربا اليه ! ! أم يقف من أبيه موقفا صارماً على تماديه فى تقاليده وإمعانه فى عناده وشركه ؟؟ ولكن ذلك لا يتفق مع مقام

(١) النبق (٢) خدام

الابوة . ولا يتمشى مع أساليب الحكمة والموعظة الحسنة فى الهداية والرشاد الى الدين الحنيف

٥

لعل هذا ما كان يدور برأس معاذ بن عمرو فى اطراقته الطويلة التى لم يوقظه منها الا يد صاحبه تربت على كتفه ثم تحدث اليه مواسيا وقائلا :

لله يامعاذ لم يسمع بعد ، قول الاعرابى

أتينا الى سعد (١) ليجمع شملنا فشتتنا سعد فما نحن من سعد

وما سعد إلا صخرة بتنوفة (٢) من الارض لاتدعو الى خير ولا رشد

معاذ بن عمرو — دعنا وأبيك يا عمر من هذا التمحل لذياك المشرك الفانى ، وانثر لنا كنانة حيلك لانقاذه قبل أن تدركه المنون فان لم تدركه وأسلم ، فتحنا على الاسلام به مغاليق بني سلمه .

عمرو بن معاذ — خل عنك الهم والشجن فوحقك لنحملنه على دين التوحيد دون أن تعق فيه أبوتك . أو تتعرض لسخطه عليك .

***

استيقظ عمرو بن الجموح على غير عادته مبكرا . وهتف بعبيده وخدمه أن اطلقوا البخور اليمنى حول الاله (مناة)

فكان السائر حول منزل عمرو فى مثل هذه الساعة تنعشه رائحة العود ، فى حلقات متتابعة متراقصة فى الفضاء . فتكسو وجه الافق بنقاب ارجوانى شفاف . ويسمع من وراء ذلك صوتا شفه الحنين واذواه الشوق

---

(١) والسبب في هذا أن القائل ذهب ليطوف بهذا الصنم فجفلت منه ناقته وجمحت فأنشد هذين البيتين (٢) المكان المرتفع

الى الكعبة فراح يتمثل فى طوافه بها ويقول .

لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك الا شريك هو لك . تملكه أنت وما ملك (١)

وظل عمرو يدور فى هذا الغلس المنعقد حوله ويردد هذه الارجوزه حتى هبت ريح سريعة فبددت سحائب البخور ومكنت لضوء الصباح فى المعبد الصغير ، فكأنها ستارة قد انحسرت عن منظر فازع ، جحظت له عينا العابد متراجعا ، وارتعشت أمامه يداه ، ثم تلفت يمينا وشمالا فى سرعة خاطفة كأنما يبحث عن شىء ، ثم صرخ صرخة راعدة وقال

يا للاله !! وأين ذهب ؟ أيكون قد أدركه الغضب على سيد بنى سلمة فقلاه ؟! إذن فالويل لى .. أم عدت عليه يد الاشقياء فأقصوه عنى ؟! ولكن كيف يتم ذلك وهو إله قادر

لعل هذا ما كانت تحدث عمرو به نفسه حين تكشف نور الصباح عن ختفاء إلهه (مناة) فجأة من مكانه المعهود ، ثم صاح

يا للعبيد .. أين إلهكم وإله سيدكم ؟

فزاغت أبصارهم . وبلغت القلوب حناجرهم . وأخذ ينظر بعضهم الى بعض فى لهفة من يتمنى الموت قبل أن يتوجه اليه سؤال آخر . .

ثم خرج من المنزل ذاهلا لا يكاد يصدق أنه قد فقد محبوبه والهه . وخلفه الخدم والعبيد ميمما بيت الكاهن عبد شمس يسأله عما عساه يكون قد حدث فى عالم السماء والارض . حتى جد هذا الاختفاء الغريب ولكنه ما سار طويلا حتى لفت نظره مجموعة من الصبية تتدافع حول حفرة

(١) في هذا اشارة الي ماجاء به القرآن في الآية المنشورة على صدر هذه الصورة

أعدت لطرح الفضلات . فدعاه الفضول الى مثل ما اجتمع حوله الاطفال ، فألفى الهه (مناة) منكسا على رأسه فى هذه الحفرة فوقف دونه تتنازعه عاطفتان عاطفة الفرح المشوب بالحقد على من ارتكبوا هذه الجريمة الشنعاء . وعاطفة التشكك فى أن يرضى إلهه بهذا المصير المهين

غير أن ما تركز فى النفس . وامتزج بالعاطفة لا يمكن أن يزول أثره دفعة واحدة . ولهذا تغلبت عليه عقيدة الجاهلية وتقاليد الوراثة فغالب مبادىء الشك التى كانت قد انتابته . وهوى على إلهه ينقذه مماهو فيه بنفسه تكريما له وكفاه لمحبته إياه . ثم أخذ ينظر اليه بعين سخينة وعبرة محتبسة ويمسح عنه ما علق به من أقذار ويقول

والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته

* * *

ومال عمرو بن معاذ على أذن صاحبه فى مجلس القوم وقال

هذا أبوك قد جاء للمرة الثانية بالهه وراح ينظفه ويعطره كعادته فى ذلك

فأرسلها معاذ بن عمرو زفرة تكاد تتمزق لها ضوالعه : واحتقن الدم فى وجهه ثم تجمل بالصمت . وراح يفكر فيما يصنع ازاء هذا الخطب المدلهم ، ثم رأى أن الموقف أصبح أشد مما تحتمله نفس مسلم كريم . وان الصمت عليه أو مداجاته عقبة كبرى فى سبيل تقدم الدعوة الجديدة . لما لأبيه من منازل الشرف والسيادة فى قومه ، فرأى أن يشاكسه أولا ثم يتحداه . فأخذ ينشد على مسمع من أبيه

أربا واحداً أم ألف رب   أدين اذا تعددت الامور

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل البصير
فلا « العزى » أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا « هبلا » أزور وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير

أطرق أبوه لهذه الأبيات طويلا وأسكته عن أن يغلظ لابنه القول فى تحديه له ـ مازاد فى تشككه نحو إلهه الذى لايخرج من حفرة دفرة (١) إلا الى مثلها .. ولكن حمية الجاهلية وبقايا العاطفة الهوجاء . تأبى عليه أن يسلم رايته لابنه الصغير ، ويخلى الميدان له مهزوما أمامه فأغضى على قذى وتهادن على دخن . وصمت طويلا ثم قام الى إلهه ووقف قبالته وانتزع سيفه من حمائله ثائراً مستحمسا وعلقه فى عنق (مناة) وقال له

إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فان كان فيك خير . فامتنع فهذا السيف معك ، ثم انصرف الى مخدعه وقلبه معلق بين الخوف على إلهه والأمل فى نجاته .

وما انقشعت ظلمة الليل عن غرة الصباح . حتى كان عمرو على حافة الحفرة القذرة ينظر الى (مناة) بعين ملؤها اليأس والاستخفاف بهذا الذى توهمه إلها ولم يكن سوى قطعة من خشب لاتضر ولاتنفع ثم أنشد موحداً يقول

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر فى قرن
أف للقياك إلها مستدن الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مرتهن
باحمد المهدى النبي ذى المنن

(١) منتنة

فهرس الجزء الثاني

حسب الترتيب التاريخي للسيرة

تم الجزء الثانى وسيليه الجزء الثالث قريباً باذن الله تعالى .

فنرجوه التوفيق والنجاح خالصا لوجهه الكريم

